

رواية هنغارية

كن طيباً حتى الممات

جيجموند موريتس

ترجمة
د. عبدالله عبدالعاطي النجار
محمد سعد صالح

تم تحويلها إلى فيلمين شهيرين حققا نجاحاً باهراً

رواية هنغارية

كن طيباً حتى الممات

جيجموند موريتس

ترجمة: د. عبدالله عبدالعاطي النجار
محمد سعد صالح

تم تحويلها إلى فيلمين شهيرين حققا نجاحاً باهراً.
ترجمت إلى ما يقرب من20 لغة أجنبية.



عنوان الكتاب:
كن طيباً حتى الممات
اسم المؤلف:

جيجموند موريتس
اسم المترجم:
د. عبدالله عبدالعاطي النجار
محمد سعد صالح
التصنيف العمري:
E
الترقيم الدولي:
ISBN 978-9948-714-21-7
رقم إذن الطباعة:
MC-02-01-0954864

الفصل الأول

إنّه لمبنى كبير كئيب مربع الشكل ذلك الّذي يسمّى مدينة الطلاب، ولنقل على وجه التحديد كان الجزء الأول كئيباً، وهو المبنى العتيق من جهة الكنيسة الكبيرة "Nagytemplom"، أما الثلاثة أجزاء الخلفية فكانت موحشة وتشكل فناء مربعاً. ومدينة الطلاب بأجزائها الأربعة تلك كانت تُعجب التلميذ الصغير، ولكنه يشعر بالخوف في غرفة المذاكرة والنوم؛ يقضّ مضجعه قرع الأحذية الصغيرة الصلبة في الممرات الخاوية، وشقشقة آلاف العصافير تنبعث من بين أوراق شجر السرو العمودية[1] الشاهقة القابعة في الفناء.

جذب التلميذ الصغير الدرج الأخير من المنضدة الكبيرة المطلية باللون الأخضر الموجودة وسط الغرفة، وبدأ يبحث فيه. سطح المنضدة متآكل، يتأسف على الخدوش التي تشوّه سطحها، الدرج يعجبه، فما زال لونه أخضر يانعاً. كان الدرج مليئاً بالكتب والكراريس الملقاة بعشوائية،التقط كتاب النحو للغة اللاتينية، يريد الذهاب إلى حديقة النباتات ليذاكر فصل: صيغ الفعل والأسماء، لمح زميله الأكبر منه "بوسورميني" "Böszörményi" مستلقياً على السرير، مدلياً رجله اليمنى باتجاه الأرض، يراقب عنكبوتاً على السقف، في تلك اللّحظة أدرك أنه يستطيع اختلاس بضع دقائق لمعاينة كنوزه؛ كتاب "ميهاي تشوكوناي فيتيز" "Csokonai Vitéz Mihály"، اشتراه بثلاثين كرايتساراً من محل الكتب المستعملة، وقد عاينه على زجاج العرض لمدة عام كامل، حينها لم يكن يسكن في مدينة الطلاب، يتأكد كل يوم من وجوده، في الحقيقة لم يفعل ذلك طوال العام الماضي، لأنّه اكتشف وجود الكتاب في شهر مايو أو في نهاية العام. وقتها كان بالغاً، كان ذلك في نهاية السنة الأولى بالمدرسة الثانوية حين انتبه إلى نافذة المكتبة وبداخلها "تشوكوناي"!

عاد إلى منزله في الإجازة الصيفية، تأسّف على عدم شراء الكتاب، تعكر صفو إجازته، يفكر بالكتاب، يتساءل إن كان أحد اشتراه أو أنه ما زال موجوداً في نافذة العرض. ناوشه ذلك الخاطر عند عودته إلى دبرتسن بالقطار وهو ينظر إلى السهول من النافذة: يا إلهي، هل مازال كتاب "تشوكوناي" موجوداً؟ وصل مدينة الطلاب، لم يتقدّم للتسجيل، سكن في الغرفة رقم 19 الواقعة في الطابق الثاني، بها سبعة أسّرة، ثلاثة تقابل مثيلاتها الأخرى على الجدار الرئيسي، ويقع السرير السابع على الجدار الأصغر عند الباب؛ وذلك السّرير قد رفضه التلاميذ جميعهم، أمّا هو فقد فرح به كثيراً، بدا له وكأنه قلعة مستقلة.

مساء، زار محل هارماتي "Harmathy"، وقف في الخارج يطالع نافذة العرض. يا إلهي، غلافه الوردي الجميل بهت قليلاً من أثر الشمس والغبار الذي يغطيه. لم يهتم، فالكتاب ما زال موجوداً. رغب أن يقتنيه، تردّد، خشي أن يخسر النقود التي حصل عليها من والديه في شيء عبثي. وبذلك أصبح دائم التّردّد على المكتبة؛ ليتأكد من وجود الكتاب.

شعر بالرعب في أحد الصباحات، العامل يفتح النافذة الزجاجية، يرتجف، يتساءل: هل سيخرج كتاب "تشوكوناي"؟ جمع العامل الكتب، رصها في عمود طويل ثم نقلها إلى الداخل. لم يعرف ما الذي سيفعله بها. رنّ جرس الحصة الأولى، وأُجبر على الذهاب إلى المدرسة. في استراحة العشر دقائق، هرع واجفاً قلقاً إلى المكتبة، نافذة العرض فارغة، العامل يكنس بارتياح الأوساخ الكثيرة بمقشة مصنوعة من الريش، لم يتمكن من رؤية شيء آخر، استدار وعاد مسرعاً إلى مدينة الطلاب. تائه يفكر، وسؤال يتردّد في عقله: تُرى ما الذي سيحدث مع الكتب التي يحملها العامل إلى الداخل؟ ربما أتى شخص ثري وشاهد نوافذ العرض وقال سأشتريها كلها. شعر بالضيق، كما لو كان أخوه أو شخص يحبه قد مات.

لم يجرؤ على الذهاب إلى المكتبة إلا بعد بضعة أيام، تفاجأ، فنافذة العرض مليئة بالكتب، وأضيفت إليها كتب أخرى لم يرها سابقاً. لم يستطع النوم في الليل، ظلّ حائراً يفكر في الكتب التي يملكها العجوز "هارماتي"، كان تاجر عطارة، وأصبح بائع كتب قديمة بعد أن اشترت مطبعة المدينة مهملاته ومنثوراته عديمة القيمة، فاستحسن مهنة الأوراق وجمع الكتب. كان العجوز "هارماتي" مستاء طوال الوقت، يقف أمام باب محله، ولا تتغير سحنته إلا أن دخل أحد الزبائن محله ليشتري شيئاً. يبدو أنه عرض كتباً جديدة لجذب المارة، فموقع المكتبة سيء جداً، وقليل عدد المارة فيه، وأغلبهم من الخادمات

اللاتي يحملن الأباريق، ومدرس يعود إلى بيته من ذلك الطريق. تجدّدت الرغبةبالكتاب في منتصف أكتوبر، تجرأ، دخل المحل بوجه أحمر كاللهب، يحملق العامل فيه، قال له: "من فضلك، رأيت في نافذة العرض كتاباً عن "تشوكوناي"، أتساءل إن كان موجوداً، أرجو أن تبحث عنه لأشتريه". وجده العامل بعد أن بحث عنه، طلب ثلاثين كرايتساراً، استغرب، فقد كان متأهباً للأسوأ؛ لفورنت كامل، وكان ذلك هو كلّ ما لديه.

عاد راكضاً يحمل الكتاب مثل كلب صغير حصل على عظمة كبيرة، يركض خشية أن يأخذها منه أحد. لم يكن الكتاب كما اعتقد، لم تكن فيه أشعار "تشوكوناي"، وكلّ ما هنالك ثرثرة ما عن حياته. قرأ الصفحة الأولى، لم يفهم شيئاً؛ والّتي فيها: "من خلال الفسيولوجيا اليوم بالفعل ما أصبح حقيقة؛ ذلك التخمين الذي يقول بأن ماهيات وخصائص الروح وقوتها تسري طبقاً لذلك في الأطفال من الأصل؛ مثل سمات وقوة أجسادهم، المثل المثير للميراث الروحي ميهاي هو "تشوكوناي فيتيز". ثمّ يعيد القراءة مراراً وتكراراً، يحاول ولكنه لم يفهم شيئاً. استمر ذلك في الكتاب كله، ففترت رغبة القراءة لديه، ولكنه ما زال سعيداً بشرائه الكتاب، فلقد أصبح يملكه أخيراً، لم يبعد عينه عن عنوانه، كتب أعلاه على اليمين اسم: "ميهاي نيلاش 1892". وفي النصف السفلي طُبع اسم: "المحامي أودون شبيتز" بلون أزرق، شطبه بقلم حبر بلا رحمة. كان يشعر بالسعادة لامتلاكه شيء اشتراه بنفسه، أصبح لديه كتاب حقيقي سميك كُتب عليه اسمه.

يعاين ما في الدُرج، كراسة من كتاب صور تاريخية اشتراه من أحد زملائه في الفصل –يعتقد بأنه سرقه من منزله– مقابل خمسة كرايتسارات، وخلال استراحة العشر دقائق اعترف زميله بذلك، وأخبره أنه باستطاعته الحصول على المزيد، يدعى ذلك الولد "إمرا كالامان" "Kelemen Imre"، وكان فاشلاً في الدراسة. ما إن حصل على الخمسة كرايتسارات اشترى تفاحتين وشطيرتين، أكل ما اشتراه أمام عيني نيلاش، وبذلك فقد رأى نقوده وهي تُنفق في وقت قصير، لم يهتم، فقد كان مسروراً، فثمة ملوك متوّجون وأبطال وشعراء يسكنون درجه! والسعادة تتملكه إذا وقع نظره على جانب الكراسة فقط، قرّر أن يرسم الشخصيات كلها، فاشترى خمسة دفاتر رسم. لكن كنزه الأخير جعله ينسى كل هذا.

زار العام الماضي العم المعلم بشارع ناجمشتر "Nagymester"، وجد في مكتبته كتاباً بغلاف جلدي يلعب به الأطفال، يركلونه ككرة. أسره غلاف الكتاب، قرر امتلاكه، وليس الكتاب؛ لأنّه مكتوب باللاتينية، ولم يصل إلى مرحلة في الدراسة تؤهله للقراءة، أراد الغلاف بشدّة. في الأحد الثاني والثالث زار منزل العم، تمكّن منه الحب والشغف، وفي لحظة نزع الغلاف وخبأه تحت معطفه، ثمّ أعاد الكتاب إلى الرف. عاد راكضاً إلى مدينة الطلاب من دون أن يودّع العم. حجب الغلاف عن زملائه، لم يستطع أن ينام أو يذاكر، فاشترى خمسين ورقة، وذهب بها إلى شارع ضارابوش "Darabos" قاصداً حانوتاً لتجليد الكتب يسكن بجوار منزل "تشوكوناي" بمسقط رأسه، وطلب منه أن يملأ الغلاف الفخم بالورق الأبيض الذي جلبه معه. يمسح يده على الجلد الأصفر الرقيق، ينظّفه من بقايا التراب التي علقت به منذ أن كان كرة! يتلمس بأصابعه أماكن الضربات والخدوش، أراد أن يكتب كل شيء فيه، ولكنه لم يعرف ماذا يخطّ، رغم ذلك كان مفعماً بالحماس والإثارة، كلّ ما يبتغيه أن يملأ هذا أوراق الكتاب البيضاء بالكتابة.

كلما نظر إلى الكتاب شعر برجفة في معدته وأمعائه وحمى تصيبه، يريد أن يكتب أشياء جميلة فيه لم يسبق لأحد أن كتبها من قبل، لا يعرف ماذا، وكلّ ما أراده أن يكتب شيئاً جميلاً فحسب. قرّر، كتب اسمه في البداية بعدما قلب الصفحة الأولى لتكون صفحة العنوان، عاد إليها، اختار كلمة بسيطة لتكون عنواناً: "ملاحظات". أراد عنواناً عاماً لا يستطيع من يقرؤه أن يربطه بشيء، وفي الوسط عاد وكتب اسمه، بخط جميل، حروف كبيرة قوية ومائلة: "ميهاي نيلاش". وكتب بالأسفل: "دبرتسن"، وتحتها العام: "1892". مضت أيام ولم يكتب بعدها شيئاً. أرهبته الكتابة، قد يطلع أحد على ما كتبه وينتقده، أو يبلغ عنه، أو يسرق الكتاب، وقد يضحك عليه ويسخر منه. لم يكن راضياً عن نفسه، شكّ في أن تكون صفحة العنوان قد كتبت بشكل جميل، كانت جميلة مقارنة بأنه في الصف الثاني من المرحلة الثانوية، ولكنه ودّ أن تكون جميلة كأقصى التّطلّعات والأحلام. يتذكّر الحروف التي يخطها في الكراسات المدرسية، هي أجمل، رغم اعتقاده أن باستطاعته أن يكتب ما هو أروع منها بمئة مرة، ودّ أن تكون الحروف التي سيكتبها تجعل من يراها يصرخ متعجباً.

لم تكن الحروف جميلة؛ بل قبيحة، وأسوأ من كتاباته المدرسية، فهو في المدرسة ملزم بأن يحرص ويهتم بالكتابة، ولكنه في الكتاب أراد أن يكتب بجرأة وتحرر، ولم يسفر ذلك إلا عن شخبطة طفولية. سببت له صفحة العنوان ألماً كبيراً، أدرك بأنه انخدع بنفسه، خاب ظنه في قوته وقدراته، الألم اختلط بالفرح، حيث رأى أن ما فعله كان شيئاً قيماً ومهمّة كبيرة وتحدٍّ يجب أن يواجهه، مثل قلعة يجب عليه محاصرتها، فإن نجح سيجلب المجد له. تحرّك "بوسورميني"، فتغير لون وجهه، بدأ يتلفت، اطمأن بعد أن أدرك أنه لم ينتبه له. استغرب من بقاء "بوسورميني" في الغرفة، بينما يلعب الآخرون كرة القدم في الفناء الخلفي لمدينة الطلاب، ولم يخرج مع من ذهبوا إلى ناجأردو[2] "Nagyerdő"، إلى تل الرمال. يتساءل إن كان "بوسورميني" يفكر في ألوانه، فقد اشترى البارحة لوناً قرمزيّاً ناعماً جداً نظير خمسة كرايتسارات من عند بونجراتس "Pongrác"، ربما علم بذلك ويريد استعارته، ويقضي على ما فيه مثلما فعل في المرة الماضية، أو أنّه لن يعيده إليه. أراد أن يتملص منه فحمل الكتاب اللاتيني بسرعة ليختفي في حديقة النباتات، وما أن أغلق الدرج حتى ناداه "بوسورميني":

– أنت!

نظر إليه مبهوتاً، لم يكن وجه زميله يشي بالخير، حدس أنّه يريد اللون. سأله "بوسورميني":

– أخبرني، هل لديك من ألوان؟

لم يتفاجأ، فقد كان يتوقع ذلك. لعق أسنانه خائفاً:

– أيّ لون؟

– البني الداكن.

– لا أملك لوناً بنيّاً داكناً.

خيم صمت قصير، تنفس الصعداء لأن "بوسورميني" يحتاج اللون البني الداكن فحسب، ولا يريد شيئاً آخر.

– إذن هل لديك اللون القرمزي؟

– اللون القرمزي؟

– نعم.

قال بهدوء بعد أن رمش بعينيه:

– نعم. ولكنه سينفد لأنه يسيل بشدة.

صرخ "بوسورميني":

– أحقاً؟ أتمتلك لوناً قرمزيّاً؟ هذا شيء رائع!

فقفز من على سريره ووقف أمام المنضدة، أمام "ميهاي نيلاش" الصغير، والذي كان صغيراً جداً في الفصل لدرجة أنهم عندما كانوا يقفون في حصة التربية الرياضية بحسب الحجم كان مكانه الثالث في الخلف، ولذلك يتحاشى نقاش أيّ ولد فوضوي، أُسقط في أمره، فمدّ ذراعه كلها في الدرج، إلى الركن الأيسر، إلى نهايته، ليخرج اللون الذي خبأه بعيداً حتى لا يجده أحد، أخرج اللون القرمزي ووضعه على المنضدة. قال "بوسورميني":

– رائع!

ثمّ نظر إلى اللون القرمزي، دقق النظر فيه، يغمض عينيه ويفتحهما ثم مد يده، أخذه، رماه في الهواء وتلقفه بيده الأخرى، وكرّر:

– رائع!

ما كان من "ميهاي نيلاش" الصغير إلا أنه نظر إلى اللون القرمزي الطائر في الهواء، لم يجرؤ على فعل ذلك من قبل، فقد كان يخشى أن يسقط وينكسر ويتلطخ باللون، يخاف من أمور كثيرة، أبشعها أن يلعب زملاؤه به الكرة. سأله "بوسورميني" بجدية أفزعته:

– من أين اشتريته؟

– من بونجراتس.
– نظير ثلاثة؟
جرحه ما قاله، فبالإمكان شراء لون قرمزي نظير ثلاثة كرايتسارات بالفعل، ولكنه مستوٍ وجاف، وبإمكان الأعمى من مكان بعيد أن يعرف إن كان اللون بثلاثة كرايتسارات فقط. ولكن لونه هذا ناعم، دهني الملمس، لا يحتاج إلى الماء فهو يذوب من تلقاء نفسه، لون فخم. يعزّينفسه بأنّ "بوسورميني" أكبر حمار في الفصل، وكلّ ما يستطيع فعله هو العراك، ولكنه ليس جديراً بمعرفة الألوان. ثمّ ردّ عليه ببساطة:
– نظير خمسة كرايتسارات.
فتح "بوسورميني" عينيه ووضع اللون أمامهما يحدّق فيه، وقال وقد احمر وجهه:
– جيد! لون جيد، سوف أشتري مثله، ستصلني قريباً نقود من أسرتي.
ثمّ وضع اللون في المكان الذي أخذه منه، فرح الصغير باسترداده اللون الذي يعشقه، قد يظلّ عنده حتى تصل النقود "لبوسورميني"، والّذي شعر بالإثارة والانفعال، وتحدّث بصوت عالٍ:
– يا صديقي، إذا حصلت على نقود ذات مرة فسأشتري ستة ألوان. لا، ليس ستاً، بل عشرة، بخمسين كرايتساراً، سأفعل ذلك بالتأكيد!
خجل الصغير، فقد اشترى لوناً واحداً فقط، ولأنه لا يستطيع التباهي بأنّ نقوداً سوف تصله من أسرته، كان قد سمع بأن والدي "بوسورميني" ليسا غنيين كثيراً، لكنه ذات مرة رأى ساعي البريد يسلمه خمسة كورونات، ولا يعلم كم حصل في المرة الثانية، ودّ لو يسأله لكنه استحى، خشية أن يعتقدوا أنّه فضولي. تبادلا النظرات صامتين، ثمّ عاد "بوسورميني" والتقط اللون من على المنضدة. لم يأخذه بشكل عادي، وإنما انحنى فوقه في البداية يعاينه، وكأنّه يرى شيئاً قذراً، مثل قمامة، حصاة، شعرة، أو كأن تركيبة اللون لم تعجبه، وبعدها تناوله بحرص وبركبة مثنية، مشى إلى النافذة كما لو أنه يحمل طائر صغير يخشى أن يطير إلى الخارج. كان الصغير ينظر بخوف إلى النافذة، و"بوسورميني" ينظر إلى اللون الذي لم يطر إلى الخارج. شمس ما بعد الظهيرة ترسل أشعتها إلى الداخل، وتناهى صوت تدريبات الكمان إليهما، فقد كان المعلمون في الطابق الذي يليهم بالأسفل يتدربون على عزف الكمان يومياً وتصدر منهم أصوات مزعجة، جعلت الصغير يكره صوت الكمان. ولكن العزف الحزين أجاش مشاعره، لأنّ لونه بات في خطر، لم يكن متأكداً مما سيفعله "بوسورميني" باللون، هل سيأخذه أم لا، توجّس لأن النافذة مفتوحة، استدار "بوسورميني" ناحيته:
– إنه ليس لوناً سيئاً.
وعاد ناحية الصغير، وفي طريقه إليه رمى اللون بيده اليمنى مرة أخرى حتى لامس السقف وتلقاه باليسرى. ودّ أن يطلب منه عدم فعل ذلك، ولكنه لم يفعل، خاف أن يعاركه، يتحاشى الشجار، خاصة مع من هم أقوى منه، ارتاح بعد أن وضع اللون على المنضدة المجرّحة، ثمّ سأله "بوسورميني":
– أين هؤلاء الأوغاد؟
بدأ الأمل يحدو الصغير، فردّ عليه بسرعة لينسيه أمر اللون:
– نزلوا إلى الفناء الخلفي ليلعبوا بالكرة.
– يلعبون بالكرة؟
– نعم.
– أيّة لعبة؟
– لونجاميتا[3].
التهى "بوسورميني" وهو يفكر بالأمر:
– لونجاميتا؟

– نعم.
– همم. لونجاميتا؟ هذا جيد، لأنها لعبة تتطلب عدداً كبيراً من المشاركين.
ردّ الصغير:
– سيكون هناك عدد كبير منهم، أخبرني بذلك "ميهاي شاندور" "Sándor Mihály".
فتساءل "بوسورميني":
– لِمَ لم تذهب معهم؟
احمر وجه الصغير، فلم يسبق أن دعوه للعب معهم، لأنه ليس ماهراً في اللعبة أو لا يجيد طرقهم في اللعب.
– سأذهب إلى حديقة النباتات للمذاكرة.
قال "بوسورميني" الذي يبدو أنه أراد ذلك:
– أما أنا فسأقوم بالتلوين.
صمت الصغير بعد أن صُدم برده، فهو يعرف طريقة تلوين "بوسورميني" الذي فضّل التلوين على لعب اللونجاميتا، يدرك أن "بوسورميني" لم يكن "مونكاتشي"[4] "Munkácsy"، كان يهدر الألوان فحسب، يفرح بملء الكؤوس بألوان مختلفة وخلطها مع بعضها البعض، مع أنّ هذا الفعل يفرح الصغار أيضاً، يمنحهم التخريب شعوراً يحبّونه، يسقط قطرة من الألوان في المياه، تكون مثل زرار صغير صلب، لم يكن التلوين يستهويه كثيراً، لأنه لم يكن يلون من الأساس، وإنما يرسم بحافة الفرشاة على الأوراق جاعلاً إياها مثل قلم رصاص، فيرسم زهرة في أصيص كما يفعل تلاميذ الصفوف الأولى بالمدرسة الابتدائية، يرسم أنفاً يهودية؛ أنفاً محدبة كبيرة جداً، ثم تختلط الألون وتسيل، حينها يبدأ بتلوين الورقة البيضاء بسرعة بألوان كثيرة، يفسد الصفحات البيضاء وكأن شيطاناً مخرباً يجري في دمه، ولا يفعل ذلك إلا إن كانت الألوان والأوراق لا تخصه.
تنازل بيأس عن اللون "لبوسورميني"، تأبّط كتاب اللغة اللاتينية، وهمّ أن يعتمر قبعته الصغيرة إلا أنّه توقف للحظة، ينظر إليها بخيبة أمل، شعر بالضيق، لم يكن يحبها، فقد كانت مزينة بشعر خنزير أبيض اللون وفي نهايته يتحوّل اللون إلى الأسود، مفتوحة كمروحة يد صغيرة. لا تناسبه، بل تصلح لشخص فوضويّ جامح، ما إن يعتمرها ينظر إلى أعين الناس بنظرة وقحة متحدية: أخي، هل تريد صفعة؟
كان يتمنى لو كانت بنية أعرض حافة، صغيرة ذات حافة مثنية لأعلى، يتمكن من جذبها لأسفل ليغطي عينه، ستمنحه ثقة أكبر بنفسه. شعر بغيظ وهو ينظر إلى القبعة السيئة، لا يروق له لونها الأخضر، يلفها حبل رقيق يتكون من خيطين بدل الشريط، تتصل نهايته بأظفار خزفية، نزعها ببراعة، حاول التخلص من الشعر ليمنحها شكلاً أفضل، ولكنه ارتعب بعد أن شاهد بقعة الغراء أسفل الشعر، سيصبح شكلها مثيراً للسخرية، تمنى الأمنية التي كلما ارتدى القبعة تمناها، أن يصبح الشعر الجامد سلساً منساباً يسقط بسهولة عندما يشده، ارتداها، فناداه "بوسورميني":
– "نيلاش"!
استدار.
– هل ستتركه هنا؟
حدّق فيه، فصاح "بوسورميني":
– حان وقت الحصاد!
والتقط اللون. خرج الصغير من الباب هائماً على وجهه، ندم على إهماله للون، وخطر بباله أنه لم يكن عليه أن يتركه هناك. كانت الصالة ممراً كبيراً واسعاً مفتوحاً، يغطي أرضيتها طوب أحمر بنفسجي لا يوجد إلا في دبرتسن. تذكر الطوب في بلدتهم، أصفر شاحب كالمرضى، يستمتع بالنظر إلى طوب الممر، يتعجب منه، يتساءل: مِمَّ صُنع؟ وإن كان يحمل الكثير من الدماء، لا يمشي عليه بقدمه حتى لا يلتصق اللون بها، لأنه يلون نعله بمجرد المشي عليه لعشر خطوات، ألقى نظرة إلى الفناء، شعر بدوار. في وسط الفناء نافورة وحيدة بين أشجار قصيرة، وهو مكان الاستراحة المدرسية في فترة ما

بعد الظهر، بعض التلاميذ يتجولون في المكان، حلقة النافورة نحاسية صفراء لامعة مثل الماسورة النحاسية الصفراء الطويلة الممتدة إلى الجانب الآخر خارجها. تثير الماسورة الطويلة خيالاته دائماً، يراها كنعجة مستلقية على ظهرها وبها دستة أثداء. ودائماً ما يرى أحد الطلبة وهو يغلق نهايتها بكف يده، فيبدأ الماء بالتطاير من الثقوب التي فيها، يتوجه التلاميذ إليها ويقومون بلقم الأثداء ورشف الماء ذي المذاق الحديديّ.

لو لم يعطِ اللون "لبوسورميني" فلن يعلم أحد بأنه اشترى لوناً جديداً، وحتى لو علموا بذلك فإنهم لن يستطيعوا أن يعثروا عليه لأنه خبأه، ولأنه لا يسمح لأحد بأن يمد يده في درج شخص آخر، وإن فعل أحدهم ذلك واستخدم اللون حتى ينفد فسيقوم رئيس الغرفة بإلزامه بشراء لون آخر بدلاً منه، ولكنه بهذه الصورة يكون قد أعطاه اللون بغير وجه حق، لذا فالكل سواء بالفعل. التفت إلى اليسار ناحية مدينة الطلاب العتيقة، ينزل من السلم الخشبي المظلم وهو يقفز كالعصفور من غصن إلى آخر، وكان قلقاً، مضطرباً يشغله التفكير.

وقف في الطابق الأول أمام غرفة تدريبات الغناء، حدق في ثقب المفتاح، ودّ أن ينظر إلى الداخل، ثمّة حصة للغناء، صوت غناء مبهم ينبعث من الداخل، كانت حصة تدريب على السلم الموسيقي، لم يكن يعرف ما يقومون به، اختلس النظر مثل حيوان أيل، أجفله صوت غريب، مد رقبته وقفز مبتعداً. ما إن وصل إلى الطابق الأول حتى خرج راكضاً في الهواء الطلق كما يتحرر طائر من قفص. أكمل شهر واحد منذ سكن في مدينة الطلاب، فقد كان في العام الماضي يقيم عند أسرة، والآن فهو يتمتع بإعفاء من الرسوم الدراسية، يشعر أن سكنه في المبنى الكبير المظلم كمن قبض وحبس داخله بعدما كان حراً طليقاً. ورغم ذلك كان فخوراً بسكنه في مدينة الطلاب هذه، وإذ كان أخوه الصغير يدرس في باطاك "Patak". فقد كان نيلاش يشعر بالتهديد من أن ينقله والداه في العام القادم إلى هناك؛ لأن باطاك أقرب إليهم. أصبح يتمتّع بكبرياء دبرتسن، يرى أنه لا توجد مدينة طلاب تضاهيها في العالم. قلّب أنظاره على المباني الكثيرة المرتفعة من حوله، تعلو أعمدتها تيجان ورؤوس غريبة منحوتة في الحجر، تعيش هذه الرؤوس بوجوهها المنتفخة وتجعد لحاها اليونانية في روحه، أسفلها خيمة من الحصير لبائعة لم يعتد على الشراء منها. في محفظته الصغيرة خمسة وأربعون كرايتساراً، لم يكن يعلم بأنّه سيدفع ستين كرايتساراً خلال أسبوع للسيدة "تشيجاي" "Csigai". لو خطر هذا بباله لمات من الخوف.

مشى بجوار الحديقة، يلمس سورها الحديدي بإصبعه، ينظر إلى أبنية الكنيسة الكبيرة "Nagytemplom". شعر بالندم لما صرفه من ماله لتجديد الكتاب، كان عليه ألا يقوم بذلك، فقد أصبحت الأموال قليلة في يده، ثمّ راوده خاطر استأنس له، بأنّه إذا لم يقم بتغليف الكتاب فإنه ليس جديراً بالعيش، ولن يمكنه أن يتعلم شيئاً جديراً، ولا شيء يستحق أن يفعله بعد ذلك. داهمته حمى شديدة، لم يستطع أن يتحكم في نفسه. يفكر في عبثية ما يقوم به، يقف أمام البائعتين في كل يوم منذ شهر تقريباً ولم يشترِ شيئاً ولو — مثلاً – حبتين من التفاح أو البرقوق أو قطعة بطيخ، أو شطيرة أو فطيرة خبز أبيض أو حلوى، فقد كان لا يهمه ذلك، ولكنه لن يتأخر عن ترميم مجلة تشيتفاري كرونيكا[5] "Csittvári Krónika"، ذلك أمر مستحيل، تقترب منه السيدة تشيجاي وهي تحمل ملابس مكوية، لم يعلم ماذا يفعل. هرع إلى حديقة النباتات القريبة من مدينة الطلاب. ليست جميلة، لا يحبها، لذلك يزورها نادراً، تزعجه اللوحات الموجودة قرب النباتات، رغم أنه يرغب أن يعرف أسماءها وأنواعها، إلا أنها مكتوبة باللاتينية، ولم يعرف اسم أيّة واحدة منها خلال العام. حاول أن يهجئ الأسماء ولكن ذهنه مشغول بالسيدة "تشيجاي"، الغسالة الصغيرة الهادئة اللطيفة، تأتي بالملابس تشع بياضاً بابتسامة لا تفارقها، ولكنه لا يفهم ردود أفعالها غير المتوقعة.

كان في الحديقة طلاب لاهوت سود طوال القامة، يمشون بخطوات كبيرة، يذاكرون. لم يكن في الحديقة أحد صغير مثله، ما زال في الصف الثاني، زملاؤه يلعبون الكرة في الفناء الخلفي، شعر أنه سيء الحظ فأصابه الحزن والأسى لأنه يجلس لوحده في الحديقة، لم يستطع التركيز في مذاكرته، تذكر "بوسورميني"، هو أيضاً لا يذاكر، جالس في الغرفة يلعب بألوانه ويهدرها. وعاد إلى جرح لم يستطع نسيانه، يوخز قلبه كشوكة، "جيماشي" "Gimesi"، زميله الوحيد الذي كان يستأنس له، اكتشف أنه غير مخلص، وكان "جيماشي" يسكن في شارع بيترفيا "Péterfia"، في اتجاه الغابة، في شقة غريبة لا يوجد

مثلها في العالم. يسكن مع جدته أعلى مدخل المبنى، في غرفة صغيرة جداً جداً، يعد السكن فيها معجزة. يمكنهما السكن هناك فقط، لانخفاض كلفتها، "جيماشي" ولد صغير، أصغر حجماً منه وأنحف قليلاً، لكنه متهور جداً، اعتاد أن يتعارك برأسه، هكذا فقط؛ برأسه! ككبش ينطح الحائط، يصطدم بأي شخص، أياً ما كان، ينطح الأولاد في بطنهم، حتى من هم أكبر منه يجرون من أمامه. يكتب "جيماشي" هذا اسمه هكذا: "Ghimessy"، لكنهم يقولون "جيماشي" "Gimesi"، وكأن "جيماشي" هذا في روحه، لا يستطيع أن يعيش للحظة بدون أن يفكر فيه بصفاء ووضوح، ينظر "ميشي" في الكتاب، يحفظ بعض السطور حفظاً روتينيّاً آليّاً؛ فقد كانت سطوراً تستعصي على الفهم إن لم يكن الحفظ أيضاً.

كان يود أن يفهم هذه الأسطر، لم يتمكن، ينتابه ألم كبير في رأسه وقلبه، يفكر في أبويه، دمعت عيناه، لا يمكنه أن يطلب منهما نقوداً، لعدم قدرتهما على ذلك، كيف سيهنأ باله إن أكل لحماً وطعاماً جيداً في سكن الطلبة، وفي منزله يتناولون حساء البطاطس السيئة، شعر بالاستياء، جلس يحفظ تصريف الأفعال اللاتينية بشكل آليّ. يتذكر، يتضايق لقيامه بتغليف الكتاب. فأمه مطمئنة؛ أنه سيؤدي ما عليه ويدفع للسيدة "تشيجاي" ستين كرايتساراً في أول الشهر، مطمئنة؛ أن ما يملكه فورنت أو أكثر، وأنها لا تعلم بشرائه كتاب "تشوكوناي" بثلاثين كرايتساراً، وأعطى خمسة كرايتسارات مقابل كتاب "صور من التاريخ[6]"، وورق الكتاب كلفه خمسة عشر كرايتساراً، والتغليف عشرين كرايتساراً، واللون وورق الرسم ثلاثة عشر، ما مجموعه ثلاثة وثمانون كرايتساراً، لو لم يشترِ كل ذلك لتوفر لديه ثمنها، ولأمكنه دفع الستين كرايتساراً للسيدة "تشيجاي"، ولبقي لديه أيضاً الخمس وأربعون كرايتساراً التي توجد في الخزانة، ولتوفر معه أيضاً ثلاثة وعشرون كرايتساراً للتفاحة أو لأي شيء آخر. ليته لم يشترِ كتاب "تشوكوناي"، أو لم يقم بتغليف الكتاب، لكن كتاب "تشوكوناي" كان سميكاً جداً، ولم يكن لديه كتاب حقيقي قبل ذلك، باستثناء ما حصل عليه العام الماضي في الصف الأول في الامتحان، وهو كتاب "الألف وواحد جائزة[7]"، لكنه تركه في المنزل؛ يخشى أن يقوم أشقاؤه الصغار بتقطيعه، أو تلويثه، لا يمكنه المحافظة على شيء ما في منزله، فباستطاعة شقيقه الصغير الثاني، "بيلا" "Béla"، أن يفتح درجه ويخرج منه الكتاب، ويلعب به، علم أنه حين يعود إلى المنزل في الإجازة سيجد كتابه مقطعاً، سيقوم أشقاؤه الصغار بقص الصور الجميلة منه، فشقيقه الصغير الرابع، الذي مازال صغيراً تماماً، لا يستطيع أن يقرأ شيئاً، وكل ما يفعله أن يقطع الأوراق.

جلس في جانب الطريق على العشب بعد أن تعب من التجول والسير الكثير. يفكر في التخلص من كتابه المغلف، فكتاب تشوكوناي عنده أكثر قيمة من كل شيء، وبعد قراءته يشعر المرء أنه ليس بحاجة إلى كل هذه الأشياء من حوله، رغم صعوبة قراءته إلا أنه كتاب جميل. جاء في الكتاب أن "تشوكوناي" كان كسولاً، ولذلك سمح له معلمه ألا يذهب إلى الحصص الصباحية، انتقد الكاتب معلم "تشوكوناي" لأنه سمح له بذلك، لكن "ميشي" لم يتضامن مع الكاتب في هذا الأمر، يودّ لو يكون له معلم مثل هذا، حتى لا يكون مضطراً لحضور الحصة الأولى، حمد الرب أن الحصص الآن تبدأ في الثامنة صباحاً وليس السادسة كما كان في زمن "تشوكوناي"، ودّ أن يعفيه معلمه من أشياء أخرى؛ مثل: جذور أسماء الأفعال والتي لا يستطيع فهمها، يحاول أن ينتبه لكنه لا يفهم كلمة واحدة من شرح الأستاذ، فتخطر في باله السيدة "تشيجاي"، يتساءل كيف سيقدر أن يدفع لها ستين كرايتساراً. لا يسمع صوت الأستاذ بوضوح، كان يفكر في كتابه وماذا سيكتب فيه، قرر أن يكتب ما يقرؤه، استدعى ذهنه كتاباً قرأه، يحاول أن يتذكر محتواه: الطبال الصغير... لا، وإنما ولد صغير يعيش في تورينو في إيطاليا لم يعد يذكر اسمه، ابن شخص فقير يكتب على شرائط عناوين المنازل، مرض الأب، استشعر الولد ذلك وسهر طوال الليل يعمل، وكان يكتب بدل أبيه، وعندما نهض الأب في الصباح، نادى ابنه سعيداً وهو يشير إلى القصاصات: "يا بنيّ، انظر، أبوك ليس رجلاً ضعيفاً كما تعتقد، فقد كتبت ليلة البارحة أكثر مما اعتدت فعله بمائة وخمسين قطعة".

فرح الولد، ضاعف جهده في العمل ليسعد أباه الذي لم يلحظ ما يقوم به الابن، رغم أنه كان يتساءل عن نقص كمية الكيروسين، في نهاية الشهر دخل الأب المنزل فرحاً وهو يحمل هدية، نادى ابنه: "أترى يا بنيّ كفاحي، أتعب لأستطيع تربيتك أنت وإخوتك. كل ما عليك فعله أن تتعلم بكل جهدك، أنت تعلم كم نحتاج إلى ذلك"، دمعت عينا الولد،

ضاعف طاقته في العمل، تغيرت حالته، لم يكن ينام جيداً، أصبح يشعر بالنعاس والكسل طوال اليوم، تغير مزاجه وأصبح يغضب لأتفه الأسباب، وينام عندما يستذكر دروسه، يوقظه أبوه دائماً إلا أن الأمر تكرر في كل مساء. ارتاب الأب في أمر ابنه، لا يعرف سبب تغيره، حذره كثيراً وهدده ولم يتغير. قرر الولد ألا ينهض في الليل للعمل، ولكن عندما تحين الساعة التي اعتاد على العمل ينهض من نومه، يشعر أنه يقترف ذنباً، فيبدأ العمل. لم يستطع التلميذ الصغير (نيلاش) أن يتحمل نهاية الحكاية وقتها، تجمعت الدموع في عينيه، ثم انفجر باكياً منتحباً. شعر بأنه ولد سيء، عديم النفع ومدلل، فأبوه يبحث عن لقمة العيش لأسرته بشكل أصعب بمائة مرة؛ ينحت أشجاراً ضخمة بفأس ثقيلة من الصباح حتى المساء، ولم يكن مثله يحمل ريشة أوز ويعبث بها في غرفته على ورقة، فبدلاً من أن يكون عوناً لوالديه قام بتبذير المال على أشياء لاجدوى منها وعلى رغباته الشخصية. وبعدد خمسة وثلاثين كرايتساراً على ورق أبيض، بينما كان يمكنه أن يختار ورقاً أقل سعراً بخمسة كرايتسارات، بل كان بإمكانه أيضاً أن يشتري ثلاثة صفحات فقط مقابل كرايتسار واحد، ولن يستطيع ملأها بكتاباته ولو جد واجتهد في ذلك.

آلمه قلبه، خشي أن يراه أحد زملائه وهو يبكي، ربما يوبخونه أو يضحكون عليه أو ينشرون الأمر، فركض إلى خلف حديقة النباتات، أراد أن يختبئ تحت الشجر الكبير ويواصل بكاءه هناك، ما أن وصل فترت رغبة البكاء عنده، وذلك من أثر الركض والتفكير بزملائه، ولازمه الحزن فقط، قرر أن يعالج ذنبه، سيجد ويجتهد، وينقل الحكايات التي كتبها في ظهر كتاب النحو إلى كتابه، وسيجهّز جزءاً في كتابه لينسخ فيه قصصاً من مسودات أصلية، ولن ينسى قصة الصغير الفقير، وسيسرد محتوى كل كتاب يقرؤه في هذا الجزء، وسيخصص جزءاً ثالثاً يكتب فيه ملاحظات متنوعة مختلطة، أولها جدول الحصص؛ لأنه لا يستطيع الالتزام به، ولا يعرف أيّة حصة ستكون غداً، ثم بعد ذلك سيكتب في هذا الجزء ما لديه من النقود وما اشتراه بها. شعر بالخوف، لأنه سجل ما أنفقه فعليه أن يدون كتاب "تشوكوناي" وكتاب "صور من التاريخ"، والأوراق التي وضعها في الغلاف، وإن قرأ أحد ذلك فسيدرك دلالته وعدم نفعه وجدواه، فتخلى عن الأمر. فكر، ثم قرر أن يبدأ بتسجيل ما سيشتريه من هذه اللحظة، فإذا حصل على نقود من مكان ما فسيذكر ذلك، مثلاً إن أرسل أبوه له فورنتَا سينفقه على ما يمكن أن يسجله في الكتاب، لأنه سيكون إنفاقاً رشيداً، مثل أن يدفع للسيدة التي تغسل ملابسه، أو ينفقه على كراسة مدرسية أو قلم رصاص أو لون، سينفق ماله على الأشياء التي يحتاج إليها في المدرسة، كما أنه سيكتب أيضاً متى اشترى قلماً رصاصاً وإلى متى استمر هذا القلم.

خطر اللون في باله، الأحمر القرمزي، ربما يكون "بوسورميني" قد استهلكه، تلفت أعصابه، أغلق الكتاب، سيعود للمذاكرة بعد ذلك، أسرع تجاه السكن، يجري في نفس الطريق التي أتى منها، وصل إلى البوابة الموجود أمامها تمثال "تشوكوناي"، كاد أن يصطدم بها، نسي في غمرة عجلته أن البوابة تغلق في هذا الوقت المتأخر من المساء. اتجه إلى البوابة الأخرى، كان عليه أن يدور حول المبنى، لم يكن يرغب في ذلك، فكلما طالت الطريق كان الإنسان معرضاً لمقابلة شخص ما، أو معلم يوقفه ويسأله: "لماذا تجري؟!" أو تلميذ كبير يناديه: "يا أيها التلميذ الخادم، اركض وأحضر لي سيجارتين، ها هي عشرة كرايتسارات، لا تضيعها!" وهذا أكثر ما يخيفه، لأن التلاميذ الكبار اعتادوا أن يطلبوا من الأصغر منهم القيام بخدمات لهم، ويعطوهم مقابلها كرايتساراً للسكر، أو شيئا ماً، مثل خوخة. سيغمى عليه من الخوف إن ناداه أحدهم، وإذا حدث ذلك واضطر لفعل ما أُمر به فلن يقف ليستلم مكافأته، بل سيجري بسرعة ليتخلص من التلاميذ الأكبر منه. ساعده الحظ بعد أن اختبأ خلف جدار الأرشيف، أفلت من "سيلا" و"كاريبديس" اللتين كان يمكنهما أن تطلبا منه شيئاً أو تهدداه. في الطابق الثاني خرج أستاذ الأرشيف العجوز من الباب الحديدي، وأغلق القفل بالمفتاح مرتين. أصدر القفل صوتاً عالياً، ابتعد الأستاذ العجوز، قطع مسافة كبيرة في الممر، استدار إلى الخلف وعاد مسرعاً، هز الباب بقوة ليتأكد إن كان قد أقفله، وبعد أن اطمأن غادر واختفى عند الدرج.

كان "ميشي" يعرفه ويعرف أمره، حيث يحكي التلاميذ أن العجوز يستدير ويرجع من الطابق الأول ليتأكد من إغلاق الباب، وعندما يخرج من الفناء عبر البوابة يعاوده الشك ويعود ليتأكد من إغلاق الباب، سمع عن هذا الأمر كثيراً ولكن لم

يسبق له أن رآه، ما فعله العجوز جعله ينسى اللون، وكل شيء، فبقي متسمراً في الممر المظلم بخوف، ليتأكد بنفسه مما سمعه عن العجوز. تسلل خلف الأستاذ، صعد إلى الطابق الثاني ليراقبه، توقف الدم في عروقه عندما توقف الأستاذ العجوز واستدار للخلف بعصبية عند منعطف الطابق الأول، وعلى أول عتبة في الدرج، حيث كان ينوي النزول إلى الطابق الأرضي، فانطلق مباشرة إلى أعلى، قاصداً الطابق الثاني. تجمد "ميشي" في مكانه كشجرة، لم يستطع تحريك قدميه ليهرب، وكأن شبحاً ظهر أمامه، واتته القوة فجأة فركض كالأرنب، صعد الأستاذ الدرج، لكنه كان قد خرج من الممر المظلم منذ مدة، حفظه الإله من أن يقبض عليه الأستاذ العجوز وهو يراقبه، قد يعتقد أنه يترصده ليسخر منه ويجعله أضحوكة مثلما يفعل التلاميذ الآخرون، ويسلمه للمدير الذي صوت صياحه عالٍ مثل زئير أسد، كانت غرفة صفّهم تقابل الفصل الذي يدرس فيه المدير، وكان بإمكانهم سماع صياحه، فيضحك التلاميذ والمعلم الذي يضرب المنضدة بيده، قائلاً: "انتبهوا إليّ".

لم يرغب في العودة إلى الغرفة، اختبأ في ركن مظلم من الممر، يراقب الأستاذ العجوز، الذي عاد من الطابق الأرضي مرة أخرى، ليتأكد من إغلاق الباب الحديدي للأرشيف. وعندما شعر بالملل رجع إلى الغرفة، وجد جميع زملائه في السكن فيها، ينتظرون العشاء.. رئيس الغرفة يدخن سيجارة، ينفث دخانها عبر النافذة، كان السيد "ناج" "Nagy" القزم الصغير جالس بجوار المنضدة، يملأ سيجارة بتركيز، كان هذان الاثنان في الصف الثامن بالمدرسة الثانوية. أما الخمسة أطفال الآخرون فكانوا مع "نيلاش" بالصف الثاني. ما إن دخل الغرفة انفجرت موجة من الضحك، شعر بالخوف، لم يكن "بوسورميني" يلون حينها، بل يمضغ خبز التلاميذ البني، ويضحك أكثر من الآخرين. صاحوا:

– ماذا يوجد على رأسك؟

ارتبك، ظنّ أن أوراق من شجرة الزيتون قد علقت برأسه ولم ينتبه لها؛ عندما كان مشغولاً في التفكير بترجمة حكايات فيدروس "Phaedrus"، فقد شبك حينها الأوراق الطويلة في شعره كما اعتادوا في رسم رؤوس الشعراء اللاتينيين، زاد ارتباكه حين تذكر أنه نسي قبعته في الحديقة، فوضع كتابه على المنضدة، واستدار راكضاً بدون كلمة. رغم ركضه السريع إلا أن باب الحديقة ذا القضبان الحديدية الكبير كان قد أُغلق، أمسك بالقضبان وهو يرتجف، ينظر إلى الحديقة بضيق ويأس. انهمرت الدموع من عينيه بغزارة، وقف طويلاً، وفوق رأسه يتدلى جرس حديدي، كان بإمكانه تحريكه وسيخرج الحارس ليفتح له بوابة الحديقة، ويمكنه حينها أن يبحث عن قبعته، لكنه لم يجرؤ على الإمساك بالجرس، لم يجرؤ على مد يده، وما أن لمح بستانياً يقترب من البوابة حتى تراجع مفزوعاً، لم يرغب أن يراه ويسأله عن سبب وقوفه. وقف طويلاً في زاوية في مدينة الطلاب، اختبأ في حديقة الذكريات خلف شجيرات الليلك، طفق يبكي حتى سمع جرس سكن الطلبة. فأسرع إلى الغرفة عبر السلم الخلفي، كان الطلاب جميعهم قد نزلوا لتناول العشاء، فتح الباب بالمفتاح المعلق عليه بسرعة ، بحث عن قبعته الأخرى، المصنوعة من القش، وكانت رديئة لم يرد أن يرتديها أكثر من ذلك؛ في آخر مرة كات فيها في ناجأردو، ابتلت بالمياه وتشربتها، فاعوجت، جذبها على عينه وركض إلى المطعم. وصل، الباب لم يكن مغلقاً بسبب حر الصيف، كان الجميع وقوفاً، يعلو صوت المشرف بالدعاء، تمكن من الدخول دون أن يلحظه أحد، ستكون خسارة كبيرة له لو تخلف عن العشاء؛ فالطعام جيد، يحبه: عصيدة الدخن باللبن وكثير من السكر.

الفصل الثاني

منتصف أكتوبر، يوم جمعة غائم، هرول أثناء الحصص، مثل كل يوم، إلى حارس المدرسة، ونظر إلى قائمة الرسائل في لوحة الإعلانات السوداء ذات رائحة القطران والسياج الحديدي. تفاجأ عندما وجد اسمه. يصاب بخفقان القلب إذا نادوا اسمه أو رآه مكتوباً. كان عليه أن يدفع "كرايتسارين" للحارس مقابل كل رسالة، قبض عليهما بكف يده عندما دخل غرفة الحارس الكبيرة. بحث في الرسائل، لم يجد رسالته.

– ما اسمك؟

– "ميهاي نيلاش"، بالصف الثاني الثانوي.

وضع الحارس الصغير الذي كان ينتعل حذاء برقبة طويلة الغليون في فمه، وعاد يبحث في الرسائل.

– هل اسمك مكتوب عليه من الخارج؟

– نعم.

– هل هو "أندراش نيلاش"؟

– ليس "أندراش"، بل "ميهاي نيلاش"، الصف الثاني الثانوي.

– لم أجد هذا الاسم.

وضع الحارس يده على جبهته ثمّ رفع القبعة المستديرة الصغيرة التي يرتديها مواطنو دبرتسن:

– انظر! ليست لك رسالة، وإنما لفة!

لفة! غمرت المفاجأة قلب الصغير "ميشي" بالفرح، لفة! أترسل أمه إليه لفة؟! شحب لونه عندما سمع ذلك، ثم احمر وجهه. يتذكر ما قالته له أمه في المنزل: "يا بني، لا تنتظر لفة؛ لأنني لا أستطيع إرسال أشياء لذيذة كالتي يرسلها الآباء الآخرون لأبنائهم، الأفضل ألا أرسل شيئاً، حتى لا يعرف الآخرون مدى فقرنا يا ولدي الحبيب". وقع على وصل الاستلام ثمّ سلم الحارس الكرايتسارين، فقال الحارس له برقة:

– خمسة.

كان مستثاراً، فلم ينتبه لما قاله الحارس.

– هل تسمعني؟ أريد خمسة!

لم يفطن إلا عندما صاح الحارس، ارتبك، بدأ يفتش جيوبه، سقطت نقوده على الأرض، وجدها فرصة ليداري خجله تحت الطاولة، رفع نفسه، دق الجرس، ارتبك من العجلة والخجل، فسقطت من يده ستة وثلاثين كرايتسارا، لم يكن لديه غيرها، رغم أنه لم يدفع ما عليه للسيدة "تشيجاي". كان مدرس اللغة اللاتينية الشاب السيد "جيراش" "Gyéres" في الفصل، ولكنه لم يبدأ الدرس بعد، جلس سريعاً على كرسيه، همس "جيماشي" في أذنه "جيماشي":

– أين كنت؟

– حصلت على لفة.

– لفة؟!

شعر "ميشي" أن "جيماشي" ينظر إليه بحسد، فابتسم سعيداً. وقف الأستاذ على المنصة، يقلب أنظاره على الطلبة، يشعرون بالتوتر، يدركون أنه سينتقي طالباً ويوجه إليه سؤالاً، حاولوا أن يكونوا غير مبالين ولا يثيرون الانتباه، لم يرد أي واحد منهم أن يلفت انتباه المدرس إليه، يجيد التلاميذ التظاهر أفضل من أي نوع من الطحالب في الطبيعة، تظاهر "ميشي" بأنه يعرف كل شيء ولا يفكر في أي شيء، خشي أن تظهر على وجهه سعادته بحصوله على اللفة، وبذلك سيناديه المدرس. يا إلهي. نادى على ولد يجلس في المقاعد الخلفية، فتنفس "ميشي" الصعداء، أدرك أنه قد نجا، لأنه اعتاد أن يقوم المدرس بتركيز أسألته على الطلبة من مستوى معين ويبدأ بتوبيخهم، إما الضعفاء أو متوسطي التحصيل أو

المتفوقين، استراح الطلبة الجيدون، فاليوم سيغرق الضعفاء في عرقهم.
نزل المدرس من المنصة ففاحت رائحة عطره، بدأ يذرع المكان ذهاباً وإياباً، وكأنه يلهو، وفي كل خطوة يخطوها يضع يده على المغسولة جيداً ذات الأظفار المضيئة البراقة على حافة مقعد من المقاعد، يشعر "ميشي" بالخوف عندما يكون المدرس قريباً منه، فقد يسأله إن خطر بذهنه سؤال وهو قريب منه. يتابع المدرس بنظره، كمه ناصع البياض، يلمع زرار ذهبي فيه، كان دائماً ما يرتدي رباط عنق حريري متعدد الألوان، يربطه بشكل واسع مريح، لم يره من قبل وهو يربطه ربطة الفرشة (البابيون) على الموضة. كان شديد التأنق دائماً، بنطاله واسع بقدر طول حذائه، مطوي للأعلى بمقدار كف اليد ولو لم يكن هنالك طين. على الجانب الآخر لا يبالي لما يقوله؛ لأنه يشعر أنّه يلقي كلامه كيفما اتّفق، وفي ذات الوقت فهو غير مهمٍّ بالنّسبة له، ولكن الأهم من ذلك أن تكون سترته ملساء دون أي عيب، وألا تقع عليها ذرة تراب، وألا يكون هناك تثنٍّ وتقبّض في بنطاله. لم يكن الطلاب الدبرتسنيون الصغار الفقراء يفهمون ذلك، لا يهتمون بالملابس والمظهر، وكلّ ما يهمهم أن يتقلبوا في التراب بشجاعة وجرأة كالخنازير، وكانوا يسخرون من المدرسين الأنيقين. كان مكتوباً بالطباشير في مكان ظاهر: (جيراش، باتوري "Báthori"، شاركادي "Sarkadi" — ثلاثة متأنقين عفنين)! وكان هؤلاء مدرسي اللغة اللاتينية والحساب والرسم. حسناً، إنه لم يتعلم من مدرس اللغة اللاتينيةِ شيئاً يُذكَر، وإنما — نقدر أن نقول أنّه – تعلم منه بعد عشر سنوات الاهتمام بالمظهر، اشتعل ذلك فجأة في روحه، وجعله احترام الأستاذ جيراش لذاته وسكونه جريئاً وواثق الخطى عندما يرافق أحداً ما، عندما تكون هناك حاجة لهذا. سأله "جيماشي":
– هل أُرسلت اللفة إليك من المنزل؟
– نعم.
وضع أمامه بوليصة الشحن التي قرأ عليها رسالة أمه المكتوبة على الكوبون بحروف مائلة صغيرة. دق قلبه لهذه الكتابة، كأنه رأى وجه أمه الأبيض الشاحب وعينها الكبيرة السمراء، قطع الكوبون واحتفظ به، وعرض الصفحة الصفراء على "جيماشي"، الذي قرأ بوليصة كلها، همس مستغرباً:
– ثلاثة كيلوات ونصف!
تساءل "أورتسي" "Orczy" الذي كان يجلس في الناحية الأخرى بصوت خفيض:
– ما هذا؟
فقد كان يجلس في كل مقعد ثلاثة طلاب، وبما أنهم كانوا يجلسون طبقاً للجدارة، فإن "أورتسي" كان الأول في الفصل، ثم هو الثاني، ثم "جيماشي" الثالث. كان "أورتسي" التلميذ المفضل لمدرس اللغة اللاتينية، يراقب خطواته، ودائماً ما كان متأهباً في حصصه ليجيب قبل الآخرين، إلا أنه شعر بأمر مريب يحدث بالقرب منه، مال ليستمع، فقال "ميشي":
– لفة.
لم يفهم "أورتسي" ما الذي يقصده، فهمس "جيماشي":
– "نيلاش" حصل على لفة من المنزل.
بدا على أورتسي أنه لم يدرك ما يقصده "جيماشي"، لأن أباه كان أكبر ثري في دبرتسن كلها، لذلك لا يعرف عادات مدينة الطلاب، يذهب إلى هناك للدراسة فقط، كان التلاميذ يسخرون منه كثيراً ما إن يستدير؛ بسبب ملابسه الناعمة، وبنطاله الذي يصل إلى الركبتين، وسيقانه النحيلة، ولركبته التي تنحني في كل خطوة وكأنه يهتز وهو يمشي، باختصار كان ابن سيد ثري للغاية، ولم يكن مكانه مناسباً بين الأولاد القادمين من جوار الحيوانات. أنزل "جيماشي" رأسه إلى الأسفل وهو يضحك على "أورتسي" الذي لا يعرف اللفة. وهو كان يعرفها جيداً، لأن جدته اعتادت أن ترسل لفات لأقاربها، كان يتمنى دوماً أن يحصل على لفة، فذلك سيجعله يشعر أنه قد أصبح كبيراً. تركزت الأحاديث بعد الحصة حول اللفة، يتناقشون بشأنها باستفاضة، وماذا يمكن أن يكون فيها، كل واحد يذكر الشيء الذي يتمناه هو، سمع الجالسون في الصفين الذي خلفهم النقاش، وأصبحوا ينظرون إلى الصغير "ميهاي نيلاش" بفضول وحسد.

الحصة التالية، الحساب، دخل المدرس السيد "باتوري". كان شاباً عصبياً شديداً، شعر رأسه أصفر يتطاير مع الهواء، عيناه صارمتان ولهما بريق، قبضة يده صلبة، يحكي التلاميذ أنه صفع حارساً مرة فتحرك فكه من مكانه، كان ذلك يروقهم؛ لمشاكلهم الكثيرة مع الحارس ذي الحذاء الطويل، لكن ذلك لم يحدث. يرتدي المدرس باتوري ملابس أنيقة جداً، ولكنه لم يكن يتعطر، يضغط على الطباشير بقوة عندما يكتب على السبورة، فتنكسر الطباشير، في إحدى المرات طارت القطعة المكسورة من الطبشورة وكادت أن تصيب عين طالب يجلس في المقعد الخامس. لم يكن يهتم كثيراً بالحساب، ولا أن يعلم التلاميذ قواعده أو يفهمها لهم أو يحببهم فيها، ولا أن يشرح صدورهم وأرواحهم للعلم كنوافذ متطلّعة. وعندما يغلق أحد التلاميذ عينه أمام أرقام الكسور ينفجر غضبه: "ألا تعلم حتى هذا أيها الحمار!". يتردد صراخه بين جدران الفصل الأربعة، يضايق ذلك "ميشي"، وينظر بأسى إلى التلميذ الموبَّخ، ودّ لو أفهمه المدرس بهدوء.

دق جرس استراحة الثانية عشرة، خرجوا متحررين يركضون في المدرسة، وصل "ميشي" إلى غرفته خلال دقيقتين، رغم أنّه كرر في نفسه عشر مرات أنه لن يخبر أحداً بأنه حصل على لفة، ولأن أمه قد كتبت على الكوبون: "لا تتفاخر باللفة، لا يوجد ما تتباهى به يا بنيّ"، إلا أنه صرخ بذلك، وصاح الأولاد:

– ماذا؟! لفة؟

وصاح "بوسورميني":

– "نيلاش" حصل على لفة، "نيلاش" حصل على لفة! لكني سأحصل على واحدة خلال الأيام المقبلة، لقد كتبوا لي بالفعل من المنزل، سيرسلون لي إوزة مشوية كاملة!

يشعر "ميشي" بالخجل، يتحتم عليه أن يريهم ما فيها بعد أن يضعها على المنضدة كما اعتاد أن يفعل الآخرون. إنه لا يقبل لأحد أن يعطيه شيئاً، ولكنه أجبر على أن يأكل من الكعكة التي أخرجها رئيس الغرفة قبل أيام من لفة وصلته، والذي تصله اللفات دائماً، سيخرجها أمام زملائه، فأمه لا تعلم ما يعني الحصول على لفة. دق جرس سكن الطلبة لتناول الغداء، اختفوا خلال دقيقة، وبعدها بدؤوا يخرجون من المطعم وشطائر الخبز في أيديهم بعدما شبعوا، وقف "ميهاي شاندور" "Sándor Mihály" بجواره:

– هل ذهبت إلى البريد؟

– لا.

– إذن لم تستلم اللفة.

– نعم.

– سأرافقك.

فرح بذلك كثيراً، غادرا سوياً، وصلا السكن في الساعة الثانية، دق جرس الحصة، فوضع اللفة في خزانته، وأسرع بالنزول. كانت حصص ما بعد الظهر أكثر صعوبة؛ حصة الدين ثم اللغة المجرية. كان مدرس الدين ضخماً سميناً، بشرته سوداء مثل الجلد المدبوغ، ذا شارب أسود صغير خفيف جداً. يدخل الفصل بشكل مهيب. يتأبط حزمة كبيرة من الأوراق، لم يضعها على المنضدة، بل وقف أمامهم، قلب نظره في الفصل، وأشار أن اقعدوا، ثمّ إلى أحد الأولاد:

– أخبرني يا بني، ماذا كان واجب اليوم؟

وقف الولد متفاجئاً فزعاً، تأتأ وتلعثم، رغم أن مدرس الدين السيد الأستاذ "فالكاي" "Valkai"، لم يكن من آكلي لحوم البشر، وكان يحاول أن يساعد الولد في الإجابة: أليس كذا وكذا... ويقول الإجابة، لم يكن على التلميذ إلا أن يقول نعم أو لا، ومن المستحيل أن يقول تلميذ (لا) عندما يجب أن يقول (نعم)؛ لأن السيد الأستاذ "فالكاي" كان يسأل هكذا: "ألم يكن ليعقوب اثنا عشر ابناً؟ جيد جداً". يشعر "ميشي" بالملل في هذه الحصص، والأساتذة الذين يتعاملون مع المادة الدراسية بلا مبالاة، كمن اعتاد طحن الذرة نظير أجر معين. يحاول التلميذ الصغير أن يتذكر أول مرة فكر فيها بشأن الأشياء الخارقة ما وراء الطبيعة، لم يخطر بباله أبداً الأستاذ "فالكاي" ولا مدرسو الدين الآخرون؛ بل تذكر أمه التي كان

يجلس معها أحياناً في ليالي الصيف خارج المنزل تحت شجرة الفراولة، ينتظرون عودة رب المنزل، الذي كان يعمل بناء في المزارع البعيدة ويعود ليلاً، كانا ينظران إلى السماء، تخبره أمه أن النجوم الصغيرة عوالم كبيرة في ذاتها مثل الأرض، وأن نجوماً أحدث، وهناك أراضٍ أخرى بهذا الحجم وهكذا وهكذا، إلى أن يشعر بالدوار من التفكير بشأن حجم هذا العالم وماهية الأشياء الكثيرة التي توجد فيه.

أمسكت أمه بخنفساء صغيرة تحت أقدامهما، تحدثه عن جمالها، وأنه لن يستطيع أي فنان أن يصنع مثلها. "لا يستطيع أي إنسان عمل ذلك أبداً، كم هي دقيقة سيقانها، هناك دودة صغيرة تعيش داخل هذه الخنفساء الصغيرة، وهذه أيضاً حياة، وهذا أيضاً متقن للغاية، وربما هناك من يعيش متطفلاً على هذه الدودة أيضاً، لكنه إذا لم يكن هناك ذلك، فكم هي دقيقة أجهزة وأعضاء هذه الدودة، ودمها، وخلاياها. من صنع كل ذلك، من خلقه، من أبدعه؟". عندما كان يفكر في هذه الأشياء ينكمش ليصبح صغيراً جداً، يلف ذراعيه حول ركبتيه في الليالي المليئة بالنجوم، وكان هذا هو دينه. يراوده التعب والملل كلما تذكر حصص الدين، كان عليه في الصف السادس أن يرتدي نظارة سوداء؛ لأنه عينه تؤلمه، كان ينام حينها دائماً في حصة الدين؛ لأنه لم يتقابل أبداً مع مدرس دين يستطيع أن يهز روحه بمناقشة هذه الأمور الأقوى والأكثر إثارة. قال "جيماشي" متنهداً وهو يتثاءب وعينه دامعة:

– أخيراً انتهت الحصة!

اعتاد الأستاذ "فالكاي" الصالح الأكثر إنسانية بين المدرسين بعد أن ينتهي من حصة الدين أن يسأل الطلاب: "أين قطعت معطفك؟" أو: "لماذا لا تغسل رقبتك؟" كان هذا غير معتاد؛ لأن المدرسين كانوا يمشون بين التلاميذ وكأنهم مخلوقات أسمى: لا يربّون، لا يعلّمون، وإنما يؤدون واجباً معيناً فحسب. سأله "جيماشي" وهو يتمطى:

– هل استلمت اللفة اليوم؟

– نعم.

– نعم؟! وماذا يوجد فيها؟

– لم أفتحها بعد.

– وكيف تبدو؟

– إنها مخيطة في قماش.

– في قماش؟ لماذا لم تفتحها؟

– لم يكن عندي وقت لذلك، كان عليّ اللحاق بالحصة.

حينها أتى إليهما "ميهاي شاندور"، الذي كان يجلس خلفهما بمقعدين.

– هل تعلمون أن "نيلاش" حصل على لفة؟

قال "جيماشي":

– يا صديقي، لو كنت أنا من حصل على لفة لما حضرت إلى الحصة وبادرت بفتحها ورؤية ما فيها.

دخل "أورتسي" الفصل لأنه لم يحضر حصة الدين، فلم يكن كاثوليكياً، وكانت اللفة موضوع سؤاله الأول، لم يكن "ميشي" أبداً موضع اهتمام الطلبة، وبعد حصوله على اللفة تغيّر الأمر. الحصة الثانية، اللغة المجرية. يدرس المادة أستاذ مساعد شاب لم تظهر شواربه حتى الآن، نشرت له بعض القصائد في صحيفة بودابست، يقال بأنّه شاعر رهيب، دَرَس علم اللاهوت، ودَرّس بعض الحصص في المدرسة الثانوية، ويشرف على الطلبة الساكنين في مدينة الطلاب. كان شارد الذهن، لم يصادف مثله من قبل، يتكلم كثيراً وبعشوائية، فيحمر وجهه، ثم ينظر حوله متفاجئاً وفزعاً كجرو خائف، ما إن دخل حتى ضحك الطلاب، سأل "ميشي":

– علام تضحكون؟

– ألا ترى؟

– ماذا؟

– حلاقة خروف.

لم يفهم في البداية، لكنه عندما رأى رأس المدرس ضحك، ووضع قبضة يده على فمه، وعندما جلسوا أخفض رأسه وتساقطت دموعه من شدة الضحك. لم يعرف المدرس سبب الضحك إلى أن قام بلمس رأسه بحركته الطبيعية المعتادة، والتي يمرر فيها يده على أصابعه كل دقيقتين حينها علا صوت الضحك فأدرك الأمر. احمرّ وجهه كالجمر وطأطأ رأسه، وبدأ يضحك، ثم قال بصيغة التبجيل: "أرى أن حضراتكم تضحكون على هذا". كان المدرس الوحيد الذي يتحدث إليهم بصيغة مبجلة، رغم التوجيهات بعدم استخدام صيغة التبجيل مع التلاميذ حتى الصف الخامس. وأردف: "من فضلكم، لا تتعجبوا من أنني قمت بقص شعري، إنني أود أن أترك شعري طويلاً تماماً، لكن الناس في دبرتسن سيحملقون فيّ حينئذ، ثم إنني سأؤجل قص شعري بعدها حتى أصبح كرجل الغاب، كما أن حظي سيء اليوم، أخذت الرياح قبعتي". زاد الضحك والقهقهة، وواصل: "فركضت وراءها، أثارت الرياح شعري، ثم دخلت أول دكان حلاقة قابلته لأقص شعري، إنه لأمر رهيب ما صنعه الحلاق، قصر شعري كثيراً، وددت أن أقول له أرجوك سيدي بحق الإله، لكني خشيت ذلك، فلربما غضب وجزّ رأسي أيضاً بعد شعري". ضج الفصل بالضحك، واصل المدرس كلامه: "حسناً، الآن يجب عليّ بالفعل أن أمشي برأسي هكذا حتى ينمو شعري مرة أخرى، يغير كل واحد منا شكل رأسه بالقبعة التي يملكها، وذلك بلاجدوى، فالجميع في النهاية يسير بالرأس الذي يصنعه له الحلاق".

يرتجف الطلبة من الضحك، لم يكن للحصة أيّة قيمة، استاء المدرس وبدأ يتوسل إليهم:

– أرجو حضراتكم، أرجوكم بشدة، لا تضحكوا؛ فسأعطي الجميع التقدير الخامس.

يزيد الضحك أكثر وأكثر؛ لأنه لم يكن هناك تقدير خامس، كان أسوأ تقدير هو الرابع، لكنه كان يدرّس في مدرسة البنات أيضاً، وقد اعتاد تخويف الفتيات بهذا التهديد، لم يتعلم التلميذ الصغير شيئاً في هذ اليوم، ولكنه يشعر بأنه يوم مهم وبتقدير كبير بالذات، غمر الفخر باللفة قلبه، ولم يصعد إلى الغرفة قط بمثل هذا الانتعاش من قبل. ما إن دخل الغرفة حتى شاهد الجميع يقفون حول المنضدة ويأكلون، تملكه الشك، لم يكن يعلم ماذا يأكلون، لكنه شعر بشيء ما، لفته مفتوحة، يأكلون منها ويضحكون عليه، دخل رئيس الغرفة، وسأل بحزم:

– من فتحها؟

لم يتحدث صاحبها، فردّ الآخرون أنها كانت مفتوحة عندما دخلوا وموضوعة على المنضدة، واعتقدوا أن "ميشي" من فعل هذا. تمنى لو كان قد أغلق خزانته، خجل أن يتحدث، وكل ما كان يخشاه أن يكون في شيء لا يسمح للآخرين أن يروه، وبدأ يبحث عن الرسالة ليتأكد، صاح "أندراشي" الذي كان مداناً في هذا الأمر لكونه أول طالب دخل الغرفة بعد انتهاء الحصة:

– ها هي الرسالة! ولم يكن هناك حصة ثانية للفصل (أ)، وصعد إلى الغرفة ثلاثة أولاد وفتحوا اللفة، وهم "أندراشي"، "بوسورميني" و"واحد من الغرفة 21".

كانوا يسخرون منه باسم "مارتسي توك" "Tök Marci."، تناول "ميشي" الرسالة وأسرع إلى النافذة، قرأها وهو يمضغ قطعة من الكعك، ثم ما لبث أن قال:

– أين الدهان؟

– أي دهان؟

– كتبت أمي أنها صنعت دهاناً حتى أدهن به يدي إذا هبت الرياح عليها، وأن أشرّب حذائي به لكيلا يتسرب الماء إلى داخله... ها هو مكتوب هنا!

قال "بوسورميني" بوجه شاحب:

– مرهم! هل كان ذلك دهاناً؟

– ما هذا؟
– ما دهنتم به الخبز.
قال "أندراشي" وقد احمر وجهه:
– من دهنه به؟ أنت دهنته!
صاح "مارتسي توك":
– هو من أكله، ويتهمنا بذلك!
– ألم تأكل منه؟ ألست أنت أكثر من دهن به؟
صرخ "مارتسي توك" بوجه شديد الاحمرار:
– بالطبع لا! لأنك لم تعطني منه، وغد حقير، خنزير وقح، دنيء قذر، ألم تقل أنه لك؟!
زعق رئيس الغرفة:
– لا تصرخ هنا!
– إذا كنت قد أكلت منه فهو أيضاً قد أكل منه!
وقف الآخرون يحملقون باندهاش، ثم انفجروا في الضحك.
– لقد اعتقدت أنه زبد.
صاح "أندراشي":
– من الجيد أنني لم آكل منه، قلت أنه فاسد! قلت أنا أنه فاسد! نتن، قلت ذلك!
– كان نتناً بالفعل!
– لكنكم أكلتموه رغم هذا!
– كان نتناً قليلاً، لكنه كان جيداً كالبيرة الإنجليزية!
– جيد هذا في المعدة!
– والآن، ماذا سيكون بعد ذلك؟
– يمكننا تقيؤه.
سادت موجة من الضحك الشديد على "بوسورميني"؛ لأنه أكل الجزء الأكبر منه، ولم يبقَ شيء منه "لميشي"، وضع "ميشي" اللفة في خزانته، كان الجميع في المساء يتحدثون عن هذا الأمر فقط، عن الدهان الذي أكله "بوسورميني" و"مارتسي توك"، في النهاية أحضروا زجاجة مشروب كحولي لإزالة مذاق الدهان، صرخ "بوسورميني" غاضباً:
– لقد سرقتم سكيني!
– من سرقها؟
– كانت موجودة هنا على المنضدة، الجميع أكل بها، لا أدري من اختلسها ووضعها في جيبه.
– اصمت!
– أعطوني السكين!
– أعطني أنت الدهان!
وهكذا انتهى النقاش، انتشرت القصة بين الطلاب اللاهين أيضاً، وصلت لفة لتلميذ صغير، وأكل من يسكنون بالغرفة معه الدهان المنظف للحذاء، شعر رئيس الغرفة بالعار مما حدث، وأعلن أنه سيتنازل عن مرتبة رئيس الغرفة، وسيغادر مدينة الطلاب. ناموا متأخرين، لأنهم ما إن كادوا ينامون حتى قال السيد "ناج" "Nagy"، الطالب في الصف الثامن، بخفة دم رغم أنه كان شخصاً جاداً.
– كأنني أسمع صوت دهان أحذية في بطن أحد ما.

"بوسورميني" يتنفس بصعوبة من الحنق، انفجر التلاميذ ضاحكين، فنهض "بوسورميني" وبرم حبلاً من بطانيته وتعارك به، وبدأ يجعجع:

– لقد سرقتم سكيني أيها الأوغاد الحقيرون النشالون! يالها من لفة قذرة، لفة حقيرة، سترون علام سأحصل، سيكون في لفتي إوزة مشوية جيدة.

– لقد كان فيها أيضاً دهان جيد.

تجاوز الوقت منتصف الليل، وما زال موقف الدهان الفكاهي يشتعل ويعود من جديد، استمر الحديث عن الموضوع في اليوم التالي، انتشر أمر تناول الدهان، و"بوسورميني" يشتعل غضباً كثور هائج، أما الاثنان الآخران فلم تقع عليهما أية مسؤولية أو لوم، فدائماً ما يكون هناك كبش فداء، وهو الشخص الأكثر ظهوراً، أما المنزوون فيختفون حتى يلف الحبل حول رقبة هذا الشخص بمفرده، وكان الحبل الذي لفت به رقبة "بوسورميني" هو السخرية. يتذكر "ميشي" اللفة، لها رائحة.لا ينساها، تذكّره بأبيه عندنا يعود من رحلة بعيدة، ويخرج من الحقيبة التي يحملها على ظهره خبزاً مسحوقاً، ويقول: "فتافيت خبز"، ولم يمنح والد أحد أبنائه سعادة مثل ما يشعر بها "ميشي" عندما يعطيه والده فتافيت الخبز. فكر بأبويه، عاد يقرأ رسالة أمه في حديقة النباتات التي يرتادها عدد قليل من الناس بتمعن، فبكى،كحمل صغير، وهو يختبئ خلف الأشجار الكثيفة، بكى كثيراً، بما فيه الكفاية ليرتاح، ثم هرع ليعود إلى مدينة الطلاب، فقد اقترب وقت حصص ما بعد الظهر المسائية، توقف بعد أن اصطدمت رجله بجذر في الأرض.

فانتبه للفتى الذي يعمل في مشتل الزهور، نعم، كانت على رأسه، عرفها، قبعته؛ أجزم بذلك، عرفها من شعرها المتدلي لأسفل، من لونها أيضاً، ما زالت خضراء كما كانت في اليوم الذي فقدها فيه، ولكن كان بها حبل رقيق وليس شريط كقبعته، دقق النظر فيها طويلاً، ودّ أن ينادي الفتى، لم يجرؤ، رغم أنه كان يرتدي القبعة الرثة المصنوعة من القش، وقبعته الجيدة هناك، على بعد خطوة منه، على رأس شخص آخر، متسخة ومتقبّضة، كأنها ليست قبعته، لم يجرؤ أن يقول له: "من فضلك، أريد قبعتي!". سمع صوت الجرس يدوي من بعيد، في فناء سكن الطلبة، ركض، وكأن ذلك النداء يخصه وحده، يشعر بالحزن، تعكر مزاجه، وكأن حياته كلها قد فسدت، لم يجرؤ على إخبار أحد بذلك، لأنه كان حماراً أخرق، فقد قبعته، لم يرد أن يسخروا منه ويضحكون عليه، مثل ما حدث مع "بوسورميني" بسبب سكينه. لكن ما الذي حدث مع سكين "بوسورميني"؟!

عندما صعد إلى السكن مساء، وجد عامل التدفئة يضع شعلة في أسطوانة حديدية كبيرة، كان الموقد الذي بداخل الغرفة، يمكنهم أن يشغلوا التدفئة من الخارج، ولكنهم اعتادوا أن يتجمعوا حول هذا الموقد في الشتاء، قرب المساء، قبل الذهاب لتناول العشاء، وعنده يجلس الطلاب البالغون مع ضيوفهم. كان في الغرفة السيد "بانتسيل" "Páncél"، الطالب في الصف الثامن، والذي كان يذهب كثيراً إلى السيد "ليسنياي" "Lisznyai" المدير، والسيد "هرنجي" "Haranghy" الشاعر بالصف الثامن، والذي يكتب القصائد وظهر في صحف دبرتسن، والذي كان يزورهم كثيراً أيضاً.

تحلقوا حول الموقد يبادلون الحديث، ذكر السيد "هرنجي" قصة العقيد "شيموني" "Simonyi"، أشجع جندي خيالة، ذات مرة في طفولته صعد مع أصدقائه إلى البرج الأحمر، لاحظ في أحد شقوق البرج من الخارج غربان صغيرة، طلب من زملائه أن يمسكوا بخشبة ووقف في نهايتها، وأخذ يجمع الغربان الصغيرة بأصابع قدمه ويكومها على صدره، عرضوا عليه أن يعطوه منها ولكنه رفض، هددوه: "سنرخي الخشبة إذاً"، لم يهتم وأصر على رأيه، فأرخوا الخشبة، وسقط من على سقف البرج الأحمر، ولكنه تمكن بطريقة ما من امتصاص صدمة السقوط من الأعلى، وركض مبتعداً وهو يسخر منهم: "لن أعطيكم منها!"، أعجبته القصة، في تلك الأثناء كان مشغولاً بترتيب خزانته، وضع فيها ملابسه الداخلية القادمة مؤخراً، وكنس فتافيت اللفة إلى خارج الخزانة، بينما كان الآخرون حول الموقد. كان يعمل في الظلام، فأمسكت يده بسكين "بوسورميني".. توقفت ضربات قلبه، كاد أن يصرخ بأنه وجد السكين، ولكنه خاف أن يتهمه "بوسورميني" بسرقتها: "سرقت سكيني، أردت أن تسرقه، كيف يمكن أن تكون في خزانتك لو لم تفعلها؟"، فسكت ووضع السكين جانباً، واصل

عمله ببطء، تقع يده على السكين مراراً، عرفها؛ مقبضها على شكل سمكة، سكين صغيرة بديعة جدة، قبضتها براقة لامعة، وجسم السمكة من عرق اللولؤ ولها أعين أيضاً.
تذكر أنهم أكلوا ما في لفته ولم يتركوا له شيئاً منها تقريباً، وأن الجنايني يمشي مرتدياً قبعته، فقرر، لن يقوم برد السكين، وسيأخذها معه إلى المنزل ليريها لأشقائه الصغار، سيتعجبون من شكل السكاكين التي يمكن الحصول عليها في دبرتسن! شعر بالإثارة والقلق، خبأ السكين في درج الخزانة السري. كانت خزانته لعربة جده قديماً، ولها درج سري، وبها قاعدتان في الأسفل، يمكن فتح القاعدة العلوية ودس النقود فيها أو أية أشياء صغيرة أخرى، عن طريق وضع قضيبين في القفل وتحريكهما إلى اليمين واليسار، لم يكن أحد يعلم بذلك، خبأ السكين، لن يفتح هذا الدرج إلى أن يعود إلى المنزل، أنهى ما يفعله بسرعة وهدوء ولم يهتم أحد لأمره. المصابيح أمام سكن الطلبة مطفأة كالعادة، اعتادوا أن يتحدثوا حتى يرن جرس الطلبة في الساعة السادسة والربع للمجموعة الأولى، كانوا ضمن هذه المجموعة.
في الليل بات يفكر في السكين، يفكر في تدبير الرب، فقد منحه شيئاً مقابل ما خسره وضيقه مما حدث، يشعر بالسعادة لامتلاكه السكين ذي المقبض بشكل سمكة. من أين "لبوسورميني" أن يشتري هذا السكين؟ من المؤكد أنه سرقه من مكان ما، أو من أبيه أو أحد أقاربه أو شخص ما، لأنه لم يكن ولداً نزيهاً. في المدرسة لم يفارق السكين ذهنه، واستمر ذلك على مدار اليوم التالي، والثالث. يتأكد كل لحظة من وجود مفتاح الخزانة في جيبه، لا يخرجه، يخشى أن يضيعه ويتمكن أحد ما من فتحها. يتساءل إن كان قد أغلقها. ذات مرة خرج من الفصل يركض في استراحة العشر دقائق ليتأكد من وجود السكين، رغم أن عودتهم للسكن كانت ممنوعة في الاستراحة. أصبح مثل موظف الأرشيف العجوز، الذي كان لا يثق في نفسه، يتذكر الأشياء التي ينساها، أهمل عدة مرات أغراضه في المنزل، وفي إحدى المرات نسي قبعته القماشية في منزل أسرة القس عندما ذهب لأخذ اللبن، وعاد ووجدها.
تساقطت الثلوج في 18 أكتوبر. كان هذا اليوم مهماً، سقوط الثلج مبكراً، يكتب الأولاد على النوافذ المكتسية بالثلج الأبيض تاريخ اليوم بأصابعهم، وبعضهم نحتوا ذلك بالسكاكين على أطرها. سيذوب هذا في غضون أسبوع، ولن ينهمر الثلج إلا في نهاية فبراير. عصر ذلك اليوم نزل بإبريقين فخاريين لجلب الماء من النافورة الواقعة في الفناء الخلفي، لأن ماءها لم يكن طعمه مثل طعم الحديد كالأخرى، وتقع قرب السلم الخلفي، وبعدما انتهى بدأ يمشي في الفناء الواسع الكبير تحت الثلج المتساقط، رأى الأستاذ "فالكاي" والذي كان يرتدي قبعة سوداء قماشيّة ومعطفاً طويلاً أسود ، فناداه:
– يابنيّ! تعالَ إلى هنا، تعالَ!
نظر "ميشي" إليه خائفاً.
– لماذا تمشِي بقبعة قشية في مثل هذا الجو؟
لم يستطع الإجابة، وتسمرت نظراته إلى الأمام.
– أليست لديك قبعة من الصوف السميك؟
هزّ رأسه أن لا.
– ولم يكن عندك من قبل؟
أشار أن نعم.
– وأين ذهبت؟ هل سُرِقت؟
فأومأ ثانية بالإيجاب.
– همم، همم.
همهم المدرس الضخم.
– ما اسمك، يا بني؟
فذكر له اسمه.

– ماذا؟ بصوت أعلى!
قال اسمه مرة ثانية، واحمر وجهه لأن السيد المدرس لم يكن يعرف اسمه، رغم أنه كان يعطيه درجة الامتياز دائماً.
– وفي أيّة غرفة تسكن؟
– في غرفة رقم 19.
أومأ المدرس الضخم وغادر، مشى التلميذ الصغير، يشعر أنه يعاني من حمى داخلية. ينوء من ثقل الإبريقين، يكادان أن يخلعا كتفيه بذراعيه الضعيفين.
كادت يده تتجمد على مقبضي الإبريقين حتى وصل إلى الطابق الثاني، حرك أصابعه تحت مصباح الكيروسين، ثم ذهب إلى الغرفة. وجد السيد "بانتسيل شومورياي" يزورهم في الغرفة، ويتحدث بنبرة حادة، وضع الإبريقين في مكانهما وانزوى جوار سريره في الغرفة الدافئة، كان يشعر بالضعف والتعب والخوف والحزن، جلس يستمع إلى الحوارات ينتظر وقت الذهاب إلى سكن الطلبة. كان العشاء معكرونة (بجبن قريش) مصنوعة من لبن الخرفان، كان الآخرون يتناقشون بشأنها، أنها رقيقة وتلتصق مثل الغراء، ولكنه كان مهتماً بأمر آخر، يفكر في أبويه وكيف سيتعكر مزاجهما عندما يعلمان عن أمر ضياع قبعته. عادوا إلى الغرفة وأشعلوا مصباحاً ثم شرعوا في المذاكرة. في نهاية المنضدة العلوية ناحية النافذة جلس طالبان من الصف الثامن مقابل بعضهما، السيد "ليسنياي" والسيد "ناج" الذي يعاني من إعاقة في كتفه، كما كان أحدب قليلاً، ولكنه ذكي جداً، كان الولد الأذكى في مدينة الطلاب كلها، لم يكن يستطيع اللعب، فيقضي وقته في القراءة على سريره حين يلعب الآخرون الكرة أو يتزلجون، كان يعرف كل شيء تقريباً، ويستطيع التحدث عن أي شيء في العالم. وكان في الغرفة خمسة طلاب صغار آخرون، جميعهم في الصف الثاني الثانوي، اثنان منهم بالفصل (أ) وهما "أندراشي" و"بوسورميني"، والثلاثة الباقون كانوا بالفصل (ب).
كان "لازار أندراشي" "András Lázár"، ولداً أحمر قويّاً، لم يكن يذاكر أبداً، رغم ذلك كان الأول في الفصل، لامتلاكه ذاكرة حديدية كالخزانة، ما يوضع فيها مرة يبقى فيها، يحفظ بمجرد سماعه الشيء من أول مرة، لم يعانِ أبداً من مشاكل في التعلم، وإذا قرأ قصيدة طويلة مرة أو مرتين حفظها، وصدح بها من البداية إلى لنهاية، وعندما يعودون من الكنيسة في يوم الأحد يكون قد حفظ كل كلمة في الخطبة، وذلك ما جعله يصبح بعد ذلك قساً في قرية صغيرة جداً بمحافظة صَاتمار "Szatmár"، وفي الستين من عمره كان يستطيع أن يذكر ستمائة سطر مما كتبه "أوفيديوس" "Ovidius"، وإذا تعثر في قصيدة الإلياذة "Íliász" غمغم بتذمر أن ذاكرته قد فسدت. لم يكن "نيلاش" الصغير مثله، لا يستطيع الانتباه لترتيب الكلمات المتتالية، قبل فترة درسوا عشرة أسطر من شعر "فيرجيل" "Vergilius"، وفي خمس حصص متتالية نودي عليه للإجابة ولكنه لم يحسن الإجابة، لم يكن يحب المذاكرة، ينتظر أن يخلد إلى فراشه. دق الجرس الساعة التاسعة، فتوجب عليهم الذهاب للنوم وإطفاء كل المصابيح.
كان مرهقاً فغط في النوم فوراً، استيقظ عند منتصف الليل، تذكر القبعة، صرخ بأنها سُرقت. شعر بالخوف، سيقومون بتفتيش جميع الخزانات، وسيجدون السكين عنده! سينكشف! وبعدها ستكون النهاية. تمكن منه البرد والخوف حتى بدأت أسنانه تصطك ببعضها. لم يخبر أحداً من قبل عن الدرج السري، لكن "لميهاي شاندور" خزانة عربة مثل خزانته، وقد حصل عليها من أبيه حين كان معلماً في الريف، يفتخر "ميهاي شاندور" بأن خزانته مميزة، حينها أراه "ميشي" مكان الدرج السري، وبعدها وقف التلاميذ صفاً أمام خزانة "ميهاي شاندور" ليجربوا القفل، وحضر اثنان من الغرفة رقم 21 ليروا ذلك أيضاً. حينها شعر بالفخر لأنه يمتلك مثل هذه الخزانة الشهيرة، تخيّل أن يقوموا بفتح خزانته ليجربوها، ثمّ يرون سكين "بوسورميني"! غفا قرب الفجر، توصل إلى فكرة، في الصباح حين سيذهب من أجل الإفطار لجلب لحم الخنزير المقدد بالفلفل لثلاثة أشخاص كما يطلب منه رئيس الغرفة دائماً، سيحمل السكين في جيبه، وسيخرج إلى الشارع ويرميه في القناة عبر السياج، حيث اعتاد رمي قشر البطيخ في الخريف. عندما نهض كان متعباً وشاحباً جداً، لاحظوا ذلك. قال السيد "ناج":

– ما مشكلتك، أيها الصغير "نيلاش"؟
– لا شيء.
قال رئيس الغرفة:
– كأنهم صبغوك باللون الأبيض، اذهب إلى الطبيب. ألا تريد ذلك؟ يجب عليك، فلن أسمح بانتشار الأمراض في الغرفة.
حدق ناحيته ثم سأله:
– هل أحضر الفطور أيها السيد رئيس الغرفة؟
– دعك من أمر بالفطور، اذهب إلى الطبيب، ارتدِ ملابسك، واذهب في الساعة التاسعة. سوف ينزل "تشيتشو" "Csicsó" لإحضار الفطور.
لم يتمكن من تنفيذ خطته، وبدأ يسأل نفسه إن كانوا سيفتشون الغرف في الساعة الثامنة، لم يرد أن يبتعد عن خزانته، ولكن لابد من الذهاب إلى الطبيب. غادر الطلاب إلى المدرسة في الساعة الثامنة، وبقي هو في السكن، فأخرج السكين بسرعة من درج الخزانة ووضعه في جيبه، ثم ارتدى معطفه الشتوي ولف منديلاً حول رقبته وذهب إلى الطبيب. نزل من السلم الموجود ناحية تمثال "تشوكوناي"، وبينما هو على درجات السلم الخشبية كان يفكر في مكان يستطيع أن يخفي السكين فيه ويعود لأخذها قبل عودته إلى منزل الأسرة في الصيف بدل التخلص منها، وأمسك بمقبض السكين في جيبه، اتجه إلى شقة الطبيب برأس ينظر إلى الأسفل. كان الطبيب سيداً عجوزاً جداً، ويوجب مناداته بالسيد الموقر وتقبيل يده، بشرته وردية اللون مثل الفطائر المقلية المحلاة، وشعره أبيض مثل قطة بيضاء كبياض الثلج، اعتاد أن يكتب نوعين فقط من الدواء: حليب اللوز أو مليّن. همس "إمرا تشيتشو" في أذنه قبل أن ينزل: "إذا أعطاك حليب اللوز فسأشربه بدلاً منك!".
لم يستطع تحمله، كان مثيراً للغثيان، فردّ:
– جيد، سأتركه لك.
لم يعلم كيف وصل إلى الغرفة المنخفضة، فالسيد الموقر يسكن في منزل صغير جداً بجوار زودهاز "Ződház" الأسقفي، أثاث غرفته جميل، وهي ممتلئة بالكتب، وأدوات طبية غريبة. شعر "ميشي" بالتوتر، الصورة أمامه ضبابية فقد اغرورقت عيناه بالدموع، أمسك الطبيب العجوز ساعده يقيس نبضه، فحص لسانه، وكتب روشته بدون أن يحدثه، ضربه على وجهه ليذهب إلى الصيدلية التي تقع في الجانب المقابل بجوار محل بونجراتس. روائح غريبة وقوية في الصيدلية، وقطع كبيرة من السكر المضاد للديدان الشبيه في هيئته بلعبة الدُوامة، اعتاد جده إحضاره من طرطسال "Tarcal". ود أن يأخذ السكر الذي يحبه ولكنه مرتفع الثمن، لذلك اكتفى بمشاهدته، قطع بيضاء وحمراء، ونوع آخر على هيئة العصيدة، يحبه أيضاً، رغم المرارة التي في جوفه، كان يأتي به خاله الميكانيكي، ويقول بأنه صحي، ولا يشتري غيره، جلس في الصيدلية كمحكوم عليه بالإعدام، متأثراً بالرائحة القوية والهدوء الذي يشبه هدوء المعابد، شعر أنه في الصيدلية على باب الموت، وصلت العربة التي تجرها الخيول على سكة حديدية أمام الصيدلية، فكّوا الخيول، سحبوها للوراء، وانطلقت العربة، كان ما زال لا يعلم ماذا يفعل بالسكين!
حصل على العلاج بدون نقود، كان على حساب سكن الطلبة، عاد إلى السكن بأبطأ ما يمكن. لم يستطع أن يتوصل إلى شيء بخصوص السكين. وجد ثلاث فتحات قنوية عليها قضبان، لكنه لم يتحمل رمي السكين فيها، لعله يخفيها في مكان ما في مدينة الطلاب. عندما كان يصعد على السلم الهادئ فكر في أن يضع السكين بين عوارض السلم الخشبية، لكن كيف سيخرجها من هنالك بعد ذلك؟ رأى في الطابق الأول صندوق القمامة المصنوع من خشب البلوط، أمسك السكين بسرعة، ورماها خلف الصندوق، انزلقت وسقطت، خشي ألا يستطيع إخراجها من هناك مرة أخرى، ستبقى أفكاره مرتبطة بهذا المكان دائماً لمدة سبعين عاماً، لديه سر هنا.
دخل الغرفة، ود أن ينزل إلى الفصل؛ فلم تعد حالته سيئة، لم ينزل؛ لا يريد الذهاب إلى حصة الدين، فبقي في الغرفة، تناول ملعقة من المليّن، طعمه سيء، يا إلهي. جلس عند النافذة يقرأ كتاب صور من التاريخ، وكلما دق الجرس سكب

ملعقة من دواءه خارج النافذة، عند الظهر صعد التلاميذ إلى الغرفة، أولاً تلاميذ الفصل (أ)، ثم زملاؤه بالفصل. تحلقوا حوله بفضول.

– ماذا كتب لك الطبيب؟

– ملیناً.

– يا إلهي، فلتشربه إذن!

– هل تناولته؟

– ثلاث ملاعق.

أتى رئيس الغرفة، كان يتذمر:

– معذرة يا "نيلاش"، أين قبعتك؟

شك "نيلاش" في مظهره ولم يرد.

– كيف تسير بقبعة من القش في مثل هذا الجو!

قطع حديث رئيس الغرفة جرس الإعلان عن وقت تناول الغداء، ولم يكمل ما قاله بشأن القبعة. تناول غداءه جيداً، وعندما صعدوا إلى الغرفة قال له رئيس الغرفة:

– هل ذهبت لتناول الغداء؟

– نعم.

– الطبيب كتب لك ملیناً، فلماذا أكلت؟ ألم يخبرك الطبيب بذلك؟

– لا.

– إذن فليست هذه مشكلتك، وإنما القبعة أفسدت بطنك.

ضحك الأولاد.

– أين قبعتك؟

– لا أدري.

– لا أدري! لم يسمع أحد منذ أيام جدي العجوز أن شخصاً ما لا يعرف مكان قبعته، ناداني "فالكاي" في الفناء وسألني عن قبعتك، لا أعرف ما الذي جعله يكلمني عن هذا الأمر، فلست مربية أحد، إذا كنت أستطيع الانتباه لقبعتي فالآخرون أيضاً يستطيعون ذلك!

استفزت هذه الكلمة التلميذ الصغير، شعر أن رئيس الغرفة مسؤول عنه وعن أمر الاهتمام به، فشعر بمكانته، ولم يخجل أن يقول له:

– قبعتي سرقها أحد ما!

خيم الصمت. صاح "بوسورميني" غاضباً:

– أنا سرقتها؟! أنا؟ هذه حماقة! لا أسمح لك بقول هذا عني! لم أسرق قبعة أحد! أرفض هذا تماماً!

– لم أقل هذا.

صاح بأعلى صوته:

– هذا اتهام، فتشوا خزانتي، يجب تفتيش كل الخزانات!

رأى رئيس الغرفة أن الأمر قد تجاوز الحد:

– لا تصرخ، لم يتهمك أحد بسرقتها! تأنَّ قليلاً!

صاح "بوسورميني":

– تفضل وأثبت ذلك أيها السيد رئيس الغرفة، تفضل وابصق في عيني إن وجدتموها عندي!

تم تفتيش الغرفة، فرح التلميذ الصغير لتفكيره الذي هداه إلى إخفاء السكين، لم يندم لأنه ربما لن يراها مرة أخرى، الأهم أنها لم تكن في خزانته، فتح الدرج الخفي ليريهم أن القبعة ليست فيه، فتشوا أغراض كل واحد منهم ولم يجدوا القبعة. كان ذلك يوم سبت، لم تكن هناك حصص دراسية بعد الظهر، انقضت فترة ما بعد الظهر كلها في أمر القبعة، ظل يبكي على سريره. عند الشفق زاره السيد "ناج"، لم يكن في الغرفة سواهما.

– أيها الصغير "نيلاش"، أريد أن أقول لك شيئاً.

اعتقد أنه يريد أن يرسله للأسفل لأداء غرض، وكما اعتاد أن يتعاون مع الناس قفز من السرير، وأسرع إلى السيد "ناج" الذي يقف عند النافذة، جلس السيد "ناج"، وأمسك به.

– منذ ثلاث سنوات وأنا أقرأ كل يوم لسيد مسنّ أعمى، أقرأ له الجرائد من الساعة الخامسة عصراً إلى الساعة السادسة، ويدفع لي في مقابل ذلك عشرة كرايتسارات للساعة.

نظر إليه "نيلاش" أن ينهي حديثه ليعرف قصده.

– لديّ هذا العام أشياء كثيرة جداً تحتاج إلى الدراسة والمذاكرة، هل لديك مزاج للقيام بهذه المهمة؟

أصبح وجه التلميذ الصغير محمراً كاللهب من فرط الدّهشة ، ومتفاجئاًلم يستطع التحدّث، فأومأ بالموافقة.

– لكن هناك شيء مهم، يجب أن تكون البداية الساعة الخامسة تماماً، والانتهاء عند الساعة السادسة تحديداً، هذا السيد المسنّ دقيق جداً. وسيدفع لك ثلاثة فورنتات كل شهر!

– شكراً جزيلاً سيد "ناج".

وامتلأت عينه بالدموع.

– إذن سأخبره أنك ستذهب إليه ابتداء من الغد، ستحصل على فورنت في أول الشهر بالفعل.

– حسناً.

ظن أن قلبه سيقفز من مكانه، معطفه الصغير الضيق والّذي يضمه بشدة، قد أصبح كبيراً فجأة، لقد أصبح شخصاً يستطيع تكسُّب لقمة العيش، كان عليه أن ينزوي في مكانه ليبكي من الفرح من تلك الهبة الربّانية غير المتوقّعة.

الفصل الثالث

كان السيد المسنّ يدعى "بوشالاكي" "Pósalaky"، يسكن بعد الصيدلية في فناء منزل كبير أصفر اللون، وفي الخلف بيت خشبي صغير أنيق جداً. أراد التلميذ الصغير أن يكون جاداً ومجتهداً، لذلك ذهب إليه قبل الميعاد المحدد بحوالي نصف ساعة. كان السيد المسنّ جالساً على كرسيّ ذي ذراعين، كبير، مبروم بالقش، وكان يجلس بمفرده، النار تطرقع في الموقد، استغرب منه، فقد كان مختلفاً عما ظن، ويجلس بشكل طبيعي جداً بجوار النار المشتعلة، يدخن سيجاراً.

– مساء الخير.

– مساء الخير، مَن؟

– إنه أنا، أتيت للقراءة.

– حسناً، تفضل الجلوس يا ولدي.

جلس، الجرائد موضوعة على المنضدة.

– أيّة جريدة أقرأ؟

— ما زال لدينا وقت، سنبدأ الساعة الخامسة.

خجل التلميذ الصغير، اعتقد أن ما قام به يعد تجاوزاً منه، وأنه سيبدو أمام السيد العجوز في صورة شخص طماع أو فوضوي، لأنه حضر في غير موعده، احمر وجهه محنقاً ومؤنّباً نفسه، ولم ينطق بكلمة، جلس صامتاً، يستمع إلى دقات الساعة ذات الأرجل المرمرية، كانت على دولاب لامع، ليست مثل الساعة التي رآها عند أسرة العم "توروك" "Török" حيث كان يسكن العام الماضي، كان في قمة تلك الساعة جندي خيالة ذهبي يركب جواداً، والساعة مغطاة بوقاء من الزجاج، أما هذه فسوداء ولم يكن لها غطاء زجاجي، مثل الكنائس اليونانية في الكتاب المدرسي، إنها أفخم بكثير، خاصة وأن غطاء الساعة الزجاجي الموجودة عند أسرة العم "توروك" كان مكسوراً وملصقاً بورق، تتحرك الثواني في الساعة ببطء، وكان يعدها، مر الوقت طويلاً حتى تحرك عقرب الساعة، لم ينطق السيد العجوز ببنت شفة. من الممكن أنه كان يفكر في شيء ما، كان جالساً باطمئنان. وبالنّسبة للصّغير فقد كان لديه وقت للنظر إليه بشكل كافٍ، مسنّ أحمر، لا يمكن أن يكون طاعناً في السن، شاربه سميك، ذكره بتجمد الجليد على نبات إكليل الجبل، كان شارباً أبيض رائعاً. وكان المسنّ بصحة جيدة ويشعر أنه مرح، يحرك عينيه الزرقاوين بوضوح وصفاء يجعل من أمامه مضطرباً، من يراه لا يصدق أنه أعمى. ود أن يقول شيئاً، لكنه لم يكن يعلم ماذا يقول، ثم نطق:

– لا يسقط عندنا مثل هذا الثلج مبكراً.

لم يجب السيد العجوز، فتعكر مزاجه، كيف يجرؤ على إزعاج هدوء السيد المسنّ ، قد يكون يفكر في أمر ما وقطع عليه تفكيره، بحماقته، لن يهم المسنّ سقوط الثلوج، تمنى لو تمكن من سحب كلامه، ود لو لم يقله، بدأ يتحرك بقلق ويعض على شفتيه. ثم ود أن يسأل: هل السيد "بوشالاكي" لا يرى حقاً؟ لا يرى النور أيضاً؟ هل لا يعلم متى أشرقت الشمس ومتى حل المساء؟ والسيد"بوشالاكي" يدخن السيجار، ببطء، بارتياح شديد، كان مسنّاً بديناً، ملأ جسده الكرسي ذا الذراعين، يده لينة وردية اللون، وكان منبسطاً ولطيفاً، ثغره يفتر عن ابتسامة لا تفارقه. انقضت ربع ساعة. الساعة تدق، في البداية ثلاث دقات بطيئة صوتها عالٍ رنان، ثم أربعاً بصوت أغلظ وبشكل أسرع، بشكل ماكر كما لو كانت تضحك عليه. ساد الصمت مرة أخرى، وأخذ يراقب حركة بندول الساعة مرة ثانية. في النهاية نظر في الجريدة. خشى أن يرى السيد العجوز ذلك، ويعتقد أنه قد أتى لقراءة شيء ما يرغب هو في قراءته. قرأ عنوان الجريدة، وبداية المقال الافتتاحي، عندما انتهى أراد أن يقلب الجريدة المطوية لنصفين، خشي أن يسمع السيد العجوز صوت تحرك الورق، فانتقل إلى العمود الثاني وواصل القراءة. كان المقال يدور عن إعادة هيكلة السكك الحديدية التي تسير عليها عربات تجرها الخيول، لتصبح صالحة لحركة القطارات البخارية، ويرجع الفضل الكبير في هذا لعمدة دبرتسن الذي فعل الكثير لتطوير المدينة، لم ترَ

دبرتسن عمدة مثله من قبل.
أثاره ما قرأه، لأنه كان يحترم الناس المتميزين ويقدرهم، سمع أن السيد "بوشالاكي" كان مستشاراً بمجلس المدينة حتى أصيب بالعمى، ود أن يسأله متى مدوا أول سُك[8]. ومتى مدوا أول سكة حديدية تسير عليها عربات تجرها الخيول؟ وماذا كان قبل ذلك في دبرتسن عندما لم تكن هناك أيّة سكة حديدية للعربات التي تجرها الخيول؟ كان قد شاهد منذ وقت قريب عندما كان في الصيدلية أن السكة الحديدية التي تسير عليها العربات التي تجرها الخيول تأتي إلى "بيكا" "Bika" فحسب، عندها يقومون بفك الخيول وربطها في ظهر العربة، ثم يصعد مفتش التذاكر مرة ثانية إلى المصد الخلفي، ويعطى إشارة عالية الصوت باستخدام بوق نحاسي، فتنطلق العربة التي تجرها الخيول على السكة الحديدية مرة أخرى. أما السكة الحديدية الصغيرة فكانت تصل حتى ناجأردو، لكنه لم يركبها قبل ذلك؛ لإلزامية الدفع مقابل ركوبه؛ لذا كان يمشي حاملاً أمتعته سيراً على الأقدام من المحطة إلى الداخل، كما كان يخرج إلى ناجأردو أيضاً سيراً على الأقدام، لكنه يود أن يركبه مرة، سيكون ذلك أمراً لطيفاً، فخماً. فزع عندما دقت ساعة الكنيسة الكبيرة في الخارج. كانت تدق ببطء وهيبة كمطرقة كبيرة. ثم بدأ جرس كبير يرن، وكأنه كان قريباً جداً، سمع صوت "بوشالاكي" الهادئ كما لو أنه سرى من النافذة:
– هذا هو الوقت الذي كان يجب أن تأتي فيه!
رنت الساعة المرمرية طويلاً، بصوت رنان رقيق، في البداية أربع دقات رقيقة، ثم خامسة مخيفة سريعة غليظة. عندها التقط الجريدة وقرأ عنوان المقال الافتتاحي:
– مستقبل دبرتسن. الآن، عندما تخطو مدينتنا خطوات ضخمة إلى الأمام على طريق الأناقة والرقي، تقرر مؤخراً أن السكتين الحديديتين اللتين تسير عليهما عربات تجرها الخيول في المدينة....
يقرأ بسرعة، لم يفهم ما قرأه ولم تدخل كلمة واحدة في ذهنه، يحاول أن يقرأ الكلمات فحسب بشكل واضح ومفهوم، ينتبه إلى حركات فمه حتى لا تتداخل الأصوات، يحس بانقباض وانبساط شفتيه عند نطق الأصوات العالية والعميقة؛ يحرص على نطق كل كلمة بشكل متقن، يطير بين السطور، ينتقل من عنوان إلى آخر، وإذا لم يرغب العجوز بالاستماع إلى المقال يقول:
– فلنقفز!
عندها يقوم بالانتقال إلى موضوع آخر، كان عليه أن يقرأ العناوين كلها، لم يسمح له بتفويت أي عنوان، حتى عناوين الأخبار الصغيرة، لكنه بالتأكيد كان يأتي التوجيه بعد القراءة معظمها بـ"فلنقفز". دقت الساعة السادسة عندما كان في منتصف مقال أثار اهتمامه، يدور حول قطع الغابات، توجد في غابة دبرتسن عشرات الآلاف من الأفدنة الزراعية: "يبدو أن أشجار السنديان الممتدة أعمارها لقرن من الزمان تقريباً تبكي قريناتها التي دمرت، وتنظر بأسى إلى أسفل إلى الشيلم النادر والذرة ذات السيقان الدقيقة، وهي تعيش في أكثر المناطق في ضيق وبؤس..."، دقت الساعة هنا بالضبط، قال السيد "بوشالاكي":
– حسناً، فلنتوقف هنا ونكمل غداً.
وضع الجريدة ونهض واقفاً. لاحظ فم السيد العجوز يتحرك، كأنه يريد قول شيء، احمر وجهه، اعتقد أنه سيطلب منه ألا يأتي قبل الموعد المحدد مرة أخرى، لكنه لم يقل ذلك، وإنما قال:
– هنا أيضاً لا يسقط الثلج مبكراً هكذا في كل عام! لا أستطيع أن أتذكر في أي عام سقط الثلج في 18 أكتوبر قبل ذلك.
لم يرد، وقف، أنهى السيد "بوشالاكي" كلامه، ولم يبدُ أنه يريد استكمال حديثه، فقام "ميشي" بتوديعه:
– ليلة سعيدة.
هز العجوز رأسه بود:
– ليلة سعيدة.

ثارت الرياح ودخل الثلج عينيه بمجرد خروجه، أخفض رأسه، ركض إلى نهاية الفناء، خوفاً من وجود كلب ما، كان يخافها ولا يحبها، ففي قريتهم الكثير من الكلاب المتوحشة، وقد عضه كلب مرتين عندما كان ذاهباً لإحضار اللبن. ثم لاذ بعد ذلك بمدينة الطلاب محتمياً من الرياح. سيحين وقت تناول العشاء قريباً، والذي سيكون دخناً بالسكر، يحب هذه الوجبة، بينما كان الأولاد يتذمرون، يقولون بأنه يجب رمي الطعام على الحائط، وقال أحدهم: "إن هذا الطعام العلامة المميزة للطباخة، تباً". في المساء تحلقوا حول المصباح ليذاكروا، وهو مشغول بالمقال الذي قرأه للعجوز، يتخيل أشجار السنديان وهي تنظر بأسى إلى الذرة ذات السيقان الدقيقة والحبوب الصغيرة، وتهز رؤوسها بحزن لأنهم يقطعون رفقاءها الطيبين. الرياح تزأر في الخارج، تضرب النوافذ والقناة الموجودة في السقف، الموقد ساخن للغاية، يشعر بالنعاس من حرارة الجو. منذ أن حصل على اللفة كبر قدره بين الآخرين. وكذلك "بورسميني"، أكبر قدره، ففي أحد المرات لعب الكرة مع زملائه ففاجأهم بمستواه الرائع، هو نفسه تفاجأ، والآن بالتأكيد لن يستطيع لعب الكرة بسبب الطقس السيء، سينتظر الربيع.
رغم الطقس السيء إلا أن هذه الأيام كانت جميلة، وحصل على قبعة من أسرته، كانت صغيرة بنية اللون ذات طرف عريض، وعليها شريط، وليس حبلاً كالسابقة، أعجبته، تناسبه كتلميذ، تمنحه مظهر شخص جاد، لم يبدو أن أحداً انتبه لذلك. بكى كثيراً وهو يقرأ رسالة أمه، كما يفعل دائماً، ينفطر قلبه، لا يعرف السبب. في تلك الفترة كان مستواه الدراسي جيداً ويفهم الدروس، يجيب على أسئلة جميع المدرسين، وكانوا راضين عنه وسعداء به. لم يذهب للسيد العجوز قبل الوقت المتفق عليه كما فعل أول مرة، ينتظر أمام المنزل الأصفر إلى أن تدق ساعة الكنيسة الكبيرة، علم أنها ترن مرة قبل أن تدق بخمسة دقائق، فيدخل الفناء، ينتظر صوت جرس ساعة الكنيسة فيطرق الباب، وما أن يجلس على الكرسي تبدأ الساعة ذات الأرجل المرمرية في رنينها الضاحك..

* * *

قال له "أورتسي" ذات يوم:
– "نيلاش"، قالت لي أمي أن أدعوك اليوم السبت إلى منزلنا، تعالَ عندنا.
– أنا؟
– نعم.
– لماذا؟
– هكذا فقط.
– لكن لماذا؟
ضحك "أورتسي".
– زيارة. هل ستأتي؟
ارتبك من المفاجأة، يجلس بجوار أورتسي منذ عامين، ولم يسبق له أن دعاه إلى منزل أسرته، زار "جيماشي" في العام الماضي أكثر من مرة. كان "أورتسي" الأول في الصف، واعتاد "نيلاش" في منزلهم أن الثاني من إخوته يجب عليه دائماً إطاعة الأول. كان هو الأكبر، وكان على أشقائه الصغار أن يذعنوا له، ولم يكن ليطيع أحد من إخوته الصغار. يسبقه "أورتسي" في معدل الدرجات كلها، ذلك أمر عادل، أما "ميشي" فقد كان تقديره في مادة فن الكتابة "امتياز"، في حين كان تقدير "أورتسي" الثاني، وفي التربية الرياضية كان تقديرهما هو الثالث، ويتنافسان على التقدير الأول في بقية المواد، يقول الأولاد بأن أورتسي لا يستحق المركز الأول لأن "ميشي" يسبقه في الخط، لا يأبه بذلك، لأن "أورتسي" التلميذ المفضل لمدرس اللغة اللاتينية، ويعرف اللغة أكثر منه. تذكر ما حدث في أحد دروس اللغة اللاتينية. سأل السيد الأستاذ "جيراش" عن يوليوس قيصر، لم يعرفه أحد، فوقف "أورتسي"، ومما قاله أنها إحدى المسرحيات التي رآها في بودابست، وقُتل يوليوس قيصر.
– من قتله؟

نسي "أورتسي" من قام بذلك، ابتسم المدرس وهو يمسح وجه أورتسي عدة مرات بلطف، وقال:
– حسناً، اجلس.
أُعجب "نيلاش" به، "فأورتسي" يعرف الكثير من الأشياء، في كل حصة تقريباً يقول شيئاً لا يعلمه الآخرون. رغم أنه ليس جيداً في الحفظ مثله، وأنهما لا يستحقان المكان الذي يجلسان فيه وفقاً للجدارة، لأن شانطا "Sánta" الطالب الرابع في الفصل أفضل منهما، كان هذا الولد من دبرتسن ويرتدي حذاء برقبة طويلة، يقولون أن أباه حطاب، كان لا يتحدّث مع أحد، ويعرف كل شيء، بالإضافة إلى أشياء أخرى لم يتعلمها في المدرسة؛ كان يتعلمها من أمه. لم يكن أحد في الفصل يعرف تصريف الأفعال اللاتينية إلا شانطا. ورغم ذلك كان تقديره الرابع؛ لأنه حصل بغير وجه حق على التقدير الثاني مرتين. رغم تميّزه إلا أن كراساته قذرة، يشطب عليها باستمرار، ولا ينتبه لشرح المدرسين، وإذا نادوه كان في الغالب لا يعرف عمّا يسأل المعلم، ولكن إذا أعاد المدرس السؤال فإنه يجيب بشكل جيد! مال "نيلاش" الصغير على "جيماشي" أثناء الحصة:
– سوف أقول لك شيئاً.
– ماذا؟
– سأخبرك لاحقاً.
انتهت الحصة، استراحة الثانية عشرة، وضع "أورتسي" كتبه في حقيبته القماشية وربطها بحزام أصفر له سن صلب، وارتدى معطفه الشتوي، وفي أثناء ذلك مال عليه بحيث حنى خصره أيضاً، وقال:
– أنتظرك.
لم يرُد "نيلاش" الصغير؛ لأن كلمته الرقيقة "أنتظرك!" جرحته. ما كان يستطع قول هذه الكلمة. ما هذه الكلمة: أنتظرك؟
قال "جيماشي" وقد ربط كتبه إلى بعضها البعض بحزام رديء الجودة:
– ماذا يريد منك؟
– "أورتسي" دعاني.
– إلى منزلهم؟
– نعم.
– يا للعجب!
– ألم يدعك؟
– لا.
– إذن لن أذهب أنا أيضاً.
صمت "جيماشي". ثم نظر إلى "نيلاش" بعين لامعة رطبة:
– لا تتحامق!
– لن أذهب.
قال "جيماشي" وقد نطح صدر "نيلاش" كعادته عندما يتعارك:
– يا لك من حمار وحشي!
سقط "نيلاش" إلى الخلف على المقعد، وضحك بقلب صافٍ. خرجت حشود الأولاد، سقط كتابه من يده تحت المقعد، فلم ل يكن عنده حزام يربطها به ولا حقيبة قماشية، يحمل الكتب في يده، "جيماشي" كعادته يتأخر في وضع كتبه في الحقيبة، رغم ذلك لم يكن يضعها بحرص واهتمام مثل أورتسي. فقال له محاولاً النهوض:
– لن أذهب.
أخذ "جيماشي" يجذب كتفه.

– هل أنت غبي لهذه الدرجة...!
حينها عاد "أورتسي" من عند الباب، جارياً، بوجه محمر. وينادي "نيلاش"! نظر إليه متفاجئاً، شعر بالخوف، فقد يكون "أورتسي" قد سمع بأنه لا يريد الذهاب إليه.
– هيا!
جذبه وانتحى به بجوار الحائط، بدأ يهمس له، نظر "جيماشي" إليهما ثم غادر سريعاً وهو يشعر بالأسى، قال "أورتسي":
– أريد أن أقول بأنني لم أعلمك بمكان سكني.
– إنني لا...
أراد أن يقول له أنه لن يذهب عندهم، لكنه توقف، لم يجرؤ على قولها، انتابته رغبة مفاجئة بالذهاب، لأن "جيماشي" قد غادر. فأخبره أنه يسكن في شارع كوشوت "Kossuth" بجوار المسرح، أعلمه بالرقم، وأخبره أنه عليه الصعود فقط، فهم يسكنون هناك.
– طلبت مني أمي أن أدعوك لأن السيد الأستاذ "جيراش" حدثها عنك.
اضطرب "نيلاش" الصغير من المفاجأة.
– السيد الأستاذ "جيراش"!
أومأ "أورتسي" له بود، وانطلق جارياً فقد تأخر، وهرع "نيلاش" الصغير إلى الفناء ليلحق "بجيماشي"، يريد أن يخبره بأن مدرس اللغة اللاتينية هو من رتب الزيارة، لم يشاهده، يبحث عنه، وصل حديقة "تشوكوناي". فوقف هائماً إلى أن رن جرس سكن الطلبة، وصعد لاهثاً إلى الطابق الثاني، كان الجميع قد غادر، فأسرع بالنزول، وصل متأخراً إلى الغداء، وكان حساء جوياش[9] وثريد باللبن، استحسن مذاقه، وقف كبير الطلاب في نهاية الغداء وتلا الصلوات، كان مازال يأكل، وفمه ممتلئ بالثريد، فالتقم ما في طبقه بسرعة. عاد إلى الغرفة، شرع في ارتداء ملابسه في الغرفة.
– لماذا يتأهب هذا؟ أين سيذهب؟
– انظروا، "نيلاش" يغتسل!
– ويرتدي قميصاً نظيفاً! ألن تغسل قدميك؟
– إلى أين يذهب هذا؟
لم يخبرهم "نيلاش" بشيء، هز كتفه فحسب.
– يجب عليّ أن أذهب، الأستاذ "جيراش" قال ذلك.
تحجج بذلك، فبدون هذه الحجة لن يستطيع التخلص منهم، يعرف مكان المسرح، عَبَر محل الأحذية، عندما مرّ أمام المسرح شاهد إعلاناً: "الأطفال الأشقياء، كم ستكون مشاهدة ذلك جيدة". قرر أن يشتري تذكرة، يمكنه ذلك من مكتب مدير سكن الطلبة مقابل عشرة كرايتسارات، بتصريح من رائد الفصل، وهو مدرس اللغة اللاتينية؛ لهذا السبب لم يشترِ تذكرة قط، رغم أنه لن يتأسف على إنفاق النقود على المسرح. أخذ يحملق بمحيط المسرح، أتى شخص حليق الوجه وعلى رأسه قبعة طويلة، يرتدي بالطو غريباً، يدندن بصوت مرتفع، فركض مغادراً خوفاً منه. كان الطقس جميلاً، والثلج اختفى من الشوارع، إلا من تجمعات تحت وعلى شجيرات الحدائق، رغم الشمس الساطعة كان الجو بارداً. وجد المنزل الذي تسكن فيه أسرة "أورتسي"، لم يجرؤ على الدخول في الحال، يشعر بالتردد، مشى أمامه خمس مرات، ثم عزم على ذلك وحمل نفسه، أسرع إلى الداخل بوجه مضطرب محمر، لسلم الطابق العلوي حاجز بسياج حديدي، صعد السلم خائفاً، أمامه باب كبير أبيض، ليس به مزلاج. لم يعرف ماذا يفعل، لا يمكنه الدخول من دون مزلاج، وقف طويلاً، يشعر بالحزن، وفجأة انفتح الباب، وخرجت خادمة شابة بقفزة غريبة، كأنهم كانوا يطاردونها، كادت أن تقفز على رقبته.
– أبحث عن "أورتسي".
– بيبي؟ إنه بالداخل! حسناً، فلتدخل! ادخل!

أغضبه أن خادمة تتحدث معه بهذه الطريقة، دخل، ولم يقل شيئاً. غرفة جميلة جداً، دواليبها بيضاء لامعة، براقة، نظر حوله، أربعة أبواب تقريباً، لم يعرف أن يذهب في أي اتجاه. سمع ضحكات وراء ظهره، فالتفت، الخادمة تعامله بدون ذوق، تضحك عليه، تشير إلى الباب الموجود على الجانب الأيمن وهي تقهقه، وتقول:

– ادخل هناك، إلى اليسار، ليس إلى ذلك الاتجاه، إلى اليسار، ليس إلى ذلك الاتجاه، أقول إلى اليسار. أو أنني أريد أن أقول إلى اليمين.

أغلقت وراءها الباب، أمسك بالمزلاج المرتفع، فتح باب غرفة مظلمة ضغيرة، غرفة أخرى تطل على الشارع بابها كبير، كان مضيئاً ومبهراً. وقف في وسط الغرفة، سطه نور الشمس ساطعاً من الغرفة الكبيرة، فوق المنضدة شيء لامع مضيء، كأنه شمس أخرى، انبهر، سيدة شقراء تجلس على المنضدة، تضحك بصوت مرتفع، سمع صوت "أورتسي":

– قفزُ الحصان... قفزُ الحصان[10].

لم ينتبهوا إليه، ولم يجرؤ أن يقول أنه موجود، كانا يلعبان الشطرنج، كان يستطيع لعب الشطرنج؛ لأن العم توروك "Török" علمه ذلك شتاء العام الماضي. بعدها، وحتى يلاحظوا وجوده، قال بصوت منخفض:

– "أورتسي"!

سمعا الصوت، نظرا حولهما. كان يمسك دلفة الباب بيد واحدة، وقال مرة ثانية هامساً:

– "أورتسي"!

التفت "أورتسي"، ورآه، السيدة الشقراء أيضاً رأته، يقف مرتدياً معطفه الشتوي، مستنداً إلى دلفة الباب، يهمس، فانفجرت السيدة ضاحكة، جرى "أورتسي" إلى الخارج نحو "نيلاش"، وقال له:

– مرحباً "نيلاش"، كنت ألعب الشطرنج مع أمي.

صافحا بعضهما البعض، وهز كل منهما يد الآخر بشكل أخرق، كان وجه "نيلاش" متوهجاً، الرياح تداعب وجهه، هناك رياح دائمة بجوار مدينة الطلاب والمسرح في دبرتسن، وكان يمشي هائماً على وجهه في هذين المكانين.

– اخلع معطفك.

خلع معطفه الذي حاكته أمه له، مبطن بطبقة من القطن الطبي، كان مثل اللحاف، لم يكن جميلاً. أخرج المعطف مع "أورتسي" إلى الصالة، وقاما بتعليقه سوياً هناك، وضعا عليها القبعة الصوفية الجديدة، ثم دخلا الغرفة، لم يشاهد "أورتسي" أمه فيها.

– اجلس، تحت أمرك!

كان "أورتسي" يتحدث دائماً بهذه الطريقة البغيضة: تحت أمرك، وكلمات من هذا القبيل.

جلس "نيلاش"، وقال:

– هل اعتدت المذاكرة هنا؟

– نعم، هذه غرفتي أنا.

أغضب هذا "نيلاش" الصغير: غرفتي أنا! لماذا هي غرفته؟ هو الذي بناها؟

– ها كتبي، وها لعبي، وها أدوات الرياضة البدنية الخاصة بي.

لم يرَ "نيلاش" شيئاً فالغرفة مظلمة، ولم يكن يدخلها الضوء إلا من الغرفة الأخرى، ثم نظر لأعلى، إلى السقف، تعجب منه، يالها من غرفة عالية! كان يعتقد أن الغرف عالية السقف لا توجد إلا في الفصول وسكن الطلبة. سقف الغرفة في منزلهم منخفض جداً، فعندما ترفع أمه الفأس عالياً يصطدم بألواح السقف الخشبية، والعوارض والدعامات كذلك، يلمسها إذا مد يده للأعلى. تمنى أن يكون سقف منزلهم أعلى قليلاً، لأن نشارة الخشب تتطاير وتتركز في الغرفة الضيقة حين يقوم أبوه بصنع هياكل المزالج في الشتاء داخلها. لن يحكي عن هذا كلمة واحدة هنا؛ حتى لا يقع في حرج كبير. ولن يخبرهم أن أباه يقوم بصنع الزلاجات في الغرفة، رغم أن هذا شيء جميل جداً وجيد، فللنشارة الطازجة رائحة طيبة، ويمكن اللعب

بها على الأرض، ولا يخافون من شيء، أما هنا فيجب الحرص على كل شيء، ويعتقد بأنه لا يمكن للأخ أن يلعب مع أشقائه في هذا المكان، فسأل "أورتسي":

– ألديك إخوة؟

رد "أورتسي" بذهن مشتت وهو يحضر كومة من الكتب إلى المنضدة:

– أخ كبير.

كان للكتب غلاف أحمر، مطبوع عليه: "Kis lap"[11]. فتح "أورتسي" أحدها، وأراه مقالاً كتبه. عنوانه: "روائع صيفية"، حكى فيه "أورتسي" عن إجازته، وأنه ركب الخيل في مزرعتهم، وعنده كلب يسمى هَكتور "Hektor"، وسعادته بهذا الكلب لا تعدلها سعادة. حدق "نيلاش" إلى المقال بحسد وقد تسارع نبضه:

– أنت كتبت هذا؟

– أنا.

– بنفسك؟

– بالطبع.

– هل هذا أمر أكيد؟

– نعم.

استغرب "نيلاش"، فتقدير "أورتسي" في فن الكتابة هو الثاني، كيف يكون هذا ممكناً.

– فلتقسم!

– أقسم بالرب.

إذن هو الذي كتبه. لم تفارق عينه ما كان مطبوعاً تحت المقال: "فيلموش أورتسي" "Orczy Vilmos"، "فيلموش أورتسي"، "فيلموش أورتسي". قالها في نفسه مرات عديدة، ونظر إلى هيئة الحروف التي كُتب بها Orczy Vilmos. يا إلهي، لو قلب صفحة واحدة، ربما وجد: "ميهاي نيلاش" "Nyilas Mihály"... اضطرب، لم يستطع الانتباه لشيء آخر. كان يشتري كراسات فن الكتابة من أجل ذلك، بعضها من مزاد أقيم في سبتمبر، لديه كراسة يعتبرها كتاب نسخ فيها الأشعار والقصائد. مثل الفلاح المغفل، وقصائد أخرى كثيرة، كتبها بحروف صغيرة مثل أجنحة الذبابة حتى تتسع كراسته لقصائد أخرى. ثم تخيل كتاب "روائع صيفية" مطبوعاً، ومكتوب على الغلاف اسم "أورتسي فيلموش". قال "أورتسي" عندما لاحظ اهتمام "نيلاش" الصغير بهذا الأمر:

– حصلت بسببه على ألبوم بسلك مزين.

وأخرج كتاباً كبيراً براقاً غلافه ذهبي وأحمر، فتحه، كان فيه التاريخ كله، لم يكن مثل الكتاب الذي في دُرجه. تاريخ المجر بأكملها، جميع الملوك والأبطال والعظماء، تألم نيلاش، لن يكون عنده مثله أبداً، ولن يملك مالاً يستطيع أن يشتري به مثل هذا الكتاب. ينظر تارة إلى الاسم المطبوع في الصحيفة، وأخرى إلى كتاب الملوك السميك. سُمع صياح أنثى:

– بيبي!

همس "أورتسي":

– تعالَ يا "نيلاش"، أمي تناديني.

يشعر "نيلاش" بأنه يعيش في حلم. دخلا الغرفة الأخرى، وجدا الأم الشقراء، قال "أورتسي" وهو يشير إليه:

– "ميشي نيلاش".

ضوء شديد، أشعة الشمس مسلطة على عينه، وقف بدون أن يتكلم، تقف الأم بجوار منضدة صغيرة عند النافذة بعيداً عن رقعة الشطرنج، نظر إليها متعجباً؛ كانت جميلة للغاية، شعرها أشقر فاتح مثل لون شعر "أورتسي"، خطر بباله أنه كان عليه أن يقبل يدها.

– هل أنت "ميشي نيلاش" الصغير؟
صوتها رقيق كطائر، وصوت أمه يشبه رنين الكؤوس عندما تتقارع، ولكن شعر أمه طويل جداً، وعندما تحله يغطيها تماماً، ولا يرى شيء من وجهها وصدرها على الإطلاق.
– أنت الصديق الصغير لولدي؟
ابتسم بانزعاج، فلا يذكر أنه تربطه علاقة صداقة "بأورتيس".
– نجلس سوياً على مقعد واحد، هو الأول وأنا الثاني.
ضحكت السيدة بطريقة غريبة، نظرت إليه بجدية، ثم فتحت عينها بشدة، وقهقهت، لم تعرف بماذا ترد، وبعد زمن سألته:
– هل تحب ابني؟
نظر "نيلاش" إلى "أورتسي"، يفكر إن كان يحبه أم لا، لم يتفوه بكلمة، فقالت السيدة:
– هل اعتدتما أن تتعاركا؟
فتح عينيه على وسعهما، أصبحت مستديرة، يحدج السيدة متعجباً؛ فلم يسبق له أن تعارك مع أحد، من المؤكد أنها حسبته شخص آخر. ينظر لملابسها باستغراب، رغم أن أمه تحيك الملابس للفتيات والسيدات الشابات في القرية، وتخيط البلوزات والمآزر للفتيان، تطرزها باللون الأبيض، ولم يسبق له أن رأى مثل الملابس التي ترتديها، وكأنها مرسومة وليست سيدة حقيقية، أو أنها مرسومة بشكل حقيقي.
– ألم تعتادا التشاجر؟
انزعج الولد الصغير وارتبك، من المؤكد أنها خلطت بينه وبين أحد آخر.
– اسمحي لي، لقد كان لانج "Láng"!
– من؟
– الذي طرحه أرضاً.
تفاجأت السيدة، وصاح "أورتسي" منزعجاً:
– لم يطرحني أرضاً! أمي، روحي، كان ذلك لعباً فحسب.
خجل "نيلاش"، فقد قال شيئاً لم يكن عليه أن يذكره، تلعثم:
– لم أرَ ذلك بشكل جيد؛ لأنه كان هناك الكثير من الأشخاص.
صاح "أورتسي":
– كان ذلك لعباً فحسب، لعبة "الكوم صغير يريد المزيد". كنا نلعب هذه اللعبة، يا أمي! لكن "نيلاش" لم يعتد اللعب، ولا التشاجر، لقد اعتقد أننا نتعارك.
عمّهم الانزعاج والاضطراب، فسألت "نيلاش" حانقة:
– وهل اعتاد ابني ذلك؟
فرد التلميذ الصغير:
– لم يعتد "أورتسي" على ذلك.
رمقته السيدة بحدة، ثم أخذت تقهقه، وصاحت:
– من؟ "أورتسي"؟!
– نعم "أورتسي".
وانفجرت ضاحكة، وتقول بصوت خفيض:
– بابا، بابا، بابا... تعالَ!
كادت أن تفقد وعيها من كثر الضحك، انفتح باب الغرفة المجاورة، خرج منها رجل طويل ذو لحية مثل الرؤساء الحقيقيين،

قالت السيدة وجسمها يرتجف من القهقهة:
– ابنك "أورتسي"!
نظر السيد الطويل بصرامة إلى التلميذ الصغير:
– ما اسمك؟
شعر أنهم أصبحوا خصوماً، يتجمعون عليه، عبس بوجهه الصغير النحيف وقطب حاجبيه الكثيفين، ولم يرد.
– يا هذا، أنت صديق ولدي الصغير!
وابتسم ووضع يده على رأس التلميذ الصغير. ثم قال:
– هل هذا الذي تحدث عنه الأستاذ "جيراش"؟
– نعم يا أبي.
– رائع! فتى صغير جدير بالاحترام.
– اسمع، لقد اعتادوا ضرب ابنك مثل الجزر.
– كلا يا أمي، يا قلبي، كلا!
صاحت السيدة وهي تقهقه:
– أنصت يا "أورتسي"!
– الأمر ليس كذلك يا أمي، لم يكن شجاراً؛ بل لعباً.
– "أورتسي"! لا تتكلم!
لم تتوقف الأم عن الضحك وبدأ الأب يضحك أيضاً، ثم صاح:
– دعيهم يضربونه، سيصير عظمه أشد صلابة!
أصيب "نيلاش" الصغير بصدمة.
– التلميذ الذي لا يتعارك لن يصير شيئاً. حسناً، فلتلعبوا!
رأى "نيلاش" الصغير السيد الرئيس محقاً. لم يكن عنده أية فكرة عن وضع والد "أورتسي"، فعندهم مزرعة، وحصان والكلب هَكتور. عندما كانوا في الصف الأول سمع أحد يقول أنه رئيس، من الممكن أن يكون هذا شيئاً مهماً جداً وسرياً. خرجوا بعدها ودخلوا الغرفة، أعجبته إحدى ألعاب "أورتسي"، شمع لصنع التماثيل، حمل "أورتسي" الشمع إلى المطبخ، أذابه وعاد إلى الغرفة، صنع تمثالاً.
– هذا جوته "Geothe".
– جوته "Gőte"؟
وضحك "نيلاش" الصغير.
– نعم.
– ومن يكون هذا؟
– ذلك الألماني.
– إنه ليس ألماني وإنما مجري، ولا يعرف كلمة واحدة من الألمانية.
– من؟ جوته؟
– نعم.
وضحك بشكل زائف. وقال "أورتسي" باندهاش:
– إنه أكبر شاعر ألماني.
– شاعر! إنه حفار للقبور عندنا، جوته "Gőte" العجوز.

هو حافر القبور عندنا. وضحك بصوت مرتفع على مزحته، وخطر بباله جوته "Gőte" العجوز، السكير، حفار القبور. وأخبر "أورتسي" عنه والذي بدأ يضحك.

– أما الآن فسأصنع شيلر "Schiller".

– شيلر "Schiller"؟ هل ستصنع نبيذ شيلر "Siller؟

ضحكا كثيراً.

– حسناً، إذا كنت ستصنع شيلر "Siller"، فليشربه جوته "Gőte" إذن!

راقت لهما هذه المزحة بشدة. ذهب أورتسي مسرعاً إلى أمه يخبرها بالمزحة ثم عاد.

– تعلم ماذا تصنع؟

– ماذا؟

– بتوفي؟

– لا يمكن صنع هذا! ليس هذا بالأمر اليسير.

لم يسأله التلميذ الصغير ماذا يعني ذلك، عليه أن يعرف قصده، سأله أورتسي بعدها:

– لدينا هنا كل أشعار بتوفي، هل أريك إياها؟

— لدينا أيضاً. قرأتها كلها.

– ماذا؟

– أشعار بتوفي.

توقف "أورتسي" أثناء العمل، بينما كان يصنع شيلر "Schiller"، ونظر إليه.

– كل أشعاره؟

– نعم.

نظر إليه "أورتسي" متشككاً. ثم واصل العمل. عندها أتى شقيق "أورتسي" الأكبر، كان قد رآه ذات مرة في مدينة الطلاب واقفاً في الفناء مع رئيس الغرفة. كان لطيفاً جداً، لكنه لم يأبه به كثيراً، وسرعان ما خرج من الغرفة. قال له "أورتسي":

– "هنريك" "Henrik"، هل تعرف أن جوته يشرب شيلر؟

ابتسم "هنريك" وقال:

– نكتة جيدة.

ثم خرج، أمتع "نيلاش" اللعب بالشمع، ولكن له رائحة منتنة، كما أنهما لوثا المنضدة، عاد "أورتسي" يسأله:

– هل قرأت أشعار بتوفي كلها؟

– كلها، نعم، قرأتها كلها لأمي العام الماضي، ولنفسي أيضاً.

لم ينظر "أورتسي" ناحيته، وبدأ يمسد التمثال، سأله نيلاش عن "الروائع الصيفية":

– هل كتبتها بنفسك؟

– تلك؟ نعم، لكن أخي الكبير كتب فيها.

– أخوك الكبير؟

– نعم.

تفاجا التلميذ الصغير عندما سمع هذا.

– لكن أبي قال أن ما كتبته أنا هو الجيد، يمكن الضحك عليه.

زاد استغراب "نيلاش" الصغير:

– هل يمكن كتابة شيء مضحك؟
بعدها نادوا عليهما لتناول وجبة خفيفة. وضعوا الطعام لهما فقط، أعطوهما شوكولاتة، أكلها بصعوبة؛ لأنها حلوة بشكل مثير للغثيان، لم يأكل شوكولاتة من قبل، وجرب أكل هذه لأنه استحى أن يتركها، خشي أن يقولوا عنه أنه غير لبق، وفكر فيما قد يعتقدونه عنه. اعتاد أن يشرب القهوة بنصف مكعب سكر، والقهوم التي قدموها له تحتوي على الكثير من السكر، كان الكعك لذيذاً جداً، اعتقد أن بإمكانه أن يأكل منه اثنتي عشرة قطعة، كان يأكل بارتياح إلى أن دخلت والدة أورتسي، وجلست بجوارهما، بعدها لم يأكل قطعة أخرى.
– شكراً جزيلاً، لا أريد.
– كيف ذلك؟ إنهم لا يصنعون كعكاً في سكن الطلبة، خذ قطعة واحدة يا بني.
– شكراً جزيلاً، لا أريد.
– إذن فلتأخذ معك قطعة أو اثنتين، ستأكلهما لاحقاً في سكن الطلبة.
– شكراً جزيلاً، لا أريد.
لا يمكن تغيير رأيه، إن قال أنه لا يريد فإن الأمر انتهى. في أحد الأيام في منزلهم تناول المعجنات ونهض من الغداء، عندها دخلت أمه بالفراخ المشوية. عاد أشقاؤه للجلوس حول الطاولة وبدؤوا الأكل، أما هو فلو شطروه نصفين ما كان ليأكل لقمة واحدة بعد أن قام من على الغداء شاكراً.
– حسناً، إذن ستأكل كومبوت لاحقاً.
لم يكن يعلم ما هذا، تبين أنه فاكهة محفوظة. اعتادت أمه أيضاً صنعها، في كل صيف تصنع خمسة أو ستة زجاجات، وأحيانا عشراً، أكلها، لم يكن فيها سكر! لذيذة جداً، رائعة، أكل قطعتين.
– ألا تريد يا "بيبوتسي"، ألا تأكل يا بني؟
"بيبوتسي"! سمعها اليوم بعد العصر مرتين، لكنه لم يأبه بها حتى ذلك الحين: "بيبوتسي"! تخيل أن يدعوه بطريقة مشابهة في منزلهم فشعر بالامتعاض، حينها سمع أصواتاً، علم أن ضيوفاً يزورونهم، شعر بالفزع، فتيات صغيرات يشبهن الصور التي في مجلة الفتيات "Lányok Lapja"، ما كان سيصدق أنه سيرى فتيات حقيقيات مثل فتيات المجلة. لم يقمن بتحيته، رغم وقوفه، وقام "البيبوتسي" بمصافحتهن، من بينهن فتاة سمينة شعرها أصفر، شدته، بيضاء مشربة بحمرة، يتدلى شعرها الأصفر على كتفها ويلمع مثل ذهب حقيقي. نظرت إليه فجأة، عينها رمادية، خاف، عيناها كبيرتين جداً، التقت النظرات، احمرّ خجلاً، خارت قواه، ارتجفت ركبتيه، لم يستطع أن يتفوه بكلمة، ولاحظ نمشاً حول أنف الفتاة. فهمس "لأورتسي" أنه سيغادر.
– إذن سأصطحبك إلى الخارج.
خرجا إلى الغرفة الأخرى. خطر بباله أنه لم يقبل يد والدة "أورتسي"، لا عند مجيئه، ولا الآن، توقف، سيعود لتقبيل يدها حتى لا تأخذ فكرة سيئة عنه، ما أن التفت حتى رأى الفتاة تحتضن الأم، تملكه الهلع، جرى ناحية الباب، سأله "أورتسي" مستغرباً:
– لماذا تجري هكذا؟
لم يرد، نزع معطفه بشدة، انكسرت الشماعة!
– أتخاف من الفتيات؟
– كلا، لا أخاف!
– إنني أمزح معهن!
عبس، ثم سأله "أورتسي":
– أليس لديك أولاد عم؟

– ماذا؟
– أعني فتيات في العائلة، بنات عم أو خال أو عمة أو خالة.
– لا.
– هل لديك إخوة؟
– إخوة؟
– نعم.
– بالطبع. نحن خمسة أشقاء.
– أقصد إناثاً.
– أخوات إناث، لا يوجد!
– متى سترزورني مرة أخرة؟
نظر إليه، أراد أن يقول له فلتأتِ أنت، لكنه خاف أن يأتي، فليس مسموحاً أن يأتي أصدقاء من الخارج إلى الغرفة إلا لرئيس الغرفة، خوفاً من أن يسرق الغرباء شيئاً من الغرف.هز كتفه، وخفض عينه، وتمتم بصوت خفيض قائلاً أبداً، ثم رف صوته:
– لا أعلم.
وصافح "أورتسي" بقوة. خرجت والدة "أورتسي" تحمل لفة صغيرة، قالت لابنها ضاحكة:
– هل يهرب صديقنا الصغير بالفعل يا "أورتسي"؟ ها هي لفة صغيرة، خذها معك، وليس مسموحاً لك بفتحها إلا في سكن الطلبة.
وضعت في يده اللفة الصغيرة، كانت خفيفة.
– أتمنى الآن أن تعود إلى حيث تسكن بسلام.
– لست ذاهباً إلى هناك.
– إلى أين أنت ذاهب؟
– للقراءة!
– إلى أين؟
– إلى سيد مسنّ أعمى أقرأ له الجرائد لمدة ساعة يومياً.
– حقا؟
– نعم.
نظرت الأم الشقراء الجميلة إلى الطفل باندهاش عميق. وقالت متلعثمة:
– و... نقود... و... يدفع... أم...
– نعم، يدفع! عشرة كرايتسارات!
– لكل شهر؟!
– لكل ساعة!
– ماذا؟ لكل ساعة.
حملقت في الولد الصغير متعجبة، لم يكن أحد يعلم شيئاً عن هذا الأمر، لأنه لم يجرؤ على إخبار أحد بذلك في الصف، لذلك حملق فيه صديقه الصغير ولم يقل شيئاً. وقالت الأم:
– هل سمعت يا "أورتسي"؟
ضحكت، فنزلت دمعة على وجنتها. شعر التلميذ الصغير أنها لا تسخر منه، خرج، وبدأ يضحك من السعادة عند

المسرح، اندهش المارة منه، تذكر أنه لم يقبل يد والدة "أورتسي"، سواء عند الدخول أو الخروج، رغم أنه كان يقبل يد الخالة "توروك" والخالة زوجة "فاشارهاي" "Vásárhelyi"، أما هذه السيدة فقد كانت رقيقة جداً لدرجة أنه لم يجرؤ على تقبيل يدها، ستأخذ فكرة سيئة عنه، هام في الشوارع لوقت طويل، ينتظر الساعة الخامسة أن تحين، يفكر في أمور كثيرة، إلى أن تذكر الفتاة الصغيرة ذات العين الرمادية، عندها ركض مثل الأرنب، لم يعلم إلى أين.

=

الفصل الرابع

عندما غادر منزل "أورتسي" داهمه القلق، وعندما وصل إلى ركن مجلس المدينة اشتعل وجهه كما لو كان يسير بجانب نار مستعرة. شعر أنه ذليل وضئيل جداً وجحش، خجل من نفسه: يا لها من حماقة. وعض قبضة يده ندماً لأنه لم يقبل يدها، وأن صاحبة الشعر الأصفر تلك... يعتقد أنهم سوف يتحدثون عنه في منزل "أورتسي"، سيخبرون الشقراء أنه ألقى التحية عند الباب قائلاً: "أورتسي". بصوت خفيض وهو مستند على دلفة الباب الخشبية،كان يعتكره ما قاله بخصوص ضرب "أورتسي"، احتقر نفسه فحاول أن ينقذ كبرياءه، فسبّ صديقه: ياله من متباهٍ! تباً لغرفته! لديهم أشعار بتوفي! ارتاحت نفسه قليلاً، لأن صديقه أراد أن يتفاخر ببتوفي، وأن لديهم كل أشعاره، فتفاجئ عندما أخبره أنهم في بيته يملكون ذلك أيضاً. لقد كان غارقاً في صراع نفسي تتلاطمه أمواجه، مشاعره مختلطة؛ غيظ واستياء وحزن وحنق، من المؤكد أنهم يتحدثون عنه الآن، و"أورتسي" يسخر منه أمام الفتاة؛ لأن زميله بارع في الإضحاك والسخرية، ويقلد مدرس الغناء بصورة مضحكة وهو يقوم بضرب الإيقاع بقفاز أبيض.

يركض، إلى حيث تأخذه قدماه، يركض فقط، لا يقصد مكاناً بعينه، ودّ لو يتوقف عندما حسب أنهم يضحكون عليه الآن، لأنه غادر مسرعاً من أمام الفتيات، وأنه ليس لديه فتاة جميلة وتذكر ما تفوه به "أورتسي" من حماقات بشأن ذلك. مازال الوقت مبكراً، الساعة الرابعة، لن يمكنه أن يذهب إلى العجوز، ود لو يمر الوقت بسرعة، تذكر الفتاة، وعينها الرمادية. لكن لماذا هي كبيرة لهذه الدرجة؟ جذّ في الركض، كلما تذكرها زادت سرعته، يركض كالمجنون، اختنقت أنفاسه، حينها أفاق مما كان به، بعدما سمع صوت "لانج"، يسأله:

– إلى أين تركض؟

ارتبك، ركض لخطوتين أخريين، توقف، تساءل عن سبب تواجد "لانج" هنا، رد عليه:

– يجب أن أسرع لألاقي السيد الأستاذ "جيراش".

– "جيراش"؟

– "جيراش".

التقت نظراتهما، كان "لانج" يحدق فيه كما يفعل دائماً، وكأنه يريد أن يصفعه، نظر إليه بنفس الطريقة! فلوح "لانج" بيده أنه فهم الأمر. حسناً. ثم بدأ يتفحص ملابسه، حذاءه وقبعته، كان بوده أن يسأله عن سبب ذهابه إلى المعلم "جيراش"، فلم ينبس، لأنه لم يكن يحب المعلمين أو التحدث عنهم. افترقا، واصل السير. يتساءل عما يريده "لانج" منه، لم يسبق له أن تحدث معه، ولو بكلمة يتيمة، تمنى أن يسأله عن سبب ضربه "لأروتسي"، وما تفاصيل المشاجرة، خسر "أورتسي"، وخدع أمه بأن قال لها أن الأمر بسيط وكانوا يلعبون، مسكينة أمه الطيبة، سهل خداعها، يبدو أنها تصدقه في كل ما يقوله، لا تعلم الشقراء أن ابنها تبادل الصفعات مع "لانج"، إنها؛ لأنه... ثم اغرورقت عيناه بالدموع، أخرج منديلاً من جيبه، كان حينها بجوار الكنيسة، دخل الحديقة مسرعاً، جلس على دكة حديدية بجوار شجرة حزينة، وبدأ يبكي. بكى طويلاً حتى أصبح منفطراً ولين مثل الزبد، دموعه تنهمر. أدار ظهره لمدينة الطلاب حتى لا يراه أحد، احتاج هذا البكاء منذ وقت طويل بالفعل، لينفس عن كبته، لديه أمور كثيرة يفكر بها، وليس لديه مكان يبكي فيه أو يكون فيه مع نفسه، يشعر أن الناس دائماً يحملقون فيه، دقت الساعة مرتين، ود لو يحين وقت زيارة المسنّ، ولكن الوقت مازال طويلاً له، مسح عينيه بمنديله المبلل باللعاب، وانطلق في صمت.

قرصه البرد، حلّ الظلام، أُشعلت مصابيح الشوارع، تهتز شعلات الغاز الصغيرة كالفراشات. دخل إلى السيد المسن يرتعش من شدة البرد، أسنانه تصطك ببعضها، لم يستطع القراءة، تلعثم، فانفجر باكياً، سأله السيد المسن عما به.

– لا شيء.

شعر بأن السيد المسن يشبهه، فما دام قد قال لا شيء فلن يسأله عن شيء بعدها، ولأنه لم يستطع القراءة قال:

– اليوم بعد الظهيرة كنت في ضيافة أسرة زميلي بالصف الدراسي...
أنصت السيد المسن.
– وهناك... هناك...
– عاملوا حضرتك بشكل سيء؟
– لا، لكنني... هؤلاء سادة كبار...
– سادة كبار!؟ من هؤلاء؟
– لكنهم لطفاء... لطفاء جداً، لكنني... أسرة "أورتسي"، بجوار المسرح، رئيس...
بعد صمت طويل قال السيد المسن بهدوء:
– ووالد حضرتك؟ ماذا يعمل والد حضرتك؟
– حطّابا؟
– حسناً.
فكّر السيد العجوز لبرهة من الوقت ثم أردف:
– حرفة جيدة.
فرح بهذا. لأنه أمر جيد.
– هل لديكم منزل؟
– منزل صغير.
– وبقرة أيضاً؟
– لا.
– ولا خنزير؟
– لدينا خنزير صغير.
أنصت السيد المسن.
سأله فجأة بدون تعظيم[12]:
– وكم لك من الأشقاء؟
احمر وجه الولد الصغير كالجمر؛ لأنه كان فخوراً بأن السيد المسن يتعامل معه بجدية مثل الكبار وكان يتحدث إليه دائماً بصيغة التعظيم.
– خمسة.
– خمسة؟ ذكور، إناث؟
– نحن خمسة ذكور.
– هذا جميل! إذن أبوك سيد كبير، بخمسة ذكور يمكنه قلب الدولة.
ابتسم التلميذ الصغير بحرج وتوتر، لو سمع والده هذه الجملة سيفرح، لكنه تساءل عن سبب عدم تعظيم المسن له، كيف يجرؤ على ذلك! هل سيستمر فيه، لن يأتي مرة أخرى إلى هنا.
– عندما كنت صغيراً كنا نسكن في قرية أخرى، ونمتلك منزلاً كبيراً مبني من الحجر، ولدينا الكثير من الأبقار، يمتلئ بها حوش المنزل، في أحد الأيام حملني والدي ووضعني على ظهر ثور مخصي، قلت له: ثور مخصي لا[13] ا... في ذلك الوقت كان عندنا آلة بخارية، لكنها انفجرت وانتقلنا للعيش في قرية أخرى وأصبح أبي حطّاباً.
كان عليه أن يبوح بهذا، شعر أنه يجب عليه أن يقول هذا، وأكمل:
– أنا أكبر أشقائي الخمسة، وخالي يعمل مدرساً في براتيسلافا الآن، وأبي هو من عمل على تعليمه قبل ذلك.

خيم صمت طويل، ود أن يتحدث أكثر، لكنه خجل، أخرجه صوت السيد المسن مما كان فيه:
– حسناً، تفضل حضرتك وواصل القراءة.
ابتسم التلميذ الصغير، دق قلبه الصغير بشكل غير منتظم من السعادة، المسن يكلمه بصيغة التعظيم مجدداً. قال في نفسه: "لم أعد صغيراً حيث يمكن مخاطبتي مجرّداً"، لن يسمح لأحد أن يكلمه مجرّداً بعد ذلك، أراد أن تكون له مكانة بين الناس، لن يذكر أمام أحد أن أباه حطّابٌ، كم هو محظوظ أن أم "أورتسي" لم تسأله عن ذلك، كان سيعترف لها، يشعر بالتناقض، لأنه يفخر بأبيه أيضاً، فعلاقته طيبة مع كل من في القرية، بما فيهم السادة، وقد أمن له سروالاً فخماً ليرتديه في المدرسة، يتذكر أسلوب أبيه في الحديث مع القساوسة والمعلمين والجميع: "السيد المحترم"، "السيد الأستاذ". كما سمعه يقول للقاضي: "أيها السيد الوقور، كيف حالك؟" لكنه كذب بشأن منزلهم، فلم يكن مبنياً من الحجر، سمع ذلك في الصف الدراسي من فارجا "Varga" الكالّوشماييني[14] حيث تحدث عن منزلهم حجري وأثار هذا دهشته وإعجابه. قال بأنه لا مشكلة في ذلك، فماذا يهم الأعمى مم هو مصنوع بيتهم. قرأ الجريدة بسرعة، بانتعاش وشجاعة، ولم يتوقف حتى الساعة السادسة، أسرع مثل مطحنة حجر صغيرة. وما أن دقت الساعة قال السيد المسن:
– فلنترك البقية إلى الغد!
شعر أنه قرأ اليوم قدراً أقل من الأيام السابقة، لبكائه والحديث الذي أجراه معه، فقال:
– عفواً، يمكنني أن أواصل القراءة.
قال المسن:
– ستتأخر حضرتك إذن عن سكن الطلبة.
– لا، أرجوك سيد "بوشالاكي"، إنهم يدقون الجرس عند السادسة والربع.
– إذن بسرعة، اليوم تأخرنا خمس دقائق.
– لا، عفوا يا سيد "بوشالاكي"، بل نصف دقيقة فقط.
لكن المسن لم يكن له مزاج للاستماع، كان يتحرك في جلسته باضطراب.
– سأحلم اليوم بالليل بشيء ما مجنون مرة أخرى مثل الليلة الفائتة.
– بم حلمت حضرتك؟
هز المسن رأسه يميناً ويساراً، وهدأ مرة أخرى مبتسماً وقد صفا مزاجه، وبدأ يسرد حلمه:
– حلمت بأن قطة كبيرة أمسكتني، وكنت كدودة صغيرة في فمها، ورأيت فأراً يسبح في الماء، ثم تحول إلى سحابة كبيرة، تبعته بنظري. ثم وجدت نفسي آكل شطيرة بالجبن القريش، ورأيت هورتوباج بالكامل مبذورة بالبازلاء، ثم أصبحت ثوراً كبيراً، وتركت الشطيرة هناك، ثم وجدتني أرعى من مزرعة البازلاء، لم أتحمل هذه أبداً، البازلاء! حسناً، هذا ما رأيته في حلمي، لم أنسه حتى الصباح، فصحوت وأنا أشعر بضغط في معدتي.
ضحك الولد الصغير كثيراً.
– لقد أخبرت عاملة النظافة أيضاً بذلك بالفعل– ضحك السيد المسن أيضاً–، وقد فسرته وفكت شفرة الحلم: قطة: 85، سحابة: 73، شطائر بالجبن القريش: 39، ثور: 45. حسناً، شيء ما تخلف: ذلك هو الماء: 22. رقم سيء، إنها النهاية! الحلم بالماء أمر سيء؛ لأنه يعني الموت في الأسرة.
أمسك الطفل ضحكاته:
– لكل شيء رقم؟
– نعم، لليانصيب الصغير.
اليانصيب الصغير! لقد سمع عنه، في بلدته اعتاد الفلاحون دائماً القول: لقد خرج رقم اليانصيب الخاص بك. قال المسن:
– انظر حضرتك، سأقول لك شيئاً، فلنفعل ذلك. نرجو توفيق الرب، سنضع في اليانصيب عشرة كرايتسارات كحد

أقصى. هناك على ركن المنضدة يوجد عشرة كرايتسارات فضية، دوّن حضرتك هذه الأرقام، اذهب غداً إلى دكان السجائر الكبير، ثم ضعها في اليانصيب. وإذا فزنا سيكون نصفها لحضرتك. دعنا نصبح أغنياء. أو كما قلت حضرتك: سادة كبار! سادة كبار!

ضحك على ذلك بشدة حتى آلمه بطنه، أعجبه الأمر، وأخرج قلماً رصاصاً وسجّل الأرقام. أملاه العجوز الرقم مرة ثانية، ولكنه استبعد رقم الماء، وقال له:

– هذه العشرة كرايتسارات، "سيد بوشالاكي"؟

– دعها، إنها موضوعة لقهوة الصباح، يوجد هنا ورقة نقدية بقيمة فورنت، لو أردت إوزة فلتكن سمينة.

أعطى له فورنتاً ووضعه التلميذ الصغير في جيبه، وبينما كان يرتدي الولد معطفه، تكلم السيد المسن:

– ليسوا سادة كبارا! إذا كان لديهم! رئيس! هو رئيس تنظيم تيسا؟

خفض التلميذ الصغير رأسه، عليه أن يتذكر أسرة "أورتسي" مجدداً، جُرف في تيار الخزي الأسود مرة أخرى. وصل مدينة الطلاب، فكر في اللفة الصغيرة التي كانت تضايقه ويحملها تحت إبطه، فتحها في الممر المظلم، بها كعك ومخبوزات، إن أخذها إلى الغرفة.... وقف، أكلها كلها بسرعة عند نصب قبر البروفسور "هاتفاني" "Hatvani" حيث يخلو المكان من المارة. رن جرس مطعم سكن الطلبة إعلاناً لجاهزية وجبة العشاء، دخل المطعم، كان العشاء بازلاء مع سجق، فضحك، سأله "ميهاي شاندور" الذي كان جالساً بجواره عن سبب ضحكه.

– كانت هورتوباج بالكامل مبذورة بالبازلاء.

– ماذا؟

– لا شيء.

وقال "ميهاي شاندور" مازحاً:

– هذا ليس كثيراً.

قال "ميشي" بجرأة:

– غداً سأضعه في اليانصيب.

حملق فيه "ميهاي شاندور".

– ماذا؟

– لدي هنا فورنت، سأضعه غداً في اليانصيب.

قال "ميهاي شاندور" للآخرين:

– إنه يتحدث بعشوائية.

حسدوا التلميذ الصغير لكسبه النقود، بينما لا يستطيع بعض الكبار. شعر بالخجل.

– يجب عليّ أن أقوم بذلك غداً.

– لمن؟

– للسيد العجوز!

– في اليانصيب؟

– أجل.

بدؤوا في تناول الطعام، البازلاء دقيقة وصغيرة، طاب له طعم السجق، ولم يعجبه الخبز البني، كان حامضاً وطعمه متعفن، أراد أن يفتح حواراً مع "ميهاي شاندور" ليصالحه:

– لماذا هذا الخبز متعفن هكذا؟

– إنه ذو رائحة منتنة! دائماً رائحته منتنة؛ لأنهم يخبزونه من دقيق منتن.

مساء، لم يكن له مزاج للمذاكرة، نظر في الكتاب، صورة الفتاة ذات العين الرمادية لا تفارقه إن أغلق عينيه، عيناها الرماديتان تحدقان به، ورأسه يؤلمه من البكاء، داعب النوم أجفانه في الغرفة الدافئة، تغمض عيناه، خرج إلى الممر لينتعش، ينتحي في جانبه إن أراد الاختفاء عن أعين الآخرين، يختفي خلف الحائط الخشبي المرتفع، يغلق الباب ويجلس لوحده، ترتاح نفسه عندما يكون وحيداً، وكأنه ليس في دبرتسن أصلاً. رائحة غريبة قوية مزعجة، الجدران مطلية بكربول وردي اللون.. طرق على الباب، نهض مرتعداً يتساءل:

– ربما نام في الداخل؟

– بالطبع.

– "نيلاش" نام بالداخل.

نام ولم يشعر بنفسه، يخشى أن يسخروا منه، فتح الباب وركض إلى الغرفة، جلس بجوار المنضدة التي كان عليها كتابه وكراسته المفتوحين، يشعر بالنعاس والضيق وتداهمه رغبة في البكاء، أنقذه مما كان فيه رنين جرس الساعة التاسعة، خلع ملابسه بسرعة، نزعها نزعاً، لم يعرف كيف قام بنزع معطفه وسترته في مرة واحدة، واندس تحت الغطاء، شعر بدوخة، يطير من السرير، العين الرمادية تحملق إليه، لم يستطع الابتعاد عنها ولم يرد ذلك، ارتاح للنظر إليها، وجهاهما متقابلان، حرك يده تجاهها، وما أن كاد أن يمسك بشعرها الأصفر نام. أحلام غريبة، يجري في حديقتهم الموجودة على شاطئ نهر تيسا مع صاحبة العين الرمادية، لعب معها كثيراً، حولهم بلورات جليدية تتبخر. استيقظ، ود لو لم يصحُ من حلمه، في المدرسة الابتدائية حلم جوجيكا[15] "Zsuzsika"، ولم يخبر أحداً بذلك. استمر خدره الغريب هذا لأيام. في يوم الاثنين كان "أورتسي" لطيفاً معه، انتظره أن يقول بأن الفتيات شعرن بالأسف لمغادرته، وأمه أيضاً، ولم يقل شيئاً من ذلك. ودّ أن يسأله عن الفتيات، ولم يكن يملك الشجاعة لمجرد التلميح فقط، ماذا سيقول عنه؟ في استراحة العشر دقائق ذهب أورتسي واشترى قطعتين من المخبوزات. أكل إحداهما وقدم الأخرى له:

– تفضل!

أحرج "نيلاش" مما فعله، لأنه دفع القطعة إليه.

– لا أرغب فيها.

– لماذا؟

– لست جائعاً.

هز "أورتسي" كتفه وأكل القطعة الثانية. بهذا حسم الأمر بينهما، لم يتحدثا عنه بعدها. سأله "جيماشي" في حصة اللغة اللاتينية:

– هل كنت عندهم؟

احمر وجهه وأشار أن نعم. نظر إليه "جيماشي" بفضول، بدا عليه أنه يرغب في سماع شيء ما، لم يقل شيئاً. همس له في نهاية الحصة:

– قال السيد الأستاذ "جيراش" أنه يتحتم عليّ الذهاب.

سأله "جيماشي" متفاجئاً وهو ينظر إلى المعلم:

– هو؟

رد "ميشي" بوجه أحمر:

– نعم.

لم يتحدثا عن ذلك بعدها، لكنه شعر أنه مدين له بالتفسير، كان هناك احتفال مدرسيّ يوم الثلاثاء بذكرى أحد المؤسسين الذي ترك عشرة آلاف فورنت لسكن الطلبة، وتم إعفاؤهم من حصص بعد الظهر، سأل "جيماشي":

– هل يمكنني المجيء عندكم بعد الظهر؟

– بالتأكيد.
ذهب إليه بعد الظهر. لم يزرهم منذ وقت طويل، قبل يد الجدة، ثم جلس مع "جيماشي"، رسم طيوراً بألوانه بجوار النافذة الكبيرة الضخمة، واستمرا في الرسم طوال فترة ما بعد الظهر، ثم قال:
– عند أسرة "أورتسي" يمكننا صنع تماثيل.
– تماثيل؟
– من الشمع.
شرح له الأمر، أحب "جيماشي" ما قاله، ذكر أنه سيكتب لأمه حتى ترسل إليه شمعاً لصنع التماثيل، لم يكن قد سمع عن أمه قبل ذلك، كانا يعيشان[16] وكأنهما الوحيدان في العالم كله. كانت مفاجأة حقيقية أن "جيماشي" ذكر أمه بهذه السهولة. لم يجرؤ أن يسأله، لكنه فكّر كم أن "جيماشي" هذا ولد مختلف، وإلى أي مدى هو ولد جيد، وأنه صديقه الحقيقي! يحبه بشدة، كما أنه أصغر وأضعف منه بدنياً، إذا ما تشاجرا بالفعل، كما أنه لا يعلم الدروس أفضل منه، ومتخلف عنه بمستوى، ومن المؤكد أن أمه ليست ساحرة شقراء، وإنما سيدة بنية، جادة، عادية، باختصار كان يحب أن يقبل جيماشي أيضاً كأخيه، وأن يقول له:
– نحن صديقان.
سأله "جيماشي"، ووضع ألواناً جديدة في وعاء الألوان:
– هل كان التواجد عند أسرة "أورتسي" أمراً جيداً؟
– حسناً، إنه متباه، أوه.. بل ليس متباهياً، ولكن....
لم يعرف ماذا يقولً، وعوج فمه فحسب. كان "جيماشي" ولداً ذا بشرة رقيقة، عينه سوداء دقيقة بها حَوَل، ولم يكن له حاجب ولا رمش، فمه صغير جداً وجميل، كان صغيراً مثل فتاة صغيرة، لكنه ولد شجاع للغاية. لم يكن جميلاً مثل "أورتسي"؛ لأنه كان أكبر منهما جسمانياً ولم يكن بديناً، فهو أشقر يرتدي ملابس فاخرة، وشعره ذهبي، لكن أنفه مدبب، أنفه قصير أقنى قليلاً، مثل زهرة برعمة لينة، ذات رائحة طيبة. إذن فنيلاش و"جيماشي" كانا ذوَي جسم صغير مسكين نحيف مقارنة بـ"أورتسي"، خاصة "نيلاش"، يعلم أنه نحيف جداً وجلده أصفر وحاجبه أسمر، صوته غليظ، فمه كبير، أسنانه كبيرة، لم يكن يجرؤ على الضحك؛ لأن أسنانه صفراء، وكانت أسنان "جيماشي" دقيقة وطويلة، أما أسنان "أورتسي" فقد كانت مثل اللؤلؤ. يقولون أنه يقوم بغسلها كل يوم، أما هو فلم يكن يستطيع تصور كيف يمكنه غسل الأسنان. ولم يكن أمامه سوى أن يغسلها بالصابون في ماء الحوض؟ وكان ذلك أمراً مكروهاً، قال:
– خطر بذهن "أورتسي" مجدداً...
– ماذا؟
أراد أن يقول شيئاً سيئاً عنه بخصوص أنه قدم في مسابقة وفاز. لكن لِمَ يقل شيئاً سيئاً عن "أورتسي"؛ فقد كان لطيفاً معه دوماً، بل إنه شعر أن "أورتسي" نفسه يعلم أنه لا يستحق المركز الأول، ولذلك كان لطيفاً. كما أنه لم يكن يعلم ما وجه تحفظه ضده، فقط كان يود أن يكون مميّزاً عنه؛ في أن يكون له ملابس وغرفة وكتاب أجمل، وكذلك أقارب فتيات ذوات أعين رمادية وشعر أصفر، قال فجأة؛ لأنه كان يخشى أن يعرف "جيماشي" الحقيقة:
– عندهم فتيات كثيرات قبيحات.
قال "جيماشي" وقد توقفت الفرشاة في يده:
– حقاً! فتيات؟
– نعم.
– فتيات صغيرات؟ مثلي؟
– نعم.

– كثيرات؟
– الكثير والكثير.
– كم، ثلاثون؟
ضحكا بصوت مرتفع وانفعال:
– لا، لم يكن هناك ثلاثون، لكن كان هناك كثير منهن.
قال "جيماشي":
– صديقي!
– لكنني غادرت.
– غادرت؟
– نعم.
– عندما أتت الفتيات؟
– أينعم.
– كم أنت بقرة!
ضحك على ذلك، تلطف إليه.
– هل كنت ستغادر؟
– أكاد أفقد عقلي!
اعتاد "جيماشي" قول هذه الأشياء الجيدة دائماً.
– ماذا كنت ستفعل هناك إذن؟
استقام "جيماشي" واقفاً من على الألوان، نظر إلى وجهه لوقت طويل وانفجر في الضحك. يعلم الرب فيم فكّر، كان يضحك فحسب.
– كنت سأوجه إليهن لكمات!
قهقه ميشي بصوت مرتفع:
– نعم، كما اعتدت فعل ذلك، بالرأس.
– بالرأس إذن!
خرج "جيماشي" من عند جانب المنضدة، أخذ يركض في الغرفة كما اعتاد في المدرسة، موجهاً رأسه إلى الأمام، ثم صدم "ميشي" صدمة قوية، بالرأس، قهقه "ميشي" ووقع على الأرض ساقطاً على ظهره، لكنه استمر في القهقهة، حينها انحنى "جيماشي" عليه وبدأ يلكمه.
– أتضحك، أتضحك؟
وأخذ يدلكه مثل العجين، ضحك بصوت مرتفع وترك نفسه تماماً؛ لأن قوته ضعفت من شدة الضحك، عندها دخلت الجدة:
– ماذا يجري هنا؟ ماذا تفعلان هنا؟
أقلع "جيماشي" عن المصارعة وجرى لمواصلة الرسم والتلوين،. نهض "نيلاش" من على الأرض بخجل، قالت الجدة بصرامة:
– إنني لا أحب هذا! مثل هذا اللعب! لايوشكا ليس معتاداً على مثل هذا!
خفض "جيماشي" رأسه، شحب وجه "نيلاش"، ثم احمر تدريجياً. يبدو الأمر وكأن الجدة تحمله هو مسؤولية إفساد حفيدها، أصبحت صارمة جداً، وأخذت تعمل في الغرفة بغضب. قالت:
– إياكما أن تفعلا مثل هذا الأمر مرة أخرى، هل فهمتما؟

أخفض "جيماشي" رأسه إلى وعاء الألوان، جانب وجهه محمر قليلاً، أما وجه "نيلاش" اكتسى باللون الأحمر الغامق، يرتعد من الخجل، قالت الجدة بشكل أكثر صرامة:

– الأولاد المهذبون لا يفعلون مثل هذا. الأطفال المهذبون عندما يحلون ضيوفاً يمثلون أنفسهم بشكل جيد.

نظر "جيماشي" إلى جدته مندهشاً متفاجئاً، قال بجرأة:

– أنا الذي قمت بدفعه!

– هذا أمر أكثر خزياً، فلتخجل من نفسك! أوضح لك بما يكفي، لست طفلاً صغيراً لهذه الدرجة، يجب أن تعرف بمَ أنت مدين لاسمك، لن تستفيد شيئاً من هؤلاء المتشردين اللاعبين بحماقة، هل تريد أن تكون بلا قيمة هكذا مثل... هذا الشخص السيء؟ فلينظر المرء...

بهذه الكلمات خرجت السيدة العجوز ذات الجسم الصغير الذي كان وجهها مليئاً بالتجاعيد بشكل لم يره أحد من قبل، كما كان أصفر منالكِبر، وأنفها كبير ومليء بنقاط سوداء. صمتا لبعض الوقت. كان "نيلاش" مجروحاً بشدة. كان الأمر بأكمله لا شيء... ولم يكن يستحق هو هذا... رسم "جيماشي" ببغاء، وقال بسخط:

– لقد ضعفت قدراتها العقلية، ليس جديراً الاستماع إليها.

تفاجأ التلميذ الصغير من هذه الكلمات، كانت له جدة، ولم يجرؤ على قول مثل هذا الكلام عنها، بالنسبة له كان كل ما تقوله الجدة مقدساً، ومهما كان ذلك فهو غير محق؛ قال وهو متفاجئ، مهدئاً "جيماشي":

– اسمع!

– بل هو كذلك، وسأقول لها ذلك أيضاً.

وصار "جيماشي" غاضباً مثل الفلفل الأحمر، جفت عيناه وتوهجتا، وأخذ يتكلم بحدة حتى كاد يختنق.

– لست طفلاً صغيراً يسيل مخاطه، عندما كنت في الصف الأول كانت تقوم بتوبيخي بدون سبب، لكني أعلم بالفعل من أين تهب الرياح!

خمن "نيلاش" وجود سر عائلي ما وراء حياتهم، يخشى أن يبوح به "جيماشي" في غضبه؛ لذا أراد أن يصرف انتباهه عن الأمر بحزم متهور.

– انظر: تذكرة يانصيب.

نظر "جيماشي" بعينيه المبتلتين باضطراب إلى قطعة الورق الصغيرة التي وضعها أمامه، سأله متذمراً:

– ما هذا؟

– يانصيب.

فتح "جيماشي" عينيه، وفمه مفتوح.

– ما هذا؟

– وضعت هذه الأرقام الخمسة في اليانصيب.

بدأ "جيماشي" يضحك، أمال رأسه إلى الخلف، وضع كفيه على بطنه، ضحك بتشنج بدون صوت لوقت طويل.

– وضعتها في اليانصيب؟

– نعم.

– صديقي، لم أضحك على شيء مثل هذا من قبل. أنت وضعتها في اليانصيب؟

ثم ضحك بشدة حتى أنه سعل بعدها، اختنق من شدة الضحك، أصبح الأمر فجأة غريباً، أنه وضع نقوداً في اليانصيب.

– وسوف تفوز؟

– لا أعلم.

– وإذا كسبت عشرة فورنتات ماذا ستشتري بها؟

– ماذا؟ حسناً، سأشتري سكيناً.
– سكيناً؟ أيّة سكين؟
– أيّة سكين! سكيناً ذا مقبض لؤلؤي، على شكل سمكة...
وفكّر في سكين "بوسورميني"، هناك خلف صندوق القمامة.
– صديقي، ليت لي عشرة فورنتات!
– ماذا ستشتري بها؟
– سأرسل خمسة منها إلى أمي.
أصبح "نيلاش" الصغير محمراً كالجمر؛ إنه لا يفكر في أمه؟
قال "جيماشي":
– وسأنفق خمسة في محل الحلويات.
لم يستطع "نيلاش" قول شيء، لكنه لن يفعل هذا. محل الحلويات: على أي شيء ينفقها، المرة الماضية عندما خرج من عند أسرة "أورتسي" انتبه إلى نافذة عرض محل الحلويات، لكن لم يخطر بباله أن يشتري قطعة منها. على أي شيء: على المسرح نعم، وقال:
– إذا فزت سيكون نصفها فقط من حقي؛ لأنني يجب أن أعطي نصفها للسيد المسن.
قال "جيماشي":
– لذلك الكسيح المسن؟
قال "نيلاش" مجروحاً:
– ليس كسيحاً.
– حسناً، اليوم أنا أسمي كل العجائز هكذا فقط: عجوز، إذن كسيح.
وضحك "جيماشي" بصوت مرتفع؛ لأنه مازال لم يقتنع بأن يضع أحد ما نقوداً في اليانصيب.
– هو أعطى المال لذلك؟
– نعم.
– عشرة كرايتسارات؟
– لا.
– اثنين؟
– لا.
– بل أكثر؟
– أعطاني فورنتا!
قال "جيماشي" مذهولاً:
– فورنتا! صديقي، كسب فورنت يكفي أيضاً!
وبدأ يضحك مرة أخرى.
– لم يكن لديّ فورنت واحد يمكن أن أتصرف فيه حسب رغبتي، لا تعطيني جدتي في يدي كرايتسارين حتى أخصصهما لما أريد.
– لدي ستة وعشرون كرايتساراً.
– ستة وعشرون
– أو بالأحرى واحد وعشرون؛ لأنني أنفقت خمسة مرتين على بوليصة الشحن، وأنفقت على الخطاب اثنين.

– لو أن لي عشرين لاشتريت بها ستة شطائر حلوى بالكريمة، واحدة لك، واحدة "لأورتسي"، واحدة لـ"طانينباوم" "Tannenbaum" واحدة لجدتي، واثنين لي.
ضحكا كثيراً على ذلك.
– "أورتسي" فاز بألبوم تاريخي مجري.
– فاز به؟
– نعم، حكى أجازته في مقال "روائع صيفية" الذي كتبه، وقاموا بطباعته عند العم "فورجو" "Forgó" في صحيفة "Kis Lap" ولذلك فاز.
– قاموا بطباعته؟
– نعم.
– ما كتبه "أورتسي"؟
– نعم.
بدأ "جيماشي" مرة أخرى في الضحك بلا صوت، لكنه الآن أصيب بالفواق بالفعل في نهاية الأمر، وقال:
– قاموا بطبع الأخطاء الإملائية أيضاً؟
قال "نيلاش":
– قام شقيقه الكبير بتصحيحها.
– شقيقه الكبير، ذلك الطويل؟
– نعم، كتب "أورتسي" المقال، هو من كتبه لكن شقيقه الأكبر أيضاً كتب فيه وصوّبه.
نظر "جيماشي" بريبة إلى "نيلاش"، وقال:
– إنك تستطيع.
– ماذا؟
احمر وجه "نيلاش"؛ لأنه أحس بالفعل أنه ارتكب فعلاً سيئاً بإخباره هذا الأمر.
– تستطيع جيداً إلقاء التهم على الآخرين.
سكت "نيلاش" منصتاً، وقال "جيماشي" وهو يهز رأسه:
– لدي فضول عن ماذا ستقول عنا إذا غادرت من عندنا.
صار لون "نيلاش" الصغير أحمر كالسرطان، ثم نزل الدم إلى قلبه، جلس مترنّحاً على الكرسيّ؛ يشعر بدوار الصّدمة. ونظر إلى "جيماشي" بيأس، ظهر "لجيماشي" صمته ووجهه الفزِع، قال وهو يهز كتفه:
– يمكنك أن تقول هذا عني.
ود "نيلاش" أن يصيح ويصرخ: "أنا لا! لن أقول أنا شيئاً سيئاً عنك حتى لو قطعوني إرباً؛ لأنني أحبك." لكنه لم يقل بعدها سوى:
– تعتقد ذلك عني؟
أصبح الصمت حرجاً للغاية، جلس بجانب المنضدة لوقت طويل، وكان "جيماشي" يرسم باضطراب، ثم قال "جيماشي" بصوت منخفض من أنفه:
– من أين تعرف أنت هذا إذن؟
وجّه "نيلاش" نظره إلى النافذة، كان ممكناً النظر إلى الشارع جيداً من النافذة؛ لأن قاعدتها كانت تحت أرجلهما، أراد أن يقول بتحدٍّ:
– أنه اختلق ذلك ويقوله هكذا فحسب! لكنه لم يكن قادراً على الكذب، لا هكذا ولا كذلك.

– أنت اختلقت ذلك؟
هز رأسه أن لا.
– تحدث إذن، لا تضايقني! لا تغضبني؛ وإلا سأوجه لك لكمة في بطنك في الحال مثل المرة السابقة.
خفض "نيلاش" رأسه على المنضدة وانفجر في البكاء بصوت مرتفع.
– لقد ضربت بسبب ذلك أيضاً.
صار "جيماشي" عصبياً، وأخذ يعبث بالفرشاة، تناولها في فمه، أصبح طرف فمه أحمر من اللون القرمزي، وقال:
– يالك من بقرة كبيرة.
وبدأت عيناه تتوهجان.
– متى قلت أنا عنك أمراً سيئاً؟ هل تستطيع أنت قول مثل ذلك عني؟
– حسناً، لقد قلت مثل ذلك عن أسرة "أورتسي".
– لأنه تحتم عليّ الذهاب إلى هناك؛ أمر السيد الأستاذ "جيراش" بذلك، وقال لوالدي "أورتسي" ذلك. أرادوا أن يروني حتى يضحكوا عليّ ويسخروا مني فحسب، ووضعوا في جيبي كعكاً كطفل صغير، و... لذا غادرت؛ لن أذهب إلى هناك أبداً!
نظر "جيماشي" إليه متفاجئاً، مثلما نظر إلى جدته من قبل، وشرع في الرسم والتلوين مجدداً، وقال:
– فلتبكِ إذن، أنا لا أبالي ببكائك.
حينها وضع الفرشاة، وذهب وهو متسخ إلى الإبريق وملأ كوباً من الماء وأحضره "لنيلاش".
– تفضل، اشرب!
كان "نيلاش" متفاجئاً، لم يتوقع هذا السلوك الطيب من أحد قبل ذلك، ولم يحدث معه من قبل، شَرِبَ.
– اغسل عينك، لو دخلت الجدة الآن ستقضي علينا في الحال.
غمز "نيلاش" اصبعه في الماء ومسح عينه بأصبعه المبتل، نظر إلى صديقه ورأى فمه. كان مطلياً باللون الأحمر حتى ذقنه عندما وضع الفرشاة الملونة في فمه، فانفجر في موجة من القهقهة، وقال له:
– فلتغسل أنت.
– لماذا؟
– انظر إلى فمك.
ذهب "جيماشي" إلى المرآة ونظر فيها.
– أووو، كم يبدو فمي جيداً!
رجع إلى المنضدة وقام بتلوين طرف فمه الآخر باللون الأخضر من وعاء الألوان الآخر.
– الآن أبدو جيداً بالفعل، ماذا؟
وبدأ يقفز كالمهرج، ضحك الاثنان كثيراً. سرعان ما انتبه إلى أن الظلام قد خيّم عليهم، إذن عليه أن يذهب للقراءة عند السيّد المسنّ. في اليوم التالي في المدرسة ضحك مع "جيماشي"؛ لأنه تم توزيع الاختبارات في حصة اللغة المجرية وحصل "أورتسي" على التقدير الثاني. كان "أورتسي" مجروحاً وألقى الكراسة كأنها ليست كراسته. في هذا الوقت تحدثوا كثيراً عن التحذير المدرسي. لم يستعلم عنه، لكنهم قاموا بإعطائه مبكراً في الفصل (أ) كالعادة، أتوا إلى السكن ذات مرة مساء بخبر مفاده أن "بوسورميني" حصل على تحذير مدرسي ولفت انتباه في مادتين. شعرت بالشماتة فيه، لم يأبه بأن "بوسورميني" حصل على إنذار مدرسي، يجب أن يحدث هكذا معه، كان غاضباً منه بسبب السكين. لم تخطر بباله الأشياء التي ارتكبها "بوسورميني" ضده، لم يكن يعرف بالفعل ماذا حدث، هناك الكثير من الأمور الدقيقة، وكلما رآه يتذكر السكين الموجود خلف صندوق القمامة؛ ولهذا لم يستطع التحدث معه ولا مصادقته ولا مسامحته.

رغم أنه منذ أن أصبح يكسب نقوداً، لم تصل "لبوسورميني" حتى الآن لفة ولا مال، منذ ذلك الحين أصبح يسير وراءه، يود أن يضيف نفسه بكل سرور عند بائعة الأغذية بالأسفل، رغم أنه كان مجرد تلميذ بالفصل (ب)، وسيتحدث تلاميذ الفصل (أ) بعد ثلاثين عاماً أيضاً مع تلاميذ الفصل (ب) متسائلين: "كيف أمكن الذهاب إلى الفصل (ب)؟"

بعدها، في ذلك اليوم بعد الظهر، قاموا بتوزيع الإنذارات المدرسية في فصلهم أيضاً. سلموها لتلاميذ الفصل من المقيمين في المدينة حتى يأخذوها إلى منازلهم ويقوم آباؤهم بالتّوقيع عليها، أما الريفيون فقد قرؤوا الإنذارات الخاصّة بهم؛ وقاموا بإرسالها من مكتب المدرسة. لقد شعر بثقلٍ في القلب لبعض الدقائق، لم يعتقد إلى هذا الحين أنه من الممكن أن يحصل هو أيضاً على إنذار مدرسي في وقت ما حتى يكون من الجيد الانتباه والاحتراس؛ لأنه يقف على حافة المستوى الثاني غير الكافي، لكن الإله يعلم ماذا سيحدث، عندما سمع أسماء الدارسين السّابقين المجيدين في الصف الأول أصاب سهم قلبه، وخطر بباله كم هو مقصر: اليوم أيضاً لا يفهم أصل أسماء الفعل المصدرية اللاتينية، الحمد لله، لم يذكر اسمه ضمن من قد وُزّع عليهم الإنذارات. لكنه لاحظ في خلال ثلاثة أو أربعة أيام شيئاً مقلقاً في حصة اللغة اللاتينية. السيد الأستاذ "جيراش" كعادته، كلما مر بجوار "أورتسي" تفقّده وتلطّف إليه، لكنه الآن نظر إليه كثيراً.

يجرحه أن السيد الأستاذ يعامل "أورتسي" بشكل مختلف، وقد تأكد لديه بأن الأستاذ يزور أسرة "أورتسي" باستمرار، منذ ذلك الحين وهو لا يتعجب من أنه متحفظ لهذه الدرجة. وقد لمس شيئاً جارحاً؛ أن يسعى الأستاذ إلى التحدث مع أورتسي بنفس الصوت الذي يتحدث به مع الأولاد الآخرين. فمن المؤكد أنه يناديه في المنزل "بيبوتسي": إذاً لماذا يناديه هنا "بأورتسي"؟ كان يشعر أنه لا يمكن أن يكون هناك علاقتان من نوعين مختلفين بين شخصين: إذا كنت على علاقة طيبة بشخص ما،ف يجب أن أكون على علاقة جيدة معه على الدّوام وبشكل منتظم. إذ لو كان خاله "جيزا" "Géza" مدرساً في دبرتسن بالصدفة ويقوم بالتدريس له، لناداه هنا "بنيلاش"!

فليكن السيد الأستاذ على علاقة طيبة "بأورتسي"، فهو لا يفعل ذلك مع الغرباء،وما المشكلة أن يكون معه كذلك، لأنه كان أيضاً على علاقة مع أسرة "أورتسي" بالفعل. وليكن كذلك مع "جيماشي" أيضاً، هو أخ جيد له، وليكن أيضاً مع شانطا الذي هو أفضل متعلم. توقف عند "طانينباوم"، فأمره استثنائي، ومنزلهم في القرية، وهو يهودي لا يعتد به بين الآخرين، لكن الوضع مختلف في مدينة الطلاب، إن "طانينباوم" أذكى من الجميع. كان يفكّر في مثل هذه الأمور طوال الحصّة، عندما نادى المعلم في نهاية الحصة:

– "نيلاش".

وقف فزعاً؛ فلم يكن منتبهاً، لم يكن يعلم عم كان يدور الأمر.

– تعالَ إلى غرفة المعلمين بعد الحصة!

لم يتكلم بعدها، جلس، انتظار قصير. همس في الفصل، ينظرون إليه، ربما لاحظ الفصل لأول مرة. حتى ذلك الحين كان على علاقة ما مع هذين الولدين فقط، ومع الاثنين التاليين أو الثلاثة، احتراماً وتقديراً لهم، يذهب إلى المدرسة كأنهم هم الخمسة الموجودون فقط، مقعده بجوار الباب مباشرة، عندما يدخل الفصل يجلس مباشرة، لم ينتبه إلى الفصل إلا قليلاً، مثل انتباهه للأعشاب والشجيرات في المرج. رن الجرس، بقلب ضائق منقبض وبدون قبعة ومعطف هرول وراء المدرس، عليه أن ينتظر كثيراً في الصالة. دارت الإنذارات المدرسية في ذهنه، قلبه منقبض، كاد أن يغمى عليه، قد يكونون أخبروا أباه بالفعل. يقف على حافة المستوى الثاني غير الكافي، يا إلهي. سيقومون باستبعاده من المقعد الأول أيضاً، ربما ينقلونه إلى مكان آخر في الخلف، ولن يجلس بجوار "أورتسي"، ولن يكون بإمكانه مصادقة "جيماشي" أكثر من ذلك، فهم لم يقوموا بدعوته إلى أسرة "أورتسي" لأنه ولد جيد فقط وليس طالباً جيّداً، أو لأنه هكذا لشخصه على ما هو عليه؛ لقد ذهب إلى بيت "أورتسي" بسبب شهادته، ولن تسمح والدة "جيماشي" أبداً أن يصادق ابنها متعلم ضعيف المستوى.

أحس بظلم كبير، عصفت داخله أكبر قسوة للحياة، رأى نفسه معزولاً عن المكان الثاني. كل ما حصل عليه حتى الآن لم يكن هو مقصوداً به لشخصه، وإنما لذلك المكان الذي يجلس فيه بالفصل. فلا يهم من يجلس هناك. إنّ من تخصه تلك

الشهادة سيحصل على السكن مجاناً؛ سكن الطلبة المجانيّ، المنحة، اهتمام رئيس الغرفة بشكل خاص، اهتمام المعلمين، تقدير السيد "ناج"، ذلك الذي حصل على عمل القراءة من خلاله عند السّيّد المسنّ، وفي هذه الدقيقة كانت في قلبه صرخة يائسة: تمسك بذلك المكان.

انتابه الدوار عندما كان واقفاً في الصالة، وجهه باهت، قلبه يخفق بقوة، فُتح باب غرفة المعلمين، شاهد السيد الأستاذ "جيراش" واقفاً يدخن، ثم تمشى، بملابسه الفاتحة الأنيقة، يتحدث باهتمام منحنياً إلى الأمام، ولم يخرج إليه. فما الذي يستحقه التلميذ الفاسد والمنزلق الذي سيحصل علىإنذار مدرسي؟ دخل السيد الأستاذ "باتوري" مرتدياً جاكيتاً محبوكاً على جسمه، بني اللون، ونادى عليه:

– من تنتظر هنا؟

نظر إلى الصوت الجامد مفزوعاً، بدأ يُحرك فاه، لكنه لم يصدر أيّ صوت، نطق أخيراً بصوت منخفض:

– السيد الأستاذ "جيراش".

لم يقل السيد الأستاذ "باتوري" شيئاً، دخل غرفة المعلمين. أعاده الصوت القوي للمدرس إلى وعيه، كان على وشك الإغماء، تذكر أباه الذي لن يفزع بالتأكيد من خطر أكبر. حسناً، إذا كان الأمر يتعلق بإنذار مدرسي، فليكن كذلك، ثار فيه تحد: إذا كان هو الأخير فليكن آخر أخير. كل هذا سواء. حينذلك سيكون مقدار ما يعلمه وما لا يعلمه سواء، مهما كانت الدرجات الدراسية التي يعطونها له، وإذا حرموه من المنحة الدراسية فسيعود إلى بلدته ويحرث أرض الجزر، شهق شهقة كبيرة عميقة مريرة؛ في العام الماضي أغمي عليه عندما كان يحرث، الإغماءة لم تكن واضحة؛ لأنه أحس بدوار فحسب، وكان سعيداً أنه استطاع أن يتحمّل ذلك، وأن الدم هبط من وجهه وأصاب العرق جسمه بالكامل، فأيقنوا بضرورة إرساله إلى "دبرتسن"، إلى مدينة الطلاب؛ لأنه لن يصير شيئاً في بلدته. خرج السيد الأستاذ "جيراش" من غرفة المعلمين، السيجار بين أصبعيه، وقف أمامه بانشراح تام، انحنى:

– أيها الصغير "نيلاش".

تناول السيجار في فمه وأخذ نفساً، تنبعث رائحة جيدة من ملابسه، سيجاره، رفع "نيلاش" الصغير عينه إليه وسعى إلى الانتباه بشدة قدر إمكانه.

– أخبرني، هل تقبل القيام بتعليم طفل؟

لم يرد عليه، انقلب العالم رأساً على عقب، اعتقد أنه سيطير، تبخر قلقه مثل الضباب، ووقف بشكل مستقيم ثابت وأنصت. ثم أومأ بعدها بالقبول.

– كل أربعاء وسبت بعد الظهر، يجب مذاكرة اللغة اللاتينية والحساب مع ذلك الولد الأرعن دوروجي "Doroghy".

– حسناً.

– كانت عندي شقيقته الكبرى، هم فقراء، أسرة كبيرة طيبة جداً، وهذا الضفدع الصغير يضيع الوقت، وغير قادر على التركيز.

– حسناً.

وقف المدرس، ونظر إلى باب مكتب المدير، خرج أحد ما من هناك.

– حسناً إذن، تحدث معه، واذهب إليهم اليوم بعد الظهر، سيدفعون فورنتين كل شهر.

استدار المدرس بهذه الكلمات ورجع إلى غرفة المدرسين. غادر التلميذ الصغير جرياً إلى مكان الامتحان، المكان المخيف، بأرجل مرتجفة. ينتظرونه في الفصل بفضول، لم يستطع أن يلم شتات نفسه إلا بصعوبة، جلس في مكانه بالمقعد، سأله "جيماشي":

– ماذا كان ذلك؟

– قال السيد الأستاذ أنه يجب عليّ تعليم "دوروجي".

استند بارطا "Barta" من المقعد الخلفي، وأتى "طانينباوم" أيضاً.
– هل ستقوم بالتدريس؟
– نعم، بهذا أمر السيد الأستاذ.
سأل "طانينباوم":
– وكم سيدفعون؟
– فورنتين.
قال" جيماشي":
– صديقي، ستصبح غنياً، ستكسب خمسة فورنتات شهرياً!
قال "طانينباوم" بجدية:
– لا يمكن التدريس مقابل هذا الأجر فقط، فورنتين.
سأله من الخلف "يانوش فارجا ""Varga János":
– كل يوم؟
– مرتين فقط كل أسبوع، الأربعاء والسبت بعد الظهر.
قال "فارجا":
– إذن يكفي.
نظر "ميشي" إلى "فارجا"، الولد الصغير الكالوشميني الذي يرتدي ملابس نظيفة، وقال يوماً أن لديهم منزلاً حجريّاً، واعتاد عقد صفقات، بدّل زراً مقابل كرة زجاجية، وشوكولاتة مقابل قلم، نظر "طانينباوم" إلى "فارجا" وقال:
– هذا أيضاً قليل. حتى إذا كان سيذهب مرتين في الأسبوع، هنالك أمر جوهري وهو أنه سيقوم بتعليمه، وما ذلك، فورنتان؟ تكلف الألوان خمسة كرايتسارات؟
رد "فارجا" على هذا:
– هذا أجر جيد جداً، أعرف تلميذاً بالصف الخامس يحصل على فورنتين نظير حصتين أسبوعياً رغم أنه بالصف الخامس.
– حسناً، لكنه لن يعطي حصتين، وإنما سيقوم بتعليمه طوال فترة ما بعد الظهيرة في هذين اليومين.
قال "فارجا" بحرارة:
– يمكنه أن يعطي حصتين فقط؛ لأن عليه أن يذهب لقراءة الجرائد الساعة الخامسة، ولو ذهب بعد الغداء سيصل هناك الساعة الثانية، وسيبقى حتى الرابعة، بعدها ستتوجب عليه المغادرة.
قال "طانينباوم":
– الأمر كذلك أيضاً حتى لو غادر الساعة الرابعة.
قال إمرا بارطا، الأقوى في الفصل:
– حقاً! "طانينباوم" محق!
وقبض يده، حينها تدخل ثلاثة آخرون، كان "أورتسي" يرتدي معطفاً شتويّاً، لأنه لن يحضر حصة الغناء التالية، لأنه كاثوليكي، قال بلين:
– أعتقد من جانبي أنني لو استطعت كسب فورنتين بمجهودي الخاص فسأحصل من أبي على حِجرٍ[17] بمائة فورنت كجائزة.
وضحك بصوت مرتفع لطيف وغادر، فلم يحمله أحد على محمل سيء، إنه لا يستطيع صنع شيء بشأن كونهم أغنياء.
استمع "ميشي" بتعب وإرهاق، لم يستطع أن يحكم على شيء من هذا كله. لم يعلم إن كان المبلغ قليلاً أم كثيراً، وإن كان لديه وقت لذلك؟ هل يستطيع القيام به؟ لم يعلم سوى أنه متعب للغاية، من الأفضل أن يضطجع؛ لأنه سيصاب

بالدوار في هذه الحصة. دخل "تشوكنياي" "Csoknyai"، مدرس الغناء، وقف التلاميذ، أسرع كل واحد إلى مكانه وجلسوا، التفت "ميشي" إلى الخلف يبحث عن "شاندور دوروجي"، لا يعرفه جيداً، كان يجلس في المقعد الأخير، لم يجده.

– من يكون "دوروجي"؟

التفت "جيماشي" إلى الخلف:

– ذلك الأحمق؟

عندما أعطاه المدرس ظهره رفع جسده يبحث عنه.

– ها هو يجلس هناك عند الشباك، في المقعد قبل الأخير، ذلك الأحمق!

عرفه، أجاب مرة بشكل غريب في الجغرافيا. سئل ذات مرة، أين تقع القسطنطينية. فأجاب بأنها في أفريقيا. لكنه بدا الآن أمامه كولد طبيعي يجلس عند الشباك.

– هذا ليس أحمق.

قال "جيماشي" بصوت منخفض وأسلوب قادح:

– أحمق، الذي يجلس هناك، هو أحمق بالنسبة لي دائماً.

أنهى المدرس الأسئلة وسيبدأ درساً جديداً، كان مدرس الغناء الأغرب بين المدرسين، وكأنه لم يكن مدرساً وإنما ضيفاً، مهذب جداً، يكرر دائماً: أرجوكم من فضلكم. ويلثغ: أوجوكم[18] من فضلكم. وبالطّبع لم يكن يفهم منه شيئاً. لم يطق الانتباه إلى نظام النوتة الموسيقية، وأن يعرف مفتاحاً موسيقيّاً واحداً فقط بشكل جيد، لم يستطع أحد كتابة مفتاح الكمان أجمل منه، ويستطيع غناء وأداء تمرينين أو ثلاثة، بالضبط مثل النوتة: É, f, é, d, – f, é, d, c! – d, d, g, f, – é, d, c, – tam, f, é, d, c.....[19]. هذه الـ "tam" كانت تعجبه، لكنه لم يكن يعلم ماذا تعني.

قال السيد الأستاذ "تشوكنياي"، البدين قليلاً، الأحمر:

– أرجو السكوت، أرجو السكوت، أوجووو السكوت!

ولوح لإنهاء نقاشهم، وشرع بعدها في التحدث عن السلم الموسيقي أو عن ماذا... لم يكن أمراً محجلاً عدم فهم ذلك؛ لأنه لم يكن يفهمه أحد في الفصل. ضحك "أورتسي" عندما وصفوا ذلك بالحماقة؛ كونه يستطيع العزف على البيانو والنوتة وهو أمر تافه بالنسبة له. كان "ميشي" الأفضل في الترانيم الدينية، ففي بلدته القروية لم يكونوا يقومون بشيء غير الترانيم. كان يعلم أنه "ليس لديه أذن موسيقية"، وكان هذا الأمر يُحزِن أمه بشدة؛ فالمسكين يغني بشكل رائع، وأبوه المغني الأول في القرية، ويتوجه إلى الكنيسة كل أحد ليقود الغناء والإنشاد بشكل جميل. تعلم هو الغناء قليلاً في الطاحونة ذات سقف القش. عندما كان يُسيِّر الخيل في طاحونة عائلة دروفت "Droft"، كانوا يطحنون قمحهم بحصان مستعار، يسوقه بكرباج صغير، ويجلس على العجلة الأفقية الكبيرة. يجلس في الطاحونة لوحده فترة ما بعد الظهر، ويغني في ضجيجها الجاري على وتيرة واحدة، وفجأة وجد اللحن، جلس يحلم على الأسلاك الطويلة لعجلة الطاحونة، أعجبه أن الحصان يسير بشكل أليف لطيف في مسار دائري. العصافير تشقشق بصوتٍ مرتفع، أما هو فكان يغني:

على سطح بالاتون متلاطمة الأمواج

يبحر فتى صياد بقاربه،

فارق الحظ شبكته،

وتركته حبيبته،

تركته المسكين

توصل بالصدفة إلى لحنه، أسعده الأمر كثيراً، وأصبح يغنيه باستمرار حتى المساء المتأخر، إلى أن يقوموا بإيقاف الطاحونة وفك الحصان منها. في ذلك الوقت كان أبوه يبني شونة جديدة في الفناء، عندما كانت الرافدات الخشبية موضوعة ومثبتة مع العروق الخشبية، مساء صيفي جميل، تسلق وبدأ يغني:

العلم الوطني ذو ثلاثة ألوان،
الثلاثة تسطع بشرف،
الثلاثة تظهر أنك مجري،
إذا كنت مجرياً، كن حراً!
الثلاثة تظهر أنك مجري،
إذا كنت مجرياً، كن حراً!
أمه تستمع، تستمع، خرجت ذات مرة من المنزل، نظرت إلى أعلى، ضربت كفاً بكف:
– هذا الولد يستطيع الغناء!
دعته للنزول، قبلته كثيراً، لم يكن يعرف شيئاً عن النوتات النصفية والثمنية والسادسة عشرية، لم يستطع فهمها، رغم أنه في اختبار الأصوات الغنائية أدخله المدرس بفخر في الفرقة الموسيقية كأعمق صوت طفولي، سعى السيد الأستاذ "تشوكنياي" المسكين إلى إرضائه، حتى كانت شهادته ممتازة، لكنه لم يستطع فعل شيء آخر معه، أعطاه التقدير الأول فحسب، ولم يمكنه إعطاؤه أذناً موسيقية، قرب نهاية الحصة، أدرك أنه لن يكون بإمكانه الذهاب اليوم إلى دوروجي؛ لأنه سيذهب إلى سكن الطلبة، وليس هناك وقت كافٍ بالفعل. في الساعة الثانية هناك حصص مدرسية، وفي الساعة الخامسة سيذهب لقراءة الجرائد، ثم يأتي العَشاء، بعدها في الساعة الثانية عشرة لا يسمح بالخروج من مدينة الطلاب، صاح على "دوروجي"، لأنه رآه يغادر متعجلاً:
– "دوروجي"!
صاح فارجا أيضاً:
– "دوروجي"، "دوروجي"!
اجتمع المجلس الاستشاري المدرسي، عرف بعض الأولاد أنه سيذهب إلى أسرة "دوروجي" يوم الأربعاء بعض الظهر، اضطرب "دوروجي" الصغير ولم يستطع التكلم مع "ميشي" إلا بصعوبة، وكان "ميشي" مرتبكاً أيضاً، لم يعلم أنه سيقوم بتدريس وتعليم شيء لأحد ما، رغم أنه كان يقوم بالتدريس والتعليم دائماً في المدرسة الابتدائية. ذات مرة ضربه السيد المدرس، كان غاضباً جداً، أخرج العصا وضربها على رأسه، لأن "كاروي دروفتي" "Drofti Károly" الذي كان مكلفاً بتعليمه لم يستطع الإجابة على سؤال، تورم رأسه كالبطيخة، غضبت أمه، صدفة كان الدكتور في القرية، فأرسلت أمه إليه لإحضاره. ذهب شقيقه الصغير الذي كان تلميذاً بالمدرسة، وكان عليه أن يمر أمام المدرسة في طريقه إلى مجلس المدينة. السيد المدرس واقف بالخارج، يبدو أنه ندم، نادى على الولد يسأله عن مكان ذهابه، فأخبره بكل بساطة أنه ذاهب لإحضار الطبيب؛ لأن رأس "ميشي" تورمت مثل البطيخة، أمسك الولد، وذهب معه لزيارة المريض.
يتذكر "ميشي" فزعه عندما دخل عليه المعلم، خجل من أن المعلم قد علم أن أخاه ذهب ليشكوه، جلس السيد الأستاذ وتحدث معهم، ولم يستدعوا طبيباً، وصار بعدها على علاقة جيدة بوالديه، وعرف أن أمه زوجة حطّاب وراهبة. وأخبر السيد المدرس أنه كان يريد أن يترهبن لكنه تزوج لعشقه فأصبح مدرساً، فكر "ميشي" الصغير قلِقاً إن كان سيُضرب مرة أخرى لأنه سيُعلِّم أحداً.

الفصل الخامس

تسكن أسرة "دوروجي" في منزل فلاحي كبير، في الطرف الأمامي من المنزل تسكن أسرة أصحاب المنزل في الخلف. كان المنزل مطلياً باللون الأبيض من الخارج، لكن من الداخل كانت الغرف ملونة، وقد جعلها هذا أكثر فخامة. كان لديهم غرفتان، كان للغرفة التي تقع على الشارع ثلاث نوافذ، اثنتان منها تطل على الشارع، وواحدة تطل على الحوش. وكان للغرفة التي تقع إلى الحوش نافذتان تطلان على الصالة.

كانا يتعلمان دائماً في الغرفة الداخلية، أي في الغرفة التي تقع على الشارع، بجوار المنضدة البيضاوية الكبيرة، وكان يجب إشعال مصباح دائماً في طرفها؛ لأن الوقت كان يقترب من ديسمبر والليل يدخل في خلال وقت قصير. كان هناك الكثير من الناس في تلك الشقة، فتيات طويلات، كبيرات، لكنه لم يستطع التمييز بينهن لمدة أسبوعين تقريباً. لم يكن يحب وجود نساء هناك بهذه الكثرة، ثلاث فتيات بالغات. كان يتميز من بينهن واحدة صغيرة، والتي كانت تقهقه دائماً، كان يكرهها بشدة بسبب ذلك. كانوا يلقبون "دوروجي" في المنزل بشاني، لم يكن يستطيع حتى الكتابة الصحيحة، ولم يكن يعرف أيضاً جدول الضرب، لم يكن يستطيع القراءة باللاتينية، كان يستشعر اليأس أن يقوم بتعليمه شيئاً ما.

كان سيكون أذكى شيء أن يخبر أبويه أو المدرس بذلك، لكن هذا الأمر لم يخطر بباله حينئذ. كان يعتقد أنهم لم يقوموا باستقدامه حتى يشتكي منه ويذكر مساوئه، وإنما ليعلّمه ما لا يعلم. هذا صحيح، ولكن كيف؟ كان إذا لم يعرف شيئاً يرجعه دائماً إلى الخلف بمسألة؛ لأنه إذا لم يعرف تصريف الأفعال فلنحاول إذن أولا بالفعل في حالة الرفع الأساسية، إذا لم يعرف الفعل في زمن المستقبل، فلنبدأ إذن قبل ذلك بالفعل المضارع. لكن تبين بعدها أنه لا يعرف حتى الفرق بين المضارع والماضي. شرع حينها في شرح ذلك له، موضحاً له أن للفعل ثلاثة أزمنة رئيسية لحدوثه.

لاحظ بعدها أنه لا يجهل أزمنة الأفعال وتصريفاتها فقط، بل لا يعرف تصريف الأسماء وأنواع الأسماء أيضاً. لذا عليه الرجوع للخلف لعام كامل، لأنه لم يستطع ترجمة (alauda volat… rana coaxat…) التي جاءت كأول درس في العام الماضي في مادة النحو، وعليه الاستعداد للغد، ولا يحب التكرار، يتساءل عن جدوى التكرار لأحد يجب أن يتعلم درس جديد كل يوم وهو لم يتعلم دروس العام الماضي أساساً، شعر باليأس، تعب من كثرة الأسئلة، لأنه كمدرس جيد بفطرته يفضّل أن يسأل عشرين سؤالاً على أن يقول شيئاً مرة واحدة، أراد أن يبذل جهده ويبنيه على أسس منطقية، لكن لم يكن هناك وقت ولا طاقة كافية لدى أي منهما، وقال بشكل عصبي:

– ماذا كنت تفعل عندما تعلمنا هذا؟

لم يجب "شانيكا" على السؤال، فبدأ يطرح عليه مزيد من الأسئلة ولم يجبه، يتساءل كيف لا يعرف أي شيء من الدروس التي قام المعلم بتدريسها باهتمام شديد.

– أخبرني ماذا كنت تفعل حينئذ؟

فكّر "شانيكا" ثم قال:

– حينئذ؟ حينها بالضبط أمسكت بأربع.

– ماذا؟

– أربع.

– أيّة أربع؟

– هذا شيء عظيم بحق، أمسكت بأربع ذبابات وربطتها كلها بخيط وبدأت تحرث!

استمع إليه المعلم الصغير بفم مفتوح.

– تحرث؟

– أنقّط قطرة صغيرة من الحبر، وعندما يمر عليها الذباب يحدث بها خطوط وأخاديد.

ضحك المعلم نفسه، وشجع هذا الماكر الصغير:
– وفي حصة الحساب أمر عظيم آخر، أمسك عنكبوتاً، الكثير منها في الفناء الخلفي عند الحمام، وأعد الأقواس التي رسمتها كل رجل.
– وفي حصة الجغرافيا؟
قال "شانيكا" بشكل مخادع:
– ليس هناك وقت لذلك، يجب الانتباه فيها.
– إلى أي شيء؟
– إلى أنه متى يمكن الضحك على "ناظو" "Názó" العجوز.
ضحك "نيلاش"، ثم عاد إلى جديته، ركز على التدريس، يعلم أن "شانيكا" ولد صغير نظيف جميل وجيد، درجته في التربية الرياضية تعلوه بعشر درجات تقريباً، رغم انكماشه وتواضعه اللذين يجعلانه غير ملحوظ، وليس لديه تحذير مدرسي في أيّة مادة. خلال أسبوعين جلست أخت "شانيكا" الوسطى معهم في الحصة، ارتبك "نيلاش" المعلم الصغير وشعر بالحرج لأنها تستمع إليه وتراقبه رغم أنها لم تتفوه بشيء، وتركز على القيام بعمل يدوي، ثم قالت:
– هنا يوجد ضوء أفضل من غرفة الفناء.
وبدأ "ميشي" يتحدث بصوت منخفض حتى لا يزعجها، وفي مساء آخر قالت الفتاة بأنها لم ترَ ولداً أغبى من "شانيكا"، فزع "ميشي" من ملاحظتها الصحيحة، شعرت الفتاة بالخجل وانكبت على عملها اليدوي، نظر إليها، كانت جميلة جداً، عينها سوداء تلمع كما لو كانت تضيء بشكل منفصل، بيضاء تتخللها حمرة، أكثر ما لفته فيها أسنانها ناصعة البياض كالبورسلين. لم يستطع "ميشي" قول شيء، تعجب من جمالها، فصاحت الفتاة ضاحكة وشعت أسنانها في ضوء المصباح، ورن صوتها كطائر صغير في قفص.
– ستقتل نفسك مع هذا الأحمق، لن أقوم بتعليمه حتى لو أعطوني لبن العصفور! لن أصبر على ذلك، إنه لا يعلم حاصل ضرب اثنين في اثنين حتى!
احمر وجه "نيلاش" الصغير بشكل رهيب كالعادة، وارتبك أكثر من "شانيكا" نفسه. قال ملتمساً عذراً له:
– لن يعلم ذلك إلى أن يعود ويذاكر دروس العام الماضي.
– يجب عليه إعادة المدرسة الابتدائية.
– لا، عفواً...
– مِمَّن تعلمت التدريس يا "نيلاش"؟
شعر أنه تهور بقبول تعليم هذا الولد، وخجل من ذلك.
– إنني أساعد "شانيكا" أن يتذكر، فهو يعرف ما أعرفه ولكنه لا يتذكر فحسب.
قالت الفتاة ووضعت يدها في شعرها:
– إنني لا أستطيع تعليم أحد في العالم.
شعرها طويل بني غامق، تسريحته شعثاء تليق عليها كثيراً، رد "ميشي" بحماس:
– لكن هذا شيء جيد.
– ماذا؟ التعليم؟
وبدت دهشة على وجه الفتاة مصحوبة بقهقهة.
– نعم، ليست هناك سعادة أكبر من تعليم أحد شيء ما لا يعلمه، ولا يوجد شيء خير من ذلك.
ارتبك لأنه قال أمراً كبيراً مثل هذا؛ فلم يكن معتاداً بالإدلاء برأيه في شيء، وهذه أول مرة يصرح بشيء ويعده حقيقة، وقالت الفتاة بعد أن مطت شفتيها، بأنها لا تستطيع تعليم أحد، ثم ضحكت مرة أخرى:

– ولا أحسن التعلم من أي أحد! عندما كنت أذهب إلى "دوتسي""Dóczy" كنت أعرف كل شيء، رغم أنني لم أنظر في كتاب ألبتة.
سأل الولد الصغير باهتمام؛ لأنه لم يكن يعرف تلك: المدرسة الثانوية:
– إلى أيّة مدرسة كنتِ تذهبين؟
– إلى "دوتسي".
– ما هذه؟
– ضحكت الفتاة بصوت رنان: "دوتسي"؟ ألا تعرف "دوتسي" أيضاً؟
اضطرب الولد الصغير واحمر وجهه واعتقد أن عليه أن يعرف كل شيء، فقالت الفتاة بابتسامة زائفة، ناظرة إلى الولد الصغير بشكل غريب:
– حسناً، سوف تعرفها خلال عامين.
اربتك "نيلاش"، شعر أنه سر بينهما، لم يستطع العودة إلى الكتاب ليستأنف الدرس، فليحفظه الرب من أن ينظر إلى الفتاة مرة أخرى. ضحكت الفتاة بصوت منخفض وأوقفت التطريز، فقطعت الفتاة الصمت:
– لم أتخيل أن هناك ولداً غبيّاً إلى هذا الحد مثل "شانيكا"!
رفع شاني عينه، لاحظ "ميشي" أنها مثل عين الفتاة، لامعة سوداء برموش طويلة، وقال "شاني":
– غبية! كان من الأفضل ألا تشتري مروحة يدوية يابانية.
احمر وجه الفتاة، ونظرت إلى المعلم الصغير فأدركت أنه لا يستطيع الرد، فقالت بهدوء:
– بما قاله فإنه لا يعدّ غبيّاً، هذا متبجح صغير يتصرف بوقاحة وقلة ذوق.
شعر المعلم الصغير بالحرج لشجار الشقيقين، ونظر إلى "شانيكا" ليحثه على السلوك القويم، فرد "شانيكا" بحدة:
– ستون كرايتساراً!
فقدت الفتاة هدوءها القليل:
– لم يبقَ سوى أن ينتقدني الأطفال السذج الذين يسيل مخاطهم.
– بل أنتِ التي يسيل مخاطها، تعلمين ذلك! امسحي أنفك.
– سوف أمسح أنفك أيها الوقح! انظرا، من الأفضل أن تتعلم حاصل ضرب ثمانية في سبعة! أنت مخزٍ! أهكذا يجب التحدث معي؟
لم يعرف "ميشي" ماذا يفعل فلم يرَ من قبل شجاراً بين أشقاء مثل هذا، يتشاجر مع أخيه الصغير وكان ولداً، فُتح الباب ودخلت "فيولا" "Viola"، الفتاة الكبرى، كان يلمحها قبل ذلك في الخارج، ترتدي ملابس سوداء كالروح الشريرة، نحيفة وحاجباها متصلان، صاح "شانيكاً" "شاكياً" شقيقته الصغرى:
— إنهم لا يتركوني أتعلم! لماذا يجب عليكم الإتيان إلى هنا عندما أذاكر؟
تحدثت الفتاة العانس إلى شقيقتها الصغيرة بحزم وصرامة، تطلب منها مغادرة الفناء، صوتها كالسكين، وأكمل "شانيكا" منتحباً أنها تتدخل في الحصة، فكذّبته الفتاة، إلا أنّ "ميشي" تدخّل حينها:
– عفواً، لم تتدخل في التعلم أبداً.
فرد "شانيكا" بأنها نعتته بالغبي، وأرادت الفتاة العانس تسوية الأمر، وقالت بأسلوب طيب:
– لا يجب أن تكون حساساً بهذه الصورة يا "شانيكا"، عليك أن تتعلم وتذاكر فحسب يا بنيّ؛ حتى تكون شهادتك جيدة.
– إذن عليكم أن تتركوني أدرس.
– لن أترك أحداً يزعجك، ولا أريد ذلك.

ألقت الفتاة بأشيائها، حانقة، والتفتت إلى "شانيكا".
– وغد عديم الذوق، كيف لا أتركه يتعلم، ينفطر قلبي من أجله، وهو لا يعرف حاصل ضرب ثمانية في سبعة.
– لن يتعلم بشكل أفضل إذا أغضبه أحد وقام بتوبيخه.
– دائماً يتدخلون.
– حسناً، سنرجو من "بيلَّا" ألا تدخل هنا مرة أخرى وأنتما تتعلمان، أليس كذلك أيها اللطيف "نيلاش"؟
ود "نيلاش" أن تبقى "بيلَّا" في الغرفة، أسف لأنه لن يرى بعد ذلك الفتاة جميلة، وقالت "بيلَّا":
– من ناحيتي يمكنه أن يتعلم، لكنه لا يريد ذلك!
ردت الأخت الكبرى:
– علينا أن نتركه، ولكِ دورٌ في هذا، لو اهتممتِ قليلاً به لكان الولد مختلفاً.
قالت "بيلَّا" بانفعال:
– الأفضل أن أشنق نفسي إذن. هل يمكن الاهتمام بهذا؟!
نظرت "فيولا" ناحيتها حانقة، سكتت برهة ثم قالت:
– يجب أن يتعلم هذا الولد، سيمكنه ذلك من الحصول على وظيفة، وسيكسب مالاً مستقبلاً.
نظر الولد الصغير متفاجئاً إلى أخته الكبرى، شعر أنها توجه آخر جملة إليه أيضاً، لم يفكر في ذلك من قبل: أن يصبح شيئاً ما في المستقبل ويمشي بالغليون في الممر الخارجي، ويدخل الخادم عليه ويقول له: أيها السيد المحترم، لقد وضعت أنثى الخنزير. أو يذهب إلى المكتب بملابس سوداء، وأدرك أن التعليم هو آخر سلسلة من العوائق التي عليه تجاوزها ليصل إلى مكانة جيدة، وجهت الشقيقة الكبرى حديثها إلى التلميذ الصغير كقاضٍ يؤخذ رأيه لحل الجدال الأسري:
– لا تعتقد يا عزيزي أننا كنا شحاذون هكذا، الحمد للرب، كان أبي يملك ثروة كبيرة، عشرة آلاف إلى اثني عشر ألف هولد، لكن سباقات الخيل وحياة النادي بفيينا والقمار أخذت كل شيء. لن تصدق ذلك، عندما بنوا السكة الحديدية في بالاتونشوموشي، قام والدي باستئجار أول قطار وجلس وحده، كما كان يركب عربة تجرها أربعة خيول، كلفه هذا مائة وسبعين ألف فورنت؛ لأنه اشترى التذاكر كلها، والآن نتمنى لو نملك مائة وسبعين فورنتاً فقط.
دُهش التلميذ الصغير مما سمعه، وخجل لأن الفتاة تحدثه عن هذا، لأنه بلا جدوى ولا يليق، ولكنه شعر بالفخر لأنها تتحدث إليه عن أمور شخصية، وتذكر عندما أرسلته أمه مرة في بلدته إلى شقة المرأة ساعية البريد حتى لا يتخلف الخطاب، وتحدثت معه ساعية البريد كشخص بالغ، وباحت له أن زوجها تتدلى دهونه وينبغي مساعدته دوماً، ولا تستطيع العمل بسببه. استمع إليها بجدية، لأنه شعر أن ساعية البريد الفقيرة المسكينة، تعتبره شخصاً جاداً، بالغاً، واصلت الشقية الكبرى حديثها بحماس كبير:
– كل هذا لا يشكل مشكلة، يمكن لهذا الولد أن يصل إلى شيء! ولا أنتظر شيئاً من الحياة بالفعل، سأبقى خادمة لإخوتي فحسب، يدي حمراء متشققة أصابتها الرياح بالجفاف، وملابسي مهترئة وحذائي متشقق، وهذا لا يؤلمني، أدرك أني ضحية من طفولتي، أمي العزيزة مريضة، أبي اللطيف غير سعيد، وعليّ أن أكون خادمة المنزل لأن هناك أموراً يجب القيام بها، وأن أتولى المسؤولية وأحمل الهم، أنهض فجراً وأخلد إلى النوم قرب منتصف الليل، أصبح منزلنا مستشفى وروضة أطفال، وعليّ أن أتحمّل كل ذلك، قدمي منهكة، كل يوم أحمل عشرة كيلوات من السوق إلى المنزل وأسقط بعدها في الفراش، وليس هذا كل شيء.
أخذت الفتاة نفساً عميقاً وأشارت إلى "شانيكاً" بانتصار:
– الأهم أني قمت بتربية هذا الولد، من الممكن أن يصلح هذا كل شيء، فلتكن له شهادة حسنة.
أومأ بمرارة، فأكملت الفتاة:
– كان عقلي مثل النار، وأملك إرادة قوية، من يراني الآن لا يعلم من كنت! ولكن بماذا سيفيدني التعليم، في النهاية

سأصبح ساعية بريد، مثل الفتيات حولي، كلما اجتازت فتاة فقيرة مرحلة تعليمية أكثر ساء حالها أكثر، فحاجتها ومتطلباتها تزيد ولا تملك شيئاً حيال ذلك، وهذا الولد المسكين عليه أن يتخرج ويحصل على شهادة إتمام المرحلة الثانية، حينها يمكنه الذهاب إلى بست، إلى المكان الذي تركته أسرتنا قبل أربعين عاماً، وسيكون "دوروجي بارتوتي" "Bertóthi Doroghy" و"ناجتاركاني" "Nagytárkányi" من جديد، له مال كثير، وتفتح له قصور الأقارب والكازينوهات والنوادي ويلهو ويلعب، كل ذلك إذا اجتاز هذه الأعوام الدراسية السبعة، ونجتاز معه الفقر مثل سندريلا، لكل واحد قوة خاصة يمكنه بها عبور مرحلة الفقر، ثم أشارت إلى أختها:

– إلى من ستذهب هذه الفتاة الفقيرة؟ هل يوجد في دبرتسن فتاة بهذا الجمال؟ دمها مختلط من "بارتوتي" "Bertóthi" و"مياشكيافتسكي" "Mieskieviczky"، سوف تذبل هنا في كوخ ريفي، ماذا أفعل معها. إلى أين أصطحبها، بدون ملابس وحذاء؟ لا يمكن أخذها إلى الحفلات، مثلي، هل أزوجّها؟ ولمن؟ عامل صغير أو فلاح، وستذهب إلى السوق. لا تضحكين مما أقوله، أيتها المسكينة، سوف تحملين أقفاصاً من السوق.

نظر إليهم التلميذ الصغير، وإلى الفتاة الجميلة، كضحية بلا أمل لمصير رهيب، أو مستقبل بشع.

– هذا الولد؟ يمكنه أن يتزوج من يريد، بفتاة من عائلة "أودسكالكي" أو "أسترهازي" أو "كاروي".

أطلقت تنهيدة عميقة، ومسحت جبينها بكفيها الحمراوين:

– لأجل ذلك يجب عليه أن يحصل على شهادة جيدة، ولا أشعر بالأسف على التعب والتضحية من أجله.

وضعت يدها على رأس شاني الصغير، ومسّدته برفق:

– تعلّم يا بني، يا ملاكي الصغير اللطيف، وألماستي الصغيرة الرقيقة، لا تهتم بأي شيء، سيكون لك دائماً كل شيء، ملابس وحذاء وكراسة وأوراق رسم، يمكنك أن تكتب وترسم، كما تريد، تعلّم اللغة الفرنسية، ثم العزف على البيانو والرياضة، وكل شيء، بعد ذلك ستتذكر أختك الكبرى العانس بالثناء والشكر، ولن نزعجك ألبتة، نعوذ بالإله من هذا، لا أنا ولا "بيلّا" ولا أي أحد، فهمت؟

واحتضنت رأس الولد الصغير برفق وحب. دخل رجل ضخم جميل بلحية، يرتدي معطفاً من الفرو الغرفة فاضطربوا، اعتقد التلميذ الصغير أنه الأب، يبدو كبطل من الأبطال الّذين طالعهم بكتاب الصور التاريخية، "باتناهازي" "Petneházy" في حصار "بودافار" أو "ميكلوش بارتشيني" "Bercsényi Miklós"، قائد "راكوتسي" "Rákóczi". "دبرتسن"، دولة الأشخاص ذوي الأجسام الضخمة، ذات المزاج الجيد المبتسمة، والشوارب المبرومة، وقف أمامه باحترام، قفز "شانيكا" وأسرع إليه بشجاعة غريبة وثقة وقبّل يده ثم فمه، وقبلت الفتاتان يده عند التحية، ثم قالت الفتاة العانس، وعرّفته على "ميهايكا نيلاش" الصغير، أومأ الأب مبتسماً وجلس صامتاً على كرسي بجوار المنضدة، وسألته الفتاة العانس إن كان يشعر بالبرد، فتحركت شفتاه تحت الشارب الكبير:

– التدفئة شديدة عندما تعمل، أشعر أني يمكن أن أصاب بسكتة دماغية جراء الحرارة.

واستند بكوعه على المنضدة ممسداً جبينه، ونزعت "بيلّا" المعطف المتآكل المبطن بالفرو من على أبيها، ثم جلس ولده الصغير في حجره، وسأله عما يتعلمه وهز الولد كتفه، نظر الرجل الكبير إلى "ميشي" فبادر:

– تعلمنا الحساب، العمليات الحسابية الأساسية الأربع مع الكسور العادية.

تحرك حاجب الأب وحدق في "ميشي"، أمسك بالكتاب يقلّب صفحاته متسلياً:

– هل هذا هو الكتاب كله؟ إنك حمار لن تطيق تعلم هذا.

ونطق كلمة حمار بشكل لطيف، رغم أنه قد بدا وكأنه يريد أن يعاقب ابنه الذي انزوى في حضنه ويلعب بلحيته. قالت "بيلّا" بحدة أنه يدلل ابنه ولا يحاسبه، وأكملت بأنه غبي لا يعرف جدول الضرب، تململ الرجل الضخم، خاف "ميشي" أن ينكسر شيء إذا تحرك، وكرر ما قاله بأن ابنه ليس غبياً بل حماراً فحسب وهو يبتسم، فوشى "شانيكا" بشقيقته:

– أبي، اشترت "بيلّا" مروحة يدوية يابانية بستين كرايتساراً.

صرخ الأب:
– ماذا؟
– إنها تقول عني غبياً لهذا السبب.
– سوف أطويها مع المروحة سوياً!
قالت غاضبة موجّهة حديثها لأخيها:
– لا تتحدث كثيراً، سأصفعك أنت تعلم ذلك!
– سوف تتلقين أنتِ أيضاً واحدة من أبي، أؤكد لكِ هذا!
كان "ميشي" مندهشاً مما يسمعه وأن الأب لم يشارك إلا بابتسامة جامدة، وتساءل إن كانوا يفعلون ذلك أمام أبيهم على الدوام، يعرف أن الأشقاء والصغار يتشاجرون دائماً ولا يريدون الطاعة ويصخبون ويضجون، ولكن ذلك لا يحدث أمام الأبوين أو الغرباء، فقطع تفكيره صوت الأب وهو يسأله إن كان "شانيكا" سيرسب، ارتعد "ميشي" خوفاً من أن ينهض الأب غاضباً ويشطر الطاولة إلى قسمين كشطائر العسل، وتمنى الأب ألا يرسب ابنه، وأتبع بهدوء:
– سيكون صبي إسكافي جيد!
قالت الفتاة الكبيرة:
– أبي يأخذ الأمر ببساطة بدلاً من أن يضربه مرة ليعلم أن الأمر جدّي، مَن لا يُضرَب في الصغر لن يكون شخصاً جيداً في الكبر.
قال الأب:
– أحضري العَشاء!
فصمتوا. دخلت سيدة نحيفة شاحبة مثل الكتان تمشي بوهن وتضحك كما تفعل الفتاة الصغيرة التي تسندها ممسكة بها تحت إبطها، أدرك أنها الأم، دخلت خوفاً من حدوث مشكلة، جلست بجوار المنضدة، وعادت الفتاة الصغيرة السمراء التي تبلغ حوالي ثلاثة عشر عاماً إلى الباب وهي تحاول إخفاء ضحكاتها التي لم توقفها، ساد الصمت لدخول الأم فقطعته الفتاة العانس:
– هل يتعلم من أجلي؟ لا!
ضحكت الفتاة الصغرى ووضعت يدها على فمها.
– هل يتعلم من أجل أبيه أو أمه أو من أجل "بيلَّا" أو "إليكا" "Ilike"؟ إنه يتعلم من أجل نفسه.
ساد الصمت مرة، تسللت "إليكا" الصغيرة إلى الداخل لترضي فضولها، لم تشأ أن تفوتها كلمة، وتكلمت الأم بصوت خفيض وهي تقول بأن ذلك بالتأكيد لأجله هو، عندئذ قالت الفتاة العانس:
– ليته أتيح لي أن أتعلم! كنت سأفعل ذلك، يا إلهي، كنت سأتخرج من الجامعة الآن!
علت قهقهة "إليكا" من الخلف.
– حسناً، علام تضحك هذه؟ أنتِ يا أيتها الروح الشريرة، ما الذي يثير ضحكك؟!
كتمت "إليكا" فمها بكلتا يديها.
– بإمكانكِ أن تتعلمي، هذا ما أتحدث عنه تحديداً، ظلم كبير لفتاة يمكنها أن تصل بعقلها إلى النجوم وتبقى خادمة، لو استطعت تعليم وتحفيز هذا الولد ليصل إلى الجامعة فسيكون "دوروجي ناجتاركاني وبارتوتي"!
انفجرت "إليكا" ضاحكة وخرجت إلى الخارج إلى الفناء، بدأ يدندن الأب مقطوعة:
كلب صغير، كلب كبير
لا يعوي بلا جدوى
وصل نَفَس الأب إلى "ميشي" وتضايق من رائحة النبيذ، وجعل ينظر إليه وكأنه رأى ثعباناً أو تنيناً، تذكر أباه عندما

يشرب الخمر محتفلاً بعدما يتعاقد مع أحد الفلاحين فيبدأ بضربه، وكان يقف مع أمه خارج المنزل ينتظرانه أن يهدأ، ثم انتبه إلى أن الساعة تقترب من الخامسة، نهض وحياهم ليغادر مسرعاً، الرياح قوية كادت أن تحمله، جلس متعباً عند السيد المسن، قراءته متذبذة، يتذكر أحداث اليوم، ثقيلة على قلبه، أحب عائلة "شانيكا" رغم أنه لم يعرفهم جيداً، وشعر بغيظ كبير تجاه "شانيكا" لأنه لا يتعلم رغم فراغه وعدم التزامه بشيء، احترم الفتاة الكبرى، يداها حمراوان من العمل وتضحي بنفسها، رغم فظاظتها. أما "بيلَّا" فهي فتاة رائعة كملكة متوجة، واستغرب من أنه لم يلطم أحد الفتاة الصغيرة الضاحكة باستمرار، وحتى عند خروجه كانت تضحك ولم يكن يدري علام؟! وأدرك حقيقة أن الفتاة العانس كانت ستتخرج في الجامعة في هذا الوقت وحماقة الفتاة الصغرى وضحك أثناء القراءة، كان مساء الثلاثين من نوفمبر، وجهّز له السيد المسنّ ثلاثة فورنتات فضية. شكره عليها ووضعها في محفظته الصغيرة التي لم يكن فيها سوى أربعة كرايتسارات، فقد عاش خلال هذا الشهر باثني عشر كرايتساراً فقط، لحسن حظه لم يحتج لشراء شيء، وضع الثلاث فورنتات بجوار تذكرة اليانصيب.

رجع إلى السكن يقفز راقصاً سعيداً، لم يفكر بمشاكل أسرة "دوروجي" ولا بالرياح ولا بالمستقبل، أسف لأنه لا يمكن أن يري الثلاثة فورنتات لأحد في سكن الطلبة خوفاً من أن يطالبه أحد بشيء. ينتظر أن يلتقي في اليوم التالي بالسيدة "تشيجاي"، ليدفع فورنت وعشرين كرايتسار، لأن عليه دين من الشهر الماضي بستين كرايتساراً، وسيبقى في جيبه فورنت وثمانون كرايتساراً للشهر القادم، سيشتري بها أربعة ألوان، أحدهم ذهبي يكلف خمسة عشر كرايتساراً وآخر فضي يبلغ ثمنه عشرة كرايتسارات، وسيشتري قلماً رصاصاً وتذكرة للمسرح.

اليوم التالي الأحد، ديسمبر، لهذا الشهر ينتظر حدثاً احتفاليّاً وغامضاً، ويعني شيئاً مؤثّراً بالنسبة له؛ عيد الميلاد وعيد رأس السنة، فتلك أعياد ذات شأن عظيم. أراد أن يحتفل، تذكر أسرة العم "توروك"، لم يزرهم منذ مدة لانشغاله، سيزورهم إذا لم يتمكن من العودة إلى منزله في عيد الميلاد، بعد الغداء توجه إلى شارع ناجمشتر، رأى البيت الكبير الأبيض في ركن الشارع، أفخم وأقدم منازل المدينة الأخرى، خفق قلبه بسعادة، سكن هنا العام الماضي وعاش طفولة بريئة. البوابة مازالت متهالكة لم يُصلح قفلها فاستطاع الدخول، السلم مطلي بالأبيض، الممر على شكل قوس مثل قلعة قديمة، الأشجار منتصبة أغصانها السوداء كما لو كانت مرفوعة إلى السماء بلا أوراق، لم تكن جميلة مثل الصيف، تتحرك وتضج تحتها فتيات المدرسة الابتدائية الصغيرات، في الخلف حظيرة الخنازير، حيث يقوم العم "توروك" بإطعام صغارها الذرة، على رأسه طاقيته الملونة، وفي فمه غليونه الطويل. مع الربيع تكبر صغار الخنازير وتصبح بيضاء رائعة، الدم الأحمر يُرى في جلودها وكأنه يضيء، تشرب اللبن، وأحياناً تدخل إلى أمه وتأكل من الحوض.

صعد الدرجات الأربع وكأن شيء يطارده، عاد إلى منزله، يخفق قلبه. مضى وقت طويل، انشغل بأمور مهمة لم تكن تشغله العام الماضي، رأى الخالة والفتاة "إلونكا" تتحدثان في المطبخ كالعادة، المطبخ كبير وواسع يسمح بالجلوس والتحدث، يقيمون فيه بالنهار ويتناولون الغداء، وبه خزانة وطاولة لتناول الطعام، صاحت الخالة "توروك" مرحبة به، وفتحت ذراعيها الكبيرتين، كانت كبيرة قوية ضخمة جداً، لكن خيرها وطيبتها أضخم، وجهها توهج كالقمر لرؤيته، وصاحت الفتاة "إلونكا"، وهي امرأة صغيرة أنيقة عكس أمها:

– يا إلهي، من أتى هنا!

كادتا تأكلانه، احتضنتاه، تلمستاه، تتفحصانه من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه: كم كبرت! هل زاد وزنك أم قل؟ قالت الخالة:

– قد برز عظمه وغاض لحمه، زاد هزاله؛ فغذاء سكن الطلبة تعيس!

قالت الفتاة "إلونكا":

– يبدو بشكل جيد تماماً، ولد ممشوق القوام، قوي!

وفجأة سألتاه بفضول عن الغداء، لن تفوتا هذا السؤال، وأخذ يفكر، لم يهتم بهذا الأمر، وسوف يكتب عن الغداء في المدرسة، يدخلون مسرعين إلى مكان تناول الطعام كصغار الخنازير، يأكلون ما يقدمونه لهم، ثم يعودون إلى غرفهم.

– كان هناك مرق لحم مع شطائر ما.
– انظري، أين وضعوا اللحم المطبوخ؟ يطهونه جيداً، لكنهم لا يعطون إلا مرقته؟
– لا، بل كان هناك لحم مطبوخ أيضاً مع صوص.
– ماذا كان هذا الصوص؟
– ماذا؟ صوص طماطم.
– بالتأكيد تعتقد أمي أن هناك صوص آخر أيضاً مثل صوص البصل.
– وهل كان جيداً؟
– نعم.
– ولو أكلت نشارة الخشب لن تعرف، فأنت لا تعرف الجيد من السيء، وماذا كان في الشطائر؟
– ماذا؟ في الشطائر! مربى.
– بالطبع، مربى! مرق لحم بصوص الطماطم مع شطيرة محشوة بالمربى، سيبتكر هؤلاء شيئاً آخر لاحقاً، مربى برقوق متعفنة، ويقولون سيكون هذا جيد للطلاب.
– لم تكن متعفنة، سيدتي "إلونكا".
– هل تعرف ماذا كانت، تعتقد أن العفن سكراً.
– لا، سيدتي "إلونكا"، فقط الخبز البني رائحته منتنة، عفنة، لا، بل منتنة.
– يا خالقي، كم كان ذلك منتناً إذا لاحظه هذا!
– لكنهم بالرغم من ذلك يا خالة توروك يطهون بشكل جيد.
– وماذا يطهون جيداً؟
سألته الفتاة "إلونكا" وقرصت ذقنه:
– حسناً، ما هو أكثر شيء تحبه؟
– أكثر ما أحبه عصيدة الدخن بكثير من السكر.
عندها ضربت إحداهما كف الأخرى وتركتا التلميذ الصغير، رأتا أنه لن يؤدي ذلك إلى شيء، وقالت "إلونكا":
– هذا هو أفضل شيء بالنسبة له، عندنا لن يأكل خنزير صغير مثل ذلك.
قالت الخالة:
– هذا جيد الآن، لكن ما تطهوه الخالة "توروك" لم يكن حسن المذاق.
سكت التلميذ الصغير، اعتقد أنه يجب عليه قول شيء ذكي وجميل، لم يخطر بباله شيء.
– لا تحرجيه يا أمي، لا يثبت التذوق ذلك، وإنما الوجه، الوجنتان الصغيرتان. كيف كان العام الماضي وكيف أصبح الآن!
وقفت الخالة في صفه:
– لكنه ليس نحيفاً إلى هذا الحدّ، في العام الماضي كان كذلك، وكنت أطعمه زبيباً.
ضحكت الفتاة "إلونكا" بشكل لطيف، صوتها ما زال رقيقاً جداً كالخيط مثل العام الماضي، تذكر أنه كانت لديه أيام سيئة، عندما لم يستطع أبوه إرسال العشرة فورنتات مطلع الشهر، وأحياناً لا يرسل له شيئاً، حيث أنّ أباه كحطاب يستلم الأموال بحسب العمل المتاح له، وليس كالموظفين الذين يستلمون رواتبهم أول الشهر، وكان ينفق ما يحصل عليه على الضروريات؛ مثل الطعام.
– وكيف تسير الأمور في المدرسة؟
ردت الفتاة "إلونكا" بدلاً منه:
– انظري إليه كيف يهز كتفيه، أرى أن هناك الكثير من الأولاد اللعوبين.

تبسّم "ميشي".
– لكن الخال جيزا سيفرح به أيضاً! نعم، سيفرح كثيراً، متى كتب لك خالك "جيزا"؟
– لم يكتب منذ وقت طويل بالفعل.
فانقلب محور الحديث حول الخال "جيزا"، حيث سكن عند أسرة الخالة "توروك" في وقت مضى، كان معلماً في المدرسة التي درسوا فيها سابقاً، والفتاة "إلونكا" تسأل كثيراً، إكراماً له، فقد أعطياه العام الماضي إقامة كاملة مقابل عشرة فورنتات، وانعكس حبهم للخال "جيزا" عليه، كانت فترة ما بعد الظهر التي قضوها في المطبخ لطيفة بشكل مؤثر، تجلس الخالة على الكرسي ذي المسندين المغزول من القش، الذي يصنعه الرعاة الدبرتسنيون[20]، والمنتشر في كل المنازل، أما هو فقد جلس على الكرسي المنخفض مثلما يفعل دائماً، يرد بصدق وإخلاص عليهم، ضحك كثيراً وارتاح أكثر من أي مكان آخر. حيث كانت الحياة رديئة في سكن الطلبة، وضغطته القراءة الصعبة السريعة عند السيد "بوشالاكي"، وما لاقاه بالأمس عند أسرة "دوروجي". في هذا المكان لا توجد أيّة مشكلة، يحبونه، ولم يتغير شيء حتى قطع الأثاث، كانوا سعداء وطيبين. هكذا يجب أن يعيش الجميع للأبد، لكن لماذا لا يعيش هكذا، نهض فجأة وقال:
– لدي تلميذ أقوم بتعليمه.
أراد أن يقولها منذ وقت طويل، لكنه استحي من أن يعتقدوا أنه يتفاخر، التفتت المرأتان نحوه، وصاحتا:
– ماذا؟!
وقامت كلتاهما بضرب كف الأخرى، وقالت الخالة:
– لديك تلميذ تعلّمه! يا إلهي، أي عقل هو عقل هؤلاء! يبلغ من العمر اثني عشر عاماً ولديه تلميذ بالفعل!
قالت الفتاة "إلونكا":
– إنه ابن أخت "جيزا إشاك" "Isaák Géza"!
شبّك بين أصابعه الصغيرة النحيفة الرقيقة، سألته الخالة:
– حسناً، وكم يدفعون؟
– فورنتين.
قالت الفتاة "إلونكا" وقد بدا عليها أنها اطمأنت أن هناك أمر جيد في هذا الأمر:
– حسناً، هذا جيد ومناسب جداً! مساعدة كبيرة في عالم اليوم! فورنتان أيضاً جيدان! إنها سعادة لأبيك أن لديه ابن مثلك، يا إلهي، هذا الضفدع الصغير له تلميذ، أيها البرقوق الأخضر! لم أعد أستطيع التحدث معك بدون صيغة التعظيم! أيها السيد المعلّم! انظر...
أنصت "ميشي" وابتسم بسعادة، بل ضحك، تذكر كم كررت له الخالة "توروك" العام الماضي: "شد جلداً على أسنانك!"، وتغلق بعدها فمه بالقوة. دخل العم العجوز "توروك" من الفناء مرتدياً طاقيته المنزلية البوسنية متعددة الألوان، تتدلى منها شرابة، كان رمادياً أكثر من العام الماضي وأقل كلاماً، يضع الغليون في فمه وتبغه لم يكن مشتعلاً.
– انظر يا أبي من هنا.
– مَن! رائع.
أخرج الغليون من فمه ورفعه عالياً، ثم أعاده إلى فمه، وتلمس بنفس اليد رأس الولد الصغير، كانا يحبان بعضهما، في العام الماضي أخفيا الكتب في الغرفة الداخلية، العم يقرأ رواية، وهو مجلة دولة وعالم "Ország–Világ" القديمة، كما كان يذاكر ويتعلم أيضاً، وقرأ كتب "يوكاي" "Jókai": "الإنسان ذو القرنين" و"الحواديت المجرية القديمة"، ويلعبان الشطرنج كثيراً، لم يشعر في حياته أنه سعيد ومرتاح مثل ما يشعر به مع العم الذي يتعامل معه بشكل مختلف، لأنه لم يكن يتحدث مع أفراد أسرته أو يتناقش معهم وكان عصبياً. قالت الفتاة "إلونكا" التي لم تعتد التحدث مع أبيها إلا إذا كان عن شخص غريب:
– أبي، معنا معلم صغير له تلميذ!

احمر وجه التلميذ الصغير لأنهم يخبرونه بذلك، وقال العم مومئاً برأسه:
– رائع،.وهل هو في نفس صفك الدراسي؟
أجابه "ميشي" بالإيجاب، لأنه شعر أنه مكشوف، وأنه لا يمكن أن يقول عن نفسه بأنه معلم لأنه يدرس تلميذ يزامله في الصف الدراسي.
– هذا شيء جيد، يمكنك تثبيت الدروس في رأسك بسهولة.
شعر "ميشي" بنية العم الطيبة وفكره الكبير، وأنه يدين بالشكر "لدوروجي" على ما فعله، لأنه جعله يكرر مادة اللغة اللاتينية والحساب رغم ضعفه النّسبيّ في المادتين، وقرر أنه لن يقول بعد ذلك كلمة: تلميذي، وإنما سيقول أنه يتعلم معه.
قالت الفتاة "إلونكا":
– يدفعون له فورنتين! لدى الآخرين ولد مثل هذا، أما أولادنا فلم يكسبوا فورنتين في حياتهم.
شعر "ميشي" بوجود مشكلة ما مع الأبناء، فالسيد "أنطال" حمار كبير، والسيد "إمرا" عديم النفع وكثير اللهو و"يانوش" كذلك، ومن جانب آخر فهم لا يتحدثون عن ذلك أبداً. في العام الماضي لم يزر أسرته إلا مرتين، رأى أنهم اعتادوا الجدال حول ذلك، عم مسكين وزوجته. نظر إلى الحائط، تفاجأ، لم يرَ صورة "يانوش" المكبرة بالفحم والتي أعدها أحد زملائه، في العام الماضي ألقاها العم في المطبخ، وطلب حرقها. كان يخاف من "يانوش" لأنه ساخر جداً. كان شاباً كبيراً في مدينة الطلاب ويلهو طوال الوقت، وفي العام الماضي لم يكن في دبرتسن، وكان قد سمع بأن أباه لم يتحمله وطرده من المنزل، ذات مرة سددت أمه ديونه سراً، ولم تخبر العم "توروك" خوفاً من غضبه، ولكنه شعر بالأمر ولم يهتم. صمت حرج في المطبخ، أخرج العم "توروك" جمرة من الرماد ووضعها في غليونه. يا إلهي، فزع "ميشي"، فقد دخل "يانوش" بمعطفه الشتوي على كتفه، وقف احتراماً له وخوفاً بسبب الأفكار السيئة التي دارت في مخيلته عن "يانوش"، نادته "أنوشكا" لأن يأتي، وأشارت إلى "ميشي":
– المعلم، إنه ابن أخت "جيزا إشاك"، ويبلغ من العمر اثنتي عشر عاماً وهو معلم بالفعل.
نظر "يانوش" إلى الولد وضربه على رأسه.
– فلتنمْ يا أخي! لتنمْ أذنك أيضاً!
دمعت عين "ميشي" وآلمه رأسه من الضربة، لكن ألم الخزي كان أكبر، حاول إخفاء ضيقه حتى لا يلاحظوا ذلك، ود أن يهرب. لماذا أتى إلى هنا؟ يبدو أنهم لا يعلمون بأنه سيأتي، قالت الفتاة "إلونكا":
– وغد، فلتغادر يا أيها الفظ!
تلمست رأس الولد الصغير، لم يتحمل ذلك، عليهم ألا يلمسوه، فجأة تغلب على دموعه، وفكر في نفسه: انتظروا فحسب!
– إنا قارئ للجرائد أيضاً عند رجل أعمى مسنّ، أقرأ له لمدة ساعة كل يوم، وأحصل على ثلاثة فورنتات شهرياً.
صرخت الفتاة "إلونكا":
– ماذا أسمع! سأصاب بالإغماء! خمسة فورنتات كل شهر! يمكن شراء خنزيرين صغيرين بها، وأربيهما بنصف هذا المبلغ، ويمكنك أن ترسل لأبيك لحم خنزير دبرتسني في عيد الميلاد المجيد، تأكل منه الأسرة طوال الشتاء.
شعر "ميشي" أن في هذا إذلالاً له، فأبوه ليس في حاجة إلى أن يشتري له خنزيراً ويسمنه حتى يأكلوا منه، فرد بحماقة:
– سوف أكسب في اليانصيب!
وأردف بخجل:
– رأى السيد "بوشالاكي" المسنّ حلماً، وجعلني أضع مبلغاً في اليانصيب، لو فزنا سيكون نصفه لي.
لم تفهم الفتاة "إلونكا"، ولكنها فتحت عينيها، وصاحت:
– يانصيب! هذا الذي تبقى! فلتخجل من نفسك، لم تعد إنساناً محترماً.

ضحك "يانوش" بأعلى صوته:
– هذا هو الحديث الذكي! هل معك تذكرة اليانصيب؟ أرِنيها!
ارتبك "ميشي"، وتذكر أنه سمع بكاء في العام الماضي لأن "يانوش" كان يلعب اليانصيب، شعر بالحرج ولم يرد أن يعطيه التذكرة، ولارتباكه أخرجها من جيبه وسلمها للسيد "يانوش" والذي نظر إليها بعين الخبير، وصاح:
– فورنت! أهذا جنون؟ أعتقد أنك وضعت مقابلها عشرة كرايتسارات.
– معذرة سيد "يانوش"، لست أنا من دفع لشرائها.
ندم بشدة أنه اعترف "ليانوش":
– دفع السيد "بوشالاكي" مقابلها، وطلب أن تبقى معي لأنه أعمى، ووعدني بنصف ما سيفوز به.
قرر "ميشي" ألا يقبل هذه النقود الملوثة، استقذرها، وسيكون من حسن حظه أن لا يربح اليانصيب.
– من "بوشالاكي" هذا، هل هو الذي كان مستشاراً بمجلس المدينة؟
– نعم، هو الآن أعمى.
ساد صمت، عمّ الحزن، وكأنهم اختنقوا، وسأل "يانوش" بأسلوب غير معتاد:
– وأي طفل تقوم بتعليمه؟
– "شاني دوروجي".
واتسعت عينا "يانوش"، مكرراً الاسم ثم سأل:
– هل لديه شقيقة؟
– لديه ثلاث.
– أليست إحداهن فتاة طويلة، جميلة جداً؟
صاح "ميشي" بحدة:
– بلى!
انتبهت "إلونكا".
– حسناً، إن كانت هناك فتاة فإنه يعرفها!
رد "يانوش" ضاحكاً:
– مازلت لا أعرفها! لكنني سوف أعرفها!
– أصدق ذلك!
– إذن يمكنك أن تهدأ؛ لأن أمنيتك ستتحقق.
– أتمنى أن تتحقق أمنيات أخرى أيضاً لي.
– الملائكة تتحقق كل أمنياتهم.
انعزل "ميشي" وأخذ يلعق أسنانه، استغرب أن الخالة لم تقل أي شيء لابنها، وتذكر غضب العم من "ميشي" العام الماضي والذي بدأ يصفر بصوت منخفض. فرح "ميشي" لصوت الحركة والضجيج المنبعث من الخارج، ولم يفزع من الغرباء كما كان دائماً، لا يحب تشاجر الأشقاء، دخلت أسرة "سيكصاي" "Szikszay" إلى المنزل، وكانوا أفضل أصدقاء لأسرة العم "توروك" ويلتقون كل أحد، دخلت الأسرة كلها وفي مقدمتهم العم "سيكصاي" الضخم الأحمر بمزاج طيب وهو يدندن، كما اعتاد أن يفعل في الشارع بصوته المرتفع، تلته الخالة زوجته النحيفة مثل العشبة، تحمل على ذراعها طفلاً صغيراً لم يره من قبل، وبجوارها ولدان نحيفان وسيئان، كانت سلوكياتهما سيئة دائماً، الأكبر يريد أكل الشوكولاتة فقط ولا شيء غيرها، ما أثر على أسنانه، انتحى "ميشي" جانباً بعد قبلة اليد حتى لا يتحدث أحد عنه وتسلل إلى غرفة القراءة، يملك ساعة ونصف، أراد أن يعرف ما الجديد في خزانة الكتب بعد أن نسوه، عند مغادرته استوقفه السيد "يانوش" بأن

ناداه "ميهايكا"، اندهش "ميشي" فلم ينادِه أحد بهذا الاسم من قبل، ثم قال له:
– أخي الصغير، هذا خطاب، احمله إلى تلك الفتاة شقيقة "دوروجي"، لكن إلى الجميلة، لكن لا تفتحه أيها الشقي؛ لأنني سأكتب إلى خالك "جيزا" وأخبره بذلك!
أخذته الدهشة ولم يتكلم، شعر بالحزن لأنه مكلف بهذا الأمر ولم يجرؤ على الاعتراض، فأخذ الخطاب يائساً خائفاً من أن يتهمه بشيء عند خاله "جيزا".

الفصل السادس

ذهب إلى المدرسة صباح الاثنين مرهق يشعر بالنعاس، الحصة الأولى لغة لاتينية، والسيد الأستاذ "جيراش" لا يأتي بعد دق الجرس، صاح الأولاد طالبين من "أورتسي" أن يقف عند الباب للرصد والمراقبة وهم يقولون أنه لابد من مراقب، نهض "أورتسي" ضاحكاً معتداً بالثقة التي منحوه لها، شعره أشقر جميل مسرح بشكل أملس ويلمع مثل الذهب، كان صحيحاً شجاعاً رائق المزاج، حتى أن "ميشي" تيقظ وزال خدره. يطل "أورتسي" من الصف ينظر إلى المبنى الكنسي القريب من مدينة الطلاب حيث يسكن الأستاذ "جيراش"، وما إذا كان قد رفع الستارة أم لا؛ لأنه لم يرد لأحد أن يكون مراقباً وراصداً بذلك البرد الشديد، مما يحتم ارتداء المعطف، ثم نادى "أورتسي" على "نيلاش" ليرافقه فتفاجأ، ضحك عليه:

– لا تكن جباناً! أو مخادعاً هكذا.

تحرك "نيلاش" إلى الخارج إلا أنه كان خائفاً ومتردداً، يحرضه "أورتسي"، جذب معطفه الشتوي الصغير. إنه ليس ماكراً أو جباناً، وإنما هذا أمر غير مسموح به ولن يفعله، تمتم أنه قد يقرأ أثناء الحصص بدل الانتباه، ولكن الخروج من الفصل للرصد أمر مختلف أخافه، ينظر إليهما التلاميذ وهم يتهامسون ويضحكون، شعر أنه بطل مثل "ميكلوش زريني" "Zrínyi Miklós" في سيجاتفار[21] "Szigetvár" عند محاولته الفرار.

الممر طويل وخالٍ يعمه الصمت، يجب عليهما المرور أمام تمثال بتوفي عند السلم المزين، ألقى نظرة على التمثال الضخم الذي يرفع ذراعه البرونزية عالياً ويمسك أوراقاً، سيتعين عليهم المرور أمام مكتب المدير، فشعر بالخوف، فإن رآهما المدير أو العسكري العجوز عديم الرتبة وصرخ أحدهما عليه سيصاب بالإغماء. نجحا في المرور، ركضا حتى الزاوية حيث يوجد الفصل (I/A)، وصلا الممر الممتد بعيداً بزاوية قائمة والخاص بالمبنى المربع، أمام الفصل (I/A) ولد يقوم بالرصد، فزعا من بعضهما مثل حملين صغيرين تقابلا بين الشجيرات. لكن "أورتسي" كان شجاعاً وواصل الجري، نيلاش يركض خلفه فزعاً، بعد الفصلين (I/B) و(I/A) بوابة ناحية خابزي كعك الزنجبيل[22]، نظر نيلاش إلى الخلف، ورأى المعلم البدين، ذا الشارب الشائك رائد الصف الخامس يسير في الفناء، خشيه "نيلاش" فقد كان يمسك عصا في يده، لحسن الحظ لم ينتبه لهما.

هدأت نفس "نيلاش" قليلاً عندما وصلوا الشارع واستدار نحو الكنيسة، سارا بسرعة على الرصيف الطوبي، فقد تركيزه ولم يفكر بشيء، ولم يفكر ماذا سيحدث إن رأى السيد الأستاذ أمامه، و"أورتسي" مبتهج، مرح، يضحك، وينظر حوله، كأنهما لا يسيران في طريق ممنوع وإنما مرسلين بواسطة السيد الأستاذ "جيراش"، توقفا بجانب سياج القضبان الحديدية للحديقة التذكارية.

– هل ترى ذلك؟

– لا.

– ألا ترى؟

– ماذا؟

– إنها مُسدلة.

– ماذا؟

– الستارة.

ضيق عينيه بلا جدوى، في الجانب الآخر منزل من طوابق، ويجب رؤية إحدى نوافذه، لم يكن يعرف أين يسكن السيد الأستاذ "جيراش"، ولم يكن مهتماً بذلك ولم يفكر أين يسكن!

– فلندخل الحديقة.

اندفع "أورتسي" ودخلا الحديقة، قاما بمراقبة نافذة الأستاذ من خلف الشجيرات، رأى "ميشي" ستارة كتانية مسدلة في

أول نافذة بالطابق الأرضي على يمين المدخل، وسأل "ميشي" زميله إن كانا سينتظرانه، ليرد عليه:
– نعم، إلى أن يرفع الستارة، حينها يبدأ الاغتسال ويرش ماء كولونيا ويشذب شاربه، ويرتدي ملابسه، ويتجه إلى المدرسة.
يرتكز "ميشي" على قدم ثم أخرى مرتجفاً من اللذة والمتعة ويضحك، لم يتخيل هذه المغامرة الاستثنائية، ووضع يده في جيبه، سأله "أورتسي":
– "نيلاش"، أتعرف ما المشهور في دبرتسن؟
– لا.
– تلك الشجيرة، انظر! هناك! ألا تراها؟ عند نافذة ذلك المنزل الصغير. غرسها راكوتسي "Rákóczi"، كان عندنا المرة الماضية العم "لورينتس" "Lőrincz"، وقال أن "يوكاي" سأله "Jókai" سأله هل مازال هناك العوسج[23] حتى لا تدمر دبرتسن ذلك العوسج مثل سد شيموني "Simonyi–gát"، تعرف ذلك.
ولم يكن يعرف شيئاً عن ذلك، فسأله عما هو سد شيموني.
– صوب ناجأردو، صف من الفيلات في نهاية بيترفيا "Péterfia"، قام العقيد "شيموني" بغرس صف من ثلاثمائة شجرة رائعة ضخمة، وتم قطعها في العام الماضي، عندما وصل ذلك الخبر للعم "يوكاي" بكى، قال أنه لن يأتي بعدها إلى دبرتسن لعدم وجود أشياء جميلة كثيرة إلا سد شيموني، وبه عوسج أقدم، يبلغ عمره مائتي بل ثلاثمائة عام، غرسه "راكوتسي" الأول، ثم نما وكبر على النافذة، تعالَ، فلنشاهده، مازال لم يرفع الستارة.
ركضا، و"ميشي" مندهش، عبرا إلى الجهة الأخرى، رأيا منزلاً منخفضاً أخضر شباكه غائص في الأرض، وعلى جميع الشبابيك من الخارج سياج حديدي سميك، وفي سياج أحد الشبابيك نمت شجرة بسمك خاصرة طفل، لم تكن بهيئة شجر وإنما تشبه حبل سميك جداً، نمت بعشوائية على السياج وأخرجت رأسها منه، تتدلى أعواد طويلة رقيقة مثل لسان من نار بأوراق كثيفة، وفرعه عوسج مثل سياج الشجر، يوجد الكثير منه في الحديقة.
– ها هو، انظر!
نظر "ميشي" متعجباً، لم يكن يعرف بشهرة هذه الأشجار، رآها عدة مرات وكان يستغرب من تركها رغم أنها تسد النوافذ، أبكاه سد شيموني الذي زرعة "أورتسي" الأول، ذكره بأسرة العم "توروك"، كانوا يسبون رئيس مجلس المدينة العام الماضي لقطعه صف شجر ناجأردو.
– "يوكاي"؟
– نعم.
– "يوكاي مور" "Jókai Mór"؟
– نعم. لقد كتب كثيراً جداً، إنه أكبر روائي.
– لقد قرأت له بالفعل.
– وأنا أيضاً.
– ماذا قرأت له؟
فقال "أورتسي":
– لديّ كتابان بالفعل، العالم التركي في المجر "Törökvilág Magyarországon" والديكاميرون الصغير "Kis Dekameron".
– لقد قرأت في كونت المجانين "bolondok grófja" العام الماضي، أن بطلاً سلخ رأسه، وشدوا عليه جلد رأس تيس، ونما هذا عليه، وصار إنساناً بقرنين.
نظر "أورتسي" إليه باندهاش وسأله إن كان ذلك حقيقة وهو يضحك.

– لكن كونت المجانين كانت أروع بكثير. والمجنون الدبرتسني
"A debreceni lunátikus" هي الأجمل!
عندها علا صوت رجل يصيح عليهما:
– كيف حالكما أيها الهاربان من المدرسة؟
رفع "نيلاش" نظره مفزوعاً، رأى السيد "يانوش"، الذي كان ذاهباً إلى المكتب، سمع بالأمس أنه يتأخر دائماً ويذهب في الساعة التاسعة بدلاً من الثامنة، نظر إليه بوجه محتقن بالدم.
– أرسلنا السيد الأستاذ "جيراش".
لم يجرؤ على مواصلة الحديث، فقد خجل أن يكذب أمام "أورتسي".
– أرسلكما، وتتسكعان هنا، ما هذا؟ تعالَ – جذبه جانباً– هل قمت بتسليمه بالفعل؟
كان "ميشي" ينظر إليه مستغرباً ولا يعرف ما الذي يقصده إلى أن قال السيد "يانوش":
– الخطاب.
– الخطاب؟! لن أذهب إلى هناك إلا يوم الأربعاء!
– تباً لك! الأربعاء فقط؟
– نعم.
بدا على السيد "يانوش" أنه يفكر.
– حسناً، الأربعاء إذن. لكنني أسألك أن تقول لها أنني أرغب بشدة في الزواج منها، ليس عليها أن تتعب نفسها بالكتابة، وإنما فلترسل معك إما كلمة بكل سرور، أو كلمة كلا ألبتة! فهمت؟
– نعم.
– إما: بكل سرور، أو كلا ألبتة! لا تنس ذلك! وإذا أفسدت شيئاً أيها الأحمق سأكتب لخالك "جيزا" رسالة تندم عليها، فهمت!
لم يتكلم "ميشي"، خفض حاجبه وأنصت. وقال السيد "يانوش" أنه سيعطيه عشرة كرايتسارات وأخذ يبحث عن محفظته، و"ميشي" يشكره ويقول له لا داعٍ لذلك وأنه لا يريد، ثم ابتعد والسيد "يانوش" يضحك عليه، وبدأ يمازحه:
– حسناً، أنت سيد كبير، هل تستطيع فك كرايتسار؟ فلنترك الكلام ولتقم بذلك بشكل جيد، لن تندم.
وأعاد محفظته ومد يده للولد الصغير وأشار إلى عربة مشيراً إلى أنهم يجمعون الصدقات، وغادر، وقفت عربة وسط الطريق قرب مدينة الطلاب، ونزل طالبا لاهوت طويلان يرتديان ملابس سوداء، الجو لطيف، "أورتسي" ينتظر صديقه، همس "ميشي" ما أن وصل إليه أنهم يجمعون الصدقات من الناس من أجل سكن الطلبة، وسأله "أورتسي" عما يجمعونه:
– حسب ما يعطيهم كل واحد، ذرة، قمح، دقيقاً، شرائح من دهن ولحم الخنزير.
فتح "أورتسي" فمه، حملق بشدة:
– طلاب؟ يشحذون؟
– هذا ليس أمراً مخزياً، إنه طلب للصدقات.
– أود أن أذهب إلى العربة حتى أرى.
– هذا "مارتسي توك" "Tök Márci".
– من؟
– إنه "تايتي" "Tajthy"، الساكنون يسخرون منه بتسميته "مارتسي توك".
في هذه اللحظة مر بجوارهما طالبا اللاهوت. أنصتا إلى ما يقولانه:
– حماقة، هؤلاء الفلاحون، يفقأون عين المرء بكوزين من الذرة وعشرة كرايتسارات، هذا أقصى شيء.

– لا أعلم لماذا لا يتوقفون بالفعل...
غادرا واحمر وجه "ميشي"، فلم يرَ الأمر طلباً للصدقات، بل شحاذة، ونظر وراءهما بخجل واستحياء. دفعه "أورتسي"، ليكمل طريقه، عبرا إلى الجانب الآخر، كانت الستارة على النافذة مفتوحة، والسيد الأستاذ "جيراش" واقف بملابسه، رآهما، وصاح:
– ماذا تفعلان هنا؟ إنكما عديما النفع! أتيتما لمشاهدة النافذة؟ تراقبان؟ بدلاً من أن تتعلما؟ اذهبا إلى الفصل فوراً! سألقنكما درساً قاسياً اليوم!
ركضا خائفين وعبرا الفناء مباشرة، لم يقوما بالالتفاف وسلوك ممرات، بنفس منقطع وصلا الفصل، يسأل الطلبة عما بهما و"أورتسي" يطلب منهم السكوت، فانتقل خوفه إلى الفصل، لدقائق ساد سكون كسكون الموتى، تشجعوا عندما لم يأتِ المدرس وعاد الضجيج، ثم طنين هادئ كخلية نحل. تعكر مزاج "ميشي" من الخوف وجلس صامتاً، أخرج كتبه متأهباً لدخول السيد الأستاذ وللدرس، توقع أن يقوم الأستاذ بسؤاله أسئلة كثيرة ينتظره أن يخطئ في إجابة أحدها، وشعر أن ذلك سيحرجه أمام "دورجي" ولن يستطيع تدريسه، فجأة تذكر الخطاب الذي عليه تسليمه إلى شقيقت"دورجي" الكبيرة، تمكن البرد منه، سيقترف عملاً مخزياً آخر، طأطأ، واستغرق في تدريبات اللاتينية، قرأها كلها، يبحث عن أمر لا يعلمه وقد يسأله الأستاذ عنه، وجد أنه يعرف جميع الكلمات ويفهمها. رفع نظره عندما نهض الفصل، سمع صوت الباب، السيد الأستاذ على منصة الفصل، نظر إليه كأنه شبح حضر بشكل مفاجئ. قال المدرس الشاب:
– لا أريد أن يتكرر هذا الأمر، لا ترسلوا من يقوم برصد وصول المعلمين، إذا رأيت ذلك مرة أخرى سينتهي الأمر بالطرد، اجلسوا! "أورتسي"!
ورفع رأسه المحلوق تماماً، مع سالفيه المرفرين اللذين يصلان إلى ذقنه ككلب، جلس الجميع، نهض "أورتسي"، طلب منه توزيع الاختبارات، تنفس "نيلاش" الصعداء فلم يسأله المدرس، نهض "أورتسي" بخفة وأمسك حزمة الاختبارات، وضعها تحت إبطه، ووزعها، الاختبارات مرتبة وفق أماكن الجلوس. نادى الأستاذ "نيلاش" فهب "ميشي" واقفاً وقد شحب وجهه كالموتى.
– ترجم إلى اللغة اللاتينية هذه الجملة: ذاك أيضاً... لص... من... يسرق... ثقة... الناس... كيف تترجمها؟ بسرعة، بسرعة، – وضرب إيقاعاً بقلمه الرصاص– كيف تقول لصّاً باللاتينية؟
– fur، furis.
– أينعم، كم جملة بها؟ كرِرها.
كرَرها "ميشي":
– ذاك أيضاً لص: جملة، من يسرق ثقة الناس: جملة أخرى.
– أيّة جملة منهما هي الجملة الرئيسية؟
– الجملة الرئيسية: ذاك أيضاً لص.
– استمر، لا يجب أن أقول لك كل كلمة، ما الجملة الأخرى؟
– الجملة الأخرى... من يسرق ثقة الناس.
– أيّة جملة هذه؟
– هذه جملة نعتية.
– أيّة نوع من الجمل النعتية؟
– جملة نعتية متعلقة بفاعل.
– حسناً، فلنترجم إذن.
– Etiam ille est fur

– استمر.
– Qui…
– ما الكلمة التي لا تعرفها؟ الناس؟
– إنسان: homo، hominis.
– ثقة؟
سكت "ميشي".
– حسناً، ثقة: fidutia. الآن ترجِم الجملة بالكامل.
– Etiam ille est fur, qui… fidutiam… hominum… furat
– furat[24]؟ لا تتحدث بهذه الغرابة! لا تؤلف كلمات جديدة لبعض الوقت، خاصة باللاتينية. الكلمة الصحيحة: rapit.
– Etiam ille est fur, qui fidutiam hominum rapit
– دوّن هذه الجملة في كراستك والتزم بها.
خجل "ميشي"، فهم تلميح الأستاذ الرقيق، وتملكه الخوف، لم ينتبه الأستاذ إليه بعدها، لحق "بأورتسي" ليساعده في توزيع الاختبارات، سبورة الحائط سوداء ممسوحة بشكل سيء وعليها بقع طباشير كبيرة، يشعر أنهم يراقبونه، يقف ووجهه أصفر كالشمع، هرب الدم في رأسه، أصابه دوار وهو يقف على قدميه الهزيلتين، سيصاب بالإغماء، مثلما سقط مغشياً عليه في أرض الجزر عندما كان يحرث بها، لقد أحس بنفس الدوار، لقد سرق ثقة السيد الأستاذ الذي لم يتصور أنه سيُقدم على مثل هذا السلوك معه، وهو الذي وفر له تلميذاً ليعلمه، سيأخذه منه ويشعر بالخزي، ولن يستطيع الذهاب إلى والديه، وماذا سيقول خاله "جيزا" إذا علم بذلك، الأمر يبدو غامضاً، جذبه "جيماشي" من معطفه يطلب منه الجلوس فجلس خائفاً من المدرس فقد لا يسمح له بذلك، جلس خائر القوى يشعر بالسوء، قال "جيماشي" بغضب لأنه حصل في اختباره على نسبة الثلثين:
– أرني كراستك.
لم يستطع تحريك خنصره، ينظر بإرهاق، كل شيء أمامه باهت غامض إلا الحروف تبدو بألوان الطيف، قال "جيماشي":
– التقدير الأول!
ترك الكراسة مفتوحة وأخذ كراسة "أورتسي" وفتحها، نظر فيها وقالها:
– نسبة الثلثين. وأنت حصلت على التقدير الأول؟ ثم أقطع عنقك على الفور!
ابتسم "ميشي"، ود لو احتضن "جيماشي"، ود لو رقد بجانبه ووضع رأسه في حجره، سيستطيع النوم حينئذ ونسيان كل شيء، وسيكون من الأفضل عدم الاستيقاظ. رن الجرس، كان هناك شرح للاختبار، لم يسمع شيء، انتبه قال السيد المدرس: "أقر بأنه كان اختباراً صعباً ولم يستطع أحد حله بامتياز باستثناء "ميهاي نيلاش"، لكنني لم أصدق قدر (الشخابيط) التي قمتم بها، لقد أصدر الفصل شهادة شرفية عن نفسه، أربعة عشر اختباراً غير مرضٍ. سخافة!".
خجل "ميشي" وطأطأ رأسه بدلاً من أن يفرح، شعر أن هذا الإبراز لا يمكن أن يصير ثناء على الإطلاق، نظر إليه الجميع بحسد، سيسعد لو أنه هو حصل على نسبة الثلثين ليكون مثل الآخرين، ولا يذكر اسمه بشكل منفصل عن الآخرين، قشعريرة في جسده، عليهم ألا ينظروا إليه بتمييز، فليبقَ غير مرئياً؛ لا يريد أن يلاحظه أحد؛ يمكنه أن يلهو ويتمتم ويكتب ويرسم ويلعب كما يشاء، يجب ألا تكون هناك للآخرين حاجة إليه. إنه لا يطلب أي شيء منهم ولا يتمنى شيئاً منهم، فلن يتركوه في حاله، سيعتقدون أنه حل الاختبار بامتياز ليسخر من الآخرين، رغم أنه لم ينتبه لذلك، لم يعرف أنه لن يحصل في اختباره على نسبة الثلثين، رن الجرس، لم يكن المدرس انتهى من الاختبارات، تركها، وقبل الخروج نادى على "أورتسي" وطلب منه أن يقوم بترجمة ما سيمليه عليه إلى الحصة القادمة. أخرج "أورتسي" قلماً رصاصاً، وكتب بانتباه

شديد، وكان شجاعاً صريحاً مرحاً؛ وهو ينظر إلى المدرس من الكراسة:
– القانون، لا، بل: تجاوز، حدود القانون، غير مسموح به لأحد. ستقوم بترجمة هذا الحصة القادمة، هذا ليس كافياً، سيُجرى لك اختبار في هذا.
التقط المدرس قبعته الناعمة من على الشماعة وغادر تفوح منه رائحة العطر مبتهجاً، ضوضاء كبيرة عن نتائج اختبار اللغة اللاتينية، تجادلوا بشدة. اجتمعوا يعاينون اختبار نيراش، تعجبوا من عدم وجود أي خطأ، كل ما هنالك أنه لم يضع فاصلة، وحصل على التقدير الأول. "ميشي" كان مخدّراً وحزيناً طوال اليوم، يود أن يمزق ويرمي الخطاب الذي في جيبه الداخلي، يحرق جسمه. لكنه إن فعل ذلك سيكون قد استغل ثقة الآخرين، والسيد "يانوش" يثق فيه، شعر أن ثمة شيئاً ليس على ما يرام، شعر أن التصرف الصحيح رمي الخطاب والتخلص منه، أو إرجاعه لصاحبه، لن يجرؤ على ذلك، كان مبعوثاً للمهمّة مثل الرصاصة، وعليه الانطلاق حتّى نهاية الطريق. يوم الأربعاء، نهض واقفاً خلال درس بعد الظهر، وقال "لدوروجي":
– احسب هذا المثال كما بدأنا.
وخرج، وكانت الأم المريضة في الغرفة الأخرى، لم يقل أمامها أي شيء، خرج إلى رواق المطبخ، لم يكن هناك أي أحد، سمع صوت بيلَّا وهي تدندن في غرفة الخزين، ودخل إليها، تفاجئت "بيلَّا"، كانت جميلة جداً، تشمر الملابس عن ذراعها، أضاء بياضها الناصع الظلمة الجزئية، أمامها مئزر طويل أبيض، تجمع دقيقاً في طبق صفيح كبير، غطاء رأسها مربوط إلى الخلف، وبضع خصلات من شعرها البني خارجة، منكفئة إلى الأمام، ضحكت على "ميشي" بأسنانها البيضاء الكثيرة المتلألئة، لم تتكلم، فقط نظرت إليه بتساؤل، فقال مرتبكاً وتلعثم:
– معذرة فتاة "بيلَّا"، السيد "يانوش توروك" يرسل إليكِ هذا الخطاب.
رفعت الفتاة "بيلَّا" حاجبيها ونظرت ضاحكة ومتعجبة.
– "يانوش توروك"؟ من يكون ذلك؟
أخذت الخطاب بتردد، وقال "ميشي" باضطراب شديد:
– إنه ابن صاحب المنزل الذي كنت أسكن فيه العام الماضي.
فتحت الفتاة الجميلة الخطاب، ترددت، هل تقرؤه أم لا، نظرت فيه، وعندما قرأت أول سطر ضحكت بصوت مرتفع وبفم مغلق، لم تستطع القراءة في حجرة الخزين المظلمة لذا وقفت عند الباب حيث الضوء، وظل "ميشي" الصغير في حجرة الخزين، لمح الخطاب، يتكون من خمسة أو ستة أسطر، رغم ذلك ظلت الفتاة تقرؤه لوقت طويل، كما لو كانت الورقة مليئة بالكلمات، تقرأ وتضحك، لكنها بدأت تكتم ضحكاتها وأخذت تعض على شفتيها، تلمع عيناها السوداوان بشدة، كأنما ينبعث منهما شرر، لم يرَ الولد الصغير من قبل مثلها. جلس في حجرة الخزين المظلمة بجوار صندوق حفظ الدقيق، وبدأ يضحك، وكأنه أصبح في حكاية من الحكايات، حالة غريبة جداً، نسي كل شيء، درس اللغة اللاتينية، الأولاد والدراسة، وجمل المياه والبرد، وكأن كل شيء حدث حتى يقبع في حجرة الخزين الباردة، ليمكنه رؤية كيف تقرأ الفتاة الساحرة الملعونة الأسطورية، ذات الجمال الشديد، الخطاب بالتفصيل مرة بعد مرة، سألته:
– أي رجل "يانوش توروك" هذا؟
ونظرت الفتاة إليه بضحكة متألقة، مكتومة، قال "ميشي" بدون تفكير، بغضبه القديم:
– إنه شخص لاهٍ غير مسؤول.
اتسع وجه الفتاة وبقيت شفتها مفتوحة، ثم قهقهت بغرابة كأن الصوت ينبعث من داخلها، لم يكن مرتفعاً، واستندت إلى الباب، وسألته إن كان أعطاه له، ونظرت برفق وحب إلى الولد النحيف الذي تشبه هيئته هيئة الفأر، ثم قالت بسخرية وهي تنظر إلى الخطاب:
– "يانوش توروك أدَليني". من الممكن أن يكون ماكراً.

– قال تفضلي بالرد عليه إما بكل سرور؟، أو بكلا ألبتة!
ضيّقت الفتاة عينيها وتفحصت الولد، عرف ما تعنيه النظرة، حيث كان المقصود بها هل قرأ الخطاب أم لا، فاستدرك بسرعة:
– اسمحي لي، في يوم الاثنين رآني السيد "يانوش" بالصدفة في الشارع.
وخطر بباله فجاة أنه وقف تحت نافذة السيد الأستاذ "جيراش" وكل ما حدث بسبب هذا، وازدرد ريقه بصعوبة، وأكمل:
– وقال لي أن أخبر الفتاة "بيلَّا" أن عليها أن تتفضل بإرسال ردها في كلمة واحدة: إما بكل سرور؟، أو كلا ألبتة.
– يا إلهي، كم من الممكن أن يكون مخادعاً كبيراً "يانوش توروك أدليني" هذا!
أرجعت الفتاة رأسها إلى الخلف وبدأت في الضحك، ثم قالت وهي تشير بشكل كوميدي بإصبعها كأنها تضرب إيقاعاً غنائياً:
– فلتقل له، لكن لا تنسَ يا "ميشي"، "ميشي" أليس كذلك؟ أم "ميشوكا"؟ ماذا؟ قل له: فلتقل له هذا فقط: بكل سرور كلا ألبتة! فهمت، أو: كلا ألبتة بكل سرور! كما يحلو لك.
وبدأت تكرر الجمل، كان هذا كوميدياً والولد فهمه بسعادة وقلب نقي، ضحك بدون صوت. سعيد بأنهما سيسخران من السيد "يانوش" الآن لأنه.... كان عليه أن يكتب هذا الخطاب! أخذا ينظران في حجرة الخزين المظلمة كطفلين سيئين يفكران في الخفاء في حيلة ما، ويتفقان على شيء سيء ويقومان بأفعال ماكرة، لم يكن الولد الصغير سعيداً وفخوراً قبل ذلك مثل الآن، ولكن الفتاة وضعت الخطاب في صدرها، أشارت له أن يصمت، وخرجت إلى المطبخ، ارتعب لرؤية الفتاة الكبرى، كانت تمشي في الممر ولم يجرؤ على الخروج، وبدا الخوف والاضطراب على "بيلَّا" الجميلة، صاحت الفتاة العانس:
– مازال هذا الإناء هنا؟ إنها سخافة! لأنها سخافة أنك لا تريدين فعل شيء.
– جمعت دقيقاً في حجرة الخزين. ولماذا هي سخافة؟
– سخافة لأنها سخافة.
– بالطبع هذا ما تقومين به، تخرجين الدقيق الآن وتعجنين مساء، أي منطق هذا، الإناء هنا بلا غسيل والماء يبرد، ولن يمكن استخدامه بعد ذلك، وأنتِ تلعبين في حجرة الخزين بحجة إخراج الدقيق من الشِوال.
– يجب القيام بهذا العمل أيضاً.
– لكن ليس الآن، وإنما عندما يؤون أوانه. الجميع هنا يريد أن يلعب ويلهو، كل يتبع رأسه المجنون، أما العمل الجاد، فليس لأحد حاجة به، ماذا سيحدث هنا لو أنني استأجرت تلك الأرض، هل هذه مصلحتي؟ لا أحد يريد العمل هنا؟
قالت "بيلَّا" بعصبية:
– إن يدي لا تكف عن العمل.
ثارت "فيولا":
– في أي شيء تفيد يدكِ. لا تكف يدك عن العمل؟! ولن تفسديها! أفسدت يدي بالفعل وستفسدين يدك أنت أيضاً! تأسف الفتاة الصغيرة أن تضع أصابعها البيضاء في سائل الغسيل، لن تأسفي على ذلك إذا أصبحت سوداء قذرة لا يمكن معالجتها مثل يدي. أخبرك بأنني لن أتضور جوعاً من أجل أحد، ولن أترك نفسي بدون خنزير صغير في الشتاء من أجل أحد. سأستأجر تلك الأرض. سأكرس نفسي لأجلها، لن نهدر عشرات الفورنتات على مروحات يدوية يابانية، إضاعة ثمانين كرايتساراً على قمامة لا تفيد، تأخر إيجار الأرض أسبوعين بسببه. كان بإمكاني وضع عشرة فورنتات لأجل ذلك إذا لم تمتد يدك إليها. لن أسمح بذلك بعد الآن، في يدي عشرة فورنتات أخيراً، سآخذها إلى الفلاحين، لأدفع إيجار الأرض. ومع الربيع سأذهب للحفر، ثم نبذر ونعزق، وأعمل طوال الصيف وستقوم الفتاة الصغيرة بالغسيل والطبخ والتسوق،ويمكن أن يذهب إلى السوق من يتحمل أكثر، لا يمكنني أن أقطع نفسي إلى مائة جزء، لا يمكنني الحفر والعزق بيد وحمل سلة من السوق بالأخرى، ومزج البيض المقلي باليد الثالثة، وتصوير جوارب الفتيات الصغيرة باليد الرابعة. كل

واحد سيقوم بأموره الخاصة.
يترقب "ميشي" في حجرة الخزين، وكأنه يقف على شوك، ود أن يكون بالخارج، انتظر طويلاً، الأمر حرج، ماذا ستكون نهاية ذلك، ربما تدخل الفتاة العانس، حينها ستبتلعه الأرض، حسم أمره، وخرج إلى المطبخ، تحولت الأخت الكبرى إلى تمثال من الملح الحجري، نظرت إليه بشدة، وضربت "بيلَّا" كفاً بكف ضاحكة، وقالت:
– يا إلهي، كيف نسيتك!
والتفتت إلى شقيقتها الكبرى، قائلة:
– لقد أتى للتو ليطلب مني أن أعد له ماء ساخناً حتى يتمكن من إذابة صمغ عربي، ثم تركته في حجرة الخزين.
وعادت تضحك، وغمزت "لميشي"، عاد الولد إلى إدراكه بعد اضطرابه، وامتن "لبيلَّا" رغم كذبها، شاركته في الجريمة وحليفته في السراء والضراء، نظرت الأخت الكبرى إلى الولد بارتياب، أرادت أن تسأله لماذا هو في حجرة الخزين، لكنها فضلت أن تقول:
– حسناً إذن، إذا كنت قد سمعت بالفعل فلتكن أنت الحكم. أخبرني، أيها اللطيف "نيلاش"، ألست محقة؟
وبدأت تثرثر، تخبره عن خططها المستقبلية، تريد إنتاج ذرة، والخضروات، ملفوف، كرنب ساقي، جزر وكل ما يحتاج إليه المطبخ، لكن على الفتاتين الأخريين أن تتوليا القيام بأعمال المنزل.
– ألا أقوم بشيء جيد؟ أضحي بنفسي، هكذا يجب السعي من أجل النقود ويجب الذهاب إلى السوق من أجل عود من البقدونس، حينها سيكون هناك جزر بكثرة، ولو بمقدار شوال، أليس كذلك؟
– بلى، هذا صحيح، لكن اسمحي لي سيدتي "فيولا"، لا تقومي بإنتاج شوال من الجزر لأنه طعام بشع. كانت أسرة العم "توروك" تشتري دائماً في الخريف شوالين أو ثلاثة منه وسئمت منه، لا أحب،. آكله نيئاً، لكن هذا الطبيخ الكثير من الجزر أمر بشع.
ضحكت "بيلَّا" سعيدة، تضحك على شقيقتها الكبرى التي نظرت إليها، دون أن تعرف سبباً للضحك، قالت بصراحتها المعتادة:
– يكفيني هذا منك، يمكن ربطك مع هؤلاء في شجرة، فلتذهب للمذاكرة وتناول صمغ عربي، وليس جزراً.
علت قهقهة "بيلَّا" أكثر، و"ميشي" سعيد لضحكها، خفض رأسه، ودخل الغرفة مسرعاً، استقبلته السيدة العجوز الجالسة على كرسي متحرك بعينيها الغامقتين، توقفت ضحكاته من نظرتها، كان يخافها كثيراً، صامتة باهتة وكأنها ليست على قيد الحياة، لا تركز نظراتها على أحد وإنما تستغرق في العالم الذي حولها، أحس أنها تراقبه، ترافقه إلى الغرفة الأخرى، تنظر وراءه، جلس في مكانه، العين تطعنه من الخلف، أراد أن يلتفت ليتأكد إن لحقت به، أو إن نظراتها تخترق الحائط. أخبره "دوروجي" بأنه لم يقم بحساب المسألة، وإنما انكب عليها وأخذ ينظر، ويعبث بالقلم، صاح يائساً يعاتبه على عدم انتهائه من حلها، فسأله "شانيكا" ببراءة:
– كيف أبدأ الضرب بالرقم الخلفي، أم بالأمامي؟
– يا إلهي، إنه أمر فظيع! كم من مرة شرحت. كلاهما سواء! أفهمت؟ إذا بدأنا الضرب من الخلف نقوم بكتابة الناتج دائماً متقدماً بسطر، وإذا بدأنا من الأمام: نكتبه متأخراً بسطر.
– نعم، ولكن كيف أبدأ إذن، من الخلف أم من الأمام؟
– "سيان".
– إذا كان كلاهما سواء، إذن كيف أبدأ أنا؟
– ابدأ من الخلف.
– هذا ما أردت أن أسأل بشأنه. لقد أصبحت تتشاجر مثل "فيولا".
حملق "ميشي"، ينظر كيف يجري "شانيكا" عملية الضرب بهدوء، اعتقد أنه سيشبّهه "بيلَّا"، لكن تشبيهه له "بفيولا"

أحزنه. يتعذب مع هؤلاء، اضطرب وحزن، رأى أن الكفاح الذي يجب أن يقوم به هنا بلا جدوى أو أمل، "شانيكا" سيرسب مهما أرهق نفسه معه، لن يكون منه إلا عاراً. عندما كانا يذاكران اللغة اللاتينية دخلت "بيلَّا" –بشكل لطيف وبسيط كأن هذا طبيعي تماماً– التي لم تتواجد معهما بالداخل منذ المشاجرة الكبيرة، لم تتكلم لوقت طويل، قامت ترتب الدولاب، لم تنتبه إليهما، اقتربت من المنضدة ووقفت على يمين "ميشي"، التقطت الكراسة، انتبه إليها "شانيكا"، سألها عما تفعله، رفعت "بيلَّا" الكراسة عالياً:

– لن آكلها!

طلب منها أن ترجعها، وردت عليها بأنه شديد الحساسية، فتحتها، نظرت إلى تقدير الدرجات الأخير، حملقت:

– التقدير الرابع؟ التقدير الرابع!

نزع "شانيكا" من يدها الكراسة التي تكرمشت قليلاً، قال يتدلل:

– كيف سأعطيها للمدرس؟ سيطويها لي.

– أنت من كرمشها أول وثاني مرة، مهما تكرمشت، المهم ألا تحصل على التقدير الرابع، فلتخجل من نفسك!

– هذا ليس عاراً. كان الاختبار صعب جداً، وحصل أربعة عشر تلميذاً على تقدير سيء، ولم يحصل أحد على تقدير أفضل من ثلثين.

– ولا السيد "نيلاش"؟

– هو فقط الذي حصل على التقدير الأول، هذا حقيقي.

انفجرت الفتاة ضاحكة.

– حقاً! من الجيد أنك تذكر هذا... يا لك من...

انكفأت على المنضدة أمام "ميشي"، وكزت رأس أخيها الصغير بكف يدها، سحبت ذراعها ومسحت وجه "ميشي" برفق فاحمر وجهه وبدأ يرتجف، أحس أن اللمسة لم تكن صدفة، وأنها تعني شكراً رقيقاً سرياً من أجل ما سبق، وحباً وعلاقة. طلب منها "شانيكا" أن تخرج من الغرفة، فاستفزته "بيلَّا" ضاحكة.

– سأخبر أنكِ تواجدت بالداخل معنا مرة أخرى.

نظرت "بيلَّا" إليه بجدية لبرهة ثم ضحكت:

– انظر يا "شاني"، سأخبرك بشيء: فلنعقد صلحاً، لا تشي بي، ولن أشي بك.

نظر "شاني" بدهاء، وبخلسة من جانب عينه، إلى "بيلَّا".

– أنا أيضاً أعلم بعض الأمور عنك، لم أخبر أحداً عمن تناول سجائر مع ابن المالك.

نفخ "شاني" شفتيه بعداوة.

– رغم أن هذا حدث منذ أسبوع، كان لدي وقت أن أخبر به لو أردت. ومازالت هناك بعض الأشياء الأخرى في ذاكرتي أيضاً، حجرة المؤن أيضاً، والزر أيضاً، تعرف ذلك؟ هل سيكون هناك صلح أم لا؟

ومدت يدها اليمنى على المنضدة أمام "ميشي"، ووضعتها على كتبه وكراساته، يدها ممتلئة وبيضاء، وترتدي في أحد أصابعها خاتماً ذهبياً دقيقاً، وكان به أحجار زرقاء دقيقة جداً مثل زهرة أذن الفأر[25]. ارتعد "ميشي" أن تلمسه مرة أخرى. قال "شاني" بتدلل أنه موافق وضرب يدها. لكنها ضحكت، لم تتحرك، وبقيت يدها أمامهما، خشي "ميشي" أن تلمسه مرة أخرى.

– حسناً الصلح مقدس؟

قال "شانيكا":

– أنت لم تتصرفي بعدم ذوق، لن أخبر أحداً.

– حسناً أيها القداد الصغير، أعطني هنا كفك الصغير.

أخرج "شاني" لسانه وضرب كفها، وأمسكه، أمسكت الفتاة بيده، وبقيت يد الولد الصغير المتسخة في قبضة يدها البيضاء، الممتلئة، قالت "بيلَّا" ضاحكة:

– أف، كم هي متسخة مثل قدم خنزير، و"فيولا" تريد شراء خنزير صغير، حسناً إنه موجود بالفعل هنا!

وغمزت "لميشي" الذي ضحك بشدة، لم يضحك هكذا منذ وقت طويل، أثارت الإشارة إلى الأشياء السابقة ضحكه بشدة، قالت "بيلَّا":

– حسناً، ذاكرا الآن، من ناحيتي أنا يا بني يمكنك أن تحضر ولو ستة عشر ولداً لعوباً.

عندها صافحت يد شقيقها الصغير، ليس كما يفعل الرجال، لم تمسك كفه، وإنما أمسكت بيدها الممتدة يده من المرفق، لم يجرؤ "ميشي" على النظر إلى الفتاة المتمددة على المنضدة، مذاكرة اليوم لم تساوِ كرايتساراً واحدا. شعر لأول مرة أنه يتواجد هنا دون جدوى، غادر مضطرباً ومنزعجاً لأنه تأخر عن السيد العجوز، عليه أن يركض عندما أراد الدخول عبر بوابة المنزل الأصفر رأي السيد "يانوش" واقفاً، قال مخنوقاً:

– حسناً، فحم أم قش؟

في البداية لم يفهم ماذا يقصد، ثم تذكر وتشجع وقال بصوت مرتفع:

– نعم.

– علام تقول نعم، ماذا قالت، أيها المؤخِر؟

– لقد قالت: ليس بكل سرور على الإطلاق.

– ماذا؟

– لا ليس هكذا: بل قالت: كلا ألبتة بكل سرور...

– ماذا أيها الأحمق؟ تعرف أنت ماذا قالت.

– نعم، أعرف: لقد قالت قل له: "كلا ألبتة بكل سرور" أو "بكل سرور كلا ألبتة"، قل له كما يحلو لك، هذا ما قالته.

– هذا أمر شبه مستحيل.

– لكنها قالت هكذا.

– كلا ألبتة بكل سرور؟

أراد "ميشي" أن يكون بالداخل بالفعل؛ لأن الساعة دقت الخامسة.

– هل تستطيع الحلف على ذلك؟

– نعم، ولكنني لا أحلف على شيء بلا جدوى!

قال السيد "يانوش" ضاحكاً:

– هل هذا أمر بلا جدوى برأيك؟ ويحك! قف أيها الخبز، سوف آكلك!

ضرب قبعة الولد، وركض "ميشي" إلى الفناء، لم تفلح هذه المرة، في حياته المضطربة كانت هذه أهدأ ساعة، ساعة القراءة اليومية. يعجبه الحضور في الوقت المحدد، الجلوس على الكرسي القشي، الجرائد في نظام جميل، ويعمل بتقدير واحترام، أصبح يقرأ بسرعة وبشكل جيد حتى أن السيد المسنّ لم يسأل وراءه أبداً:

– أي شيء هذا، أي شيء هذا؟

المنزل الخشبي كان مكاناً لطيفاً دافئاً، والمسن الأحمر الأبيض طيب لطيف أيضاً، مناسب لنظامه لا يتكلم كثيراً. عاد "ميشي" إلى الغرفة، التلاميذ متحلقين حول الموقد وتفوح رائحة تحمير، وكان السيد "ناج" يتحدث، فهم "ميشي" أنه يحكي عن حياة الطلاب قديماً، وتحول بكل جوارحه إلى آذان مصغية حتى لا يفقد كلمة.

– إنك محظوظ، لأن الطلاب الصغار كهؤلاء كانوا يحملون مرجل الطعام بأنفسهم على أكتافهم على خشبتين مدببتين طويلتين، ولم يكن هناك سكن طلبة مثل هذا حتى ننتظر رنين الجرس ويجري المرء لتناول الطعام، طبق أبيض، مفرش.

عندها قال السيد "ليسنياي":
– طبق فخاري وملعقة خشبية.
واصل السيد "ناج" حديثه:
– وماذا كانوا يأكلون؟! التلاميذ الصغار يطعمون الطلاب الأكبر، ويرسل آباء هؤلاء أسبوعياً رغيف خبز أبيض، وهو ما كان كافياً لكليهما لمدة أسبوع، وآنية من الطعام، ما كانت تكفي سبعة طلاب، ويحصل الولد الآخر على قدر من الطعام لليوم التالي، هكذا كانوا يعيشون، وهذا كان زادهم.
استمع "ميشي" إلى الحديث في الظلام بتفكر واندهاش
– وأين كانوا يأكلون؟
– هنا، في غرفة المذاكرة والنوم. كما نحن هنا الآن سبعة، كل يوم يقوم آخر بإرسال آنية من الطعام. بقوليات أو كرنب أو مكرونة بالجبن القريش، لكن ليس ثلاثة أطعمة مثلما هو الآن في سكن الطلبة، آنية جيدة من الطعام فحسب، تحلقوا حولها، كل واحد يخرج طبقاً فخارياً وملعقة خشبية وسكيناً رديئاً بمقبض خشبي، وأكلوا.
– وفي المساء أيضاً كانوا يأكلون هذا؟
– إذا تبقى منه شيء، أما إذا لم يتبقَّ فكانوا يلعقونه.
– كان يجب إحضار هذا على خشب مدبب؟
– لا، ذلك شيء آخر، من كان يس‌كن أبواه بعيداً لم يكن بإمكانهم إرسال طعام جاهز إليه، ويرسلان أشياء يمكن طبخها، لم يكن هناك لا بريد ولا قطارات، وعندما كان يرسل سيد ابنِه من صاتمار "Szatmár"، أو كانديك "Kendék"، أو كولتشايك "Kölcseyek"، يأتي أبناء السادة بعربات تجرها الثيران، ويحضر كل واحد منهم القليل من القمح، البازلاء، العدس، دهن ولحم الخنزير المقدد، يستأجرون طاهية، تسمى بـ"الطبَّاخة"، وتطبخ لهم صنفاً واحداً كل يوم، وتطبخ كل يوم اثنين نفس الصنف وهكذا على الدوام، تعرف ذلك: كانوا يسمون ذلك الطعام: شامبر.
قال "بوسورميني":
– يا له من أمر مثير.
قال السيد "ناج":
– لن يكون أمراً مثيراً بالنسبة لك؛ فمن لم يكن ثرياً ولا متعلماً جيداً لم يكن يحصل على شيء آخر غير السكن، ويرسل المواطنون المدنيون الكرماء بعض الأوقات، قدراً من حساء الثريد للطلاب الفقراء.
سادت موجة عارمة من الضحك.
– كان يتم جمع الصدقات بأن يقوم الطلاب في نوفمبر بالتجول في المدينة كلها لاستعطاء الناس، وكانوا يسألونهم الطعام.
– أف، كم كانت حياة قذرة!
– كانوا يعطون بكل سرور وبشكل أكبر؛ لأن المدنيين يفخرون بالطلاب الذين كانوا يغنون لهم ويرقّصون الفتيات الشابات، وإذا كان هناك حريق ينهالون على المنازل بضربات سريعة. علام تضحك، لا تظنهم يطفؤونها مثل رجال الإطفاء المتطوعين! كانوا يسيرون بعصيهم الطويلة– الآن أيضاً يمكن رؤية ذلك في المكتبة الكبيرة "Nagykönyvtár" — وإذا اشتعل منزل يقومون بإسقاط أسطح المنازل المحيطة به، حتى لا تشتعل هي الأخرى أيضاً.
– هذا أمر مضحك.
– لم يكن هناك ماء في دبرتسن أبداً، ألا تعرف منذ كم عاماً يحفرون بئراً ارتوازياً؟ بلغوا الآن ثمانمائة وسبعين بئراً، ومازال الماء غير موجوداً، حجر فحسب. كل حفار ينكسر بسبب ذلك. لذلك يقولون أن لدبرتسن جبال، لكنهم يعتبرونها تحت الأرض.
ضحك "ميشي"، لقد سمع هو أيضاً ذلك العام الماضي عند أسرة العم "توروك"، لكنه يعتقد حينها أنها مزحة.

– قبل ذلك كان يجب إحضار الماء من بعيد في براميل كبيرة للطباخات والخبازات لاستخدامها في الطبخ، والسيدات اللاتي يقمن بإعداد المخبوزات يسمونهن بـ"الخبَّازات". وكان يجب إرضاء هؤلا، وليس الأساتذة. والطباخة تحصل كل عام على قصيدة غنائية يكتبونها على شريحة من لحم الخنزير المقدد كذكرى خالدة.

كانوا جالسين في الغرفة الهادئة التي لم يكن لهم مشكلة مع تدفئتها، منصتين لمعجزة عن العالم القديم الذي لم يستطيعوا تخيله.

– وكيف كانوا يتعلمون؟

– كان الطلاب يقومون بعمل المادة الدراسية، الطلاب الكبار للصغار، (ناقشو النحاس).

قال السيد "ليسنياي":

– نعم، كانوا كذلك، هذا حقيقي! قرأت أنا أيضاً عن الطلاب ناقشي النحاس. كانت دراسة جميلة.

– حينها كانت كافية كدراسة، الآن بالتأكيد سيرسب من كان أستاذاً آنذاك.

علا صوت الجرس، وهو ما كان يخشاه "ميشي"، ذهبوا لتناول العشاء، تألم "ميشي" بشدة؛ لأنه لم يسمع إلا هذه الجمل القليلة. حزين جداً إنه منعزل عن هذه الحياة، فجأة أحب أن يكون بين الأولاد دائماً، أراد أن يكون طالباً حقيقياً مثل الآخرين. عشاء جيد، مكرونة بجبن قريش الخرفان، شبعوا، عند النهاية وضع "ميهاي شاندور" قطعة من الورق أمامه.

– "نيلاش"، انظر فقط، هل سحبوا رقمك؟

حملق "ميشي" إلى قطعة الورق الصغيرة ذات الشخبطة وكان مكتوباً عليها خمسة أرقام. نظر بجمود بعين متجمدة كالحجر، مد يده في جيبه بشكل لا إرادي، أخرج محفظته الصغيرة، فتحها، كاد أن يتوقف قلبه من شدة المفاجئة، لم يجد التذكرة، أخذ ينظر ويفتش بين النقود، عينه على الشخبطة الصغيرة، قرأ الأرقام الخمسة: 17، 85، 39، 45. تحرك سكن الطلبة بالكامل، نهض الجميع واقفاً، ووضع محفظته في جيبه، استعجله "ميهاي شاندور":

– هل خرج شيء ما؟

لم يستطع الرد، لحسن الحظ تفرقوا، وجرى، تسلل بين الآخرين أمام عين "ميهاي". لم يتحمل البقاء بينهم، البهجة تختنق بين الطلاب الضاحكين، دخل في الفناء الأول جارياً، لم يذهب أحد إلى ذلك المكان. صعد إلى الطابق الثاني، لم يجرؤ على دخول الغرفة، تخفى في الممر، في جسمه رجفة قاتلة. لم يتذكر إن كانت الأرقام هي أرقامه أم لا، لكنه فزع تماماً عندما آلمه شعور الأرقام المعروف؛ والتذكرة ليست بحوزته!

الفصل السابع

لم يتم تدريس حصة الجغرافيا في الفصل، وإنما بالأعلى، في الطابق الثاني في قاعة التاريخ الطبيعي. لم يكن عليهم النزول إلى الفصل الساعة السادسة صباحاً؛ لذا بإمكانه أن يتأخر بضع دقائق بعد دق الجرس، يشعر باليأس وأن الحظ فارقه، تقلب طوال الليل بلا نوم، وإذا ما أخذته سنة من النوم انتفض، لم يتركه ضميره لينام، ولم يطق تخيل ما حدث مع تذكرة اليانصيب. إنّه لأمر بشع مفزع، استيقظ في الصباح مخدراً منهك القوى، ولم يوقظه قليلاً وينشّطه إلا الماء المنعش البارد كالثلج. كان الفصل يعج بالضجيج في الداخل، جلس سريعاً في مكانه بالمقعد الأول، لم يصدر منه صوت، تخفى وتسلل حتى لا ينتبه إليه أحد، أصبح أكثر نحافة بسبب رجفة الليل الّتي أصابته، شاحب مثل الفِطر، لم يستطع التفكير في التعلم أو الدرس، ولا يعرف بشكل جيد أي كتاب أحضره معه حتّى!

"أورتسي"، جلس على سطح المنضدة، مولياً ظهره لغرفة المعلمين، في مواجهة الفصل، وحكى وهو يمثل، أصغى الطلاب بأفواه مفتوحة، ضحكواضحكاً مكتوماً. قال "أورتسي":

– أنت شخص تتصف بالإنسانية...

وقلد البروفسور العجوز، أستاذ الجغرافيا، الذي كان من المعتاد السخرية منه والضحك عليه؛ كان الجميع يستطيع السخرية من صوته، لكن لم يكن يفعل ذلك أحد أفضل من "أورتسي" الذي أمال رأسه؛ وقال بصوت غريب من الحلق وهو يرمش كالعجوز:

– أنت شخص تتصف بالإنسانية، يا بني العزيز!

ضحكوا، ومن لم يكن مصغياً ضحك عندما رأوا أنه يقلد العجوز، إنّه لشيء جريء؛ فقد يدخل العجوز في أيّة لحظة، حينها شرع "أورتسي" يحكي إحدى الأحاديث المعروفة: ذهب العجوز إلى مصر كمعلم لأبناء الكونتات، وفي كل حصة تكلم عن دولة مصر: قال بصوت العجوز المنخفض: "عندما ذهبتُ إلى دولة مصر رأيت هناك قطاطين مصريين كبيرين قذرين!"– يندمج الفصل جميعه في الضّحك الخافت المتلجلج كهزيم الرّيح– "فتح طائر القطاط المصري فمه: فأمسكت بندقيتي البسيطة، ثم أطلقت عليه طلقتين!"– غاص الأولاد في موجة من الضحك بصوت منخفض، وانحنى جميع الموجودين في أقرب مقعد إلى الأمام، أما الموجودون بالخلف فقد رقدوا على مقاعدهم حتى اختبؤوا تقريباً. وأرهفوا لـ "أورتسي" الذي بدأ عندها في الحكي بصوت أكثر انخفاضاً، وبحركات وإشارات أكثر حيوية– "أصابت الطلقة العين اليمنى لأحد القطاطين المصريين، وعبرت منها إلى العين اليسرى للقطاط الآخر، ثم عبرت منها إلى العين اليسرى لأحد التماسيح، ثم قفزت منها مرة أخرى عابرة إلى العين اليمنى للتمساح الآخر: هذه المرة يا بني العزيز، انفقأت جميع الأعين الأربع للقطاطين المصريين".

دخل الأولاد في موجة من الضحك المكتوم، لقد كادوا ينشطرون أنصافا من شدة الضحك الّذين يحاولون كتمه رغماً عنهم، تحرك الفصل ببطء من الجانب الآخر، وتزاحموا حول "أورتسي". لكنه توقف فجأة عن الحكي، وبصوت آخر، نظر إليهم مقلداً البروفسور من جديد: "ويحك يا بنيّ العزيز، كم أنتم أشخاص عديمو النظر بتحامقكم هنا". كان لهذا أثر أكبر؛ لأنه لم يكن هناك حصة لم يسمعوا فيها بعض آلاف المرات "شخص عديم النظر". قال ولد من الخلف:

– سيدي الأستاذ، هل تحلم بهذا؟

رد عليه "أورتسي":

– أنت شخص عديم النظر! لست من الأشخاص المحترمين: قف هنا بجواري.

عندها ضحك "ميشي"، استلقى إلى الخلف على المقعد، فتح فمه وأغمض عينه، أثناء ذلك أتى المدرس العجوز، صعد المنصة، وثب الأولاد في لحظة إلى أماكنهم، أما هو فمازال جالساً يضحك بفم مفتوح ورأس مائل، لاحظ حركة ما، لكنه كان متعباً بسبب بكاء الليلة الماضية، فبقي بمعدة خالية مؤلمة، وضحك فحسب. خيم صمت، أفاق، حك وجهه ورأسه

ورقبته، تثاءب، ودمعت عيناه، عندها سمع صوت المدرس، صوت حقيقي بالفعل، من على المنصة:
– "ميهاس نيلاش".
وكأن صاعقة ضربته، لم يرد الوقوف، مستحيل. ظل جالس لوقت طويل حتى سادت حركة واضطراب، الجميع ينظر إليه. عندها نهض واقفاً شاحباً كالموتى، نظر إلى المدرس بعينيه الطاعنتين الغامقتين، وجهه واهن، وثبت حاجبيه الصغيرين الجامدين إلى العجوز بعناد كأقواس مرفوعة، دقيقة. كانت العادة أنه يجب الخروج بدون كلام إلى السبورة التي كان معلقاً عليها خريطة فرنسا وشرح الدرس اليومي. نظر "أورتسي" و"جيماشي" بفزع، ماذا يريد. وقف "جيماشي" ليفسح له طريقاً للخروج. "مشى" بصعوبة حتى السبورة بخطوات مترنحة، ووقف أمام الخريطة.
– حسناً، يا بني العزيز، ما الواجب الذي أعطيته لليوم؟
أنصت "ميشي"، أغمض عينيه للحظة، ودار العالم به دوراناً شديداً، عليه أن يفتح عينيه حتّى لا ينهار ساقطاً. التفت إلى الخريطة بتردد، بدت باهتة غامضة، تمتد مثل منديل مبهرج بجانبها الشريط الضارب في البحر، وتسيل بقعة الجبال البنية من عليها من الجانب الأيمن، نحو البحار الجنوبية. قال المدرس:
– حسناً، فرنسا، أليس كذلك؟ كيف هي فرنسا هذه، إنها توضح صورتين أليس كذلك، في الشرق جبال في الغالب، في الغرب مناطق سهلية، في الجنوب/ ماذا يوجد في الجنوب، ماذا تسمى تلك الجبال السميكة في الجنوب.
انتبه طلاب الفصل بشدة، لم يفهم أحد "نيلاش" الذي بدا وكأنه قد شل، لم ينطق ببنت شفة. ولم يتحدث، تذكر ببطء الحصة الماضية، لم يكن منتبهاً حينئذ أيضاً، لكنه تعرف ببطء في الخريطة على البرانس[26] "Pireneus"، خطر بباله معبر رونسيسفاليز "Roncesvalles"... – قال في نفسه: رونسيسفاليز... رونسيسفاليز... هذه الجبال الكبيرة تفصل تماماً الأراضي الفرنسية عن الأسبانيين. لكن أين يمكن العبور؟ عبر أي معبر؟.. Ron ...Ron... معبر رونسيسفاليز، قال "ميشي" في نفسه: رونسيسفاليز... رونسيسفاليز. الأستاذ العجوز الصغير، النحيف كأنه قد تم تجفيفه في فرن الحياة، لكنه كان وردي اللون وخريفياً أبيض كبياض الحمام، غضب فجأة كعادته:
– بني العزيز، أنت شخص عديم النظر...
فكر حينها فيمن يقف في مواجهته، ذلك الشخص الذي يجلس في المقعد الأول الصغير عديم النظر، لكن المدرس العجوز، معلم الكونتات سابقاً كان متأصلاً في نفسه الاحترام والوقار. ندم على ما نطق به، وأراد إصلاح ما فعل، فنزل من كرسيه وذهب إلى الخريطة، بدأ في شرح الدرس كلمة كلمة كما فعل في الحصة الماضية. وهكذا تحدث لمدة ربع ساعة كاملة. كان يقول "ميشي" دائماً في نفسه أسماء تلك الأماكن التي يهم العجوز بالإخبار بها: جبال جورا[27] "Jura"، هضبة "Kotdor" و"Langréi"... وكذلك كل من أردين[28] "Ardennek" والسيفين[29] "Cevennek"... تذكر كل شيء، لكنه أطبق فمه بعناد أكبر، ولم يكن لينطق بها حتى لو ضربوه حتى الموت.
واصل العجوز حديثه:
– هنا أوريناس[30] "Aurignac"، في 1852 كشف إلى النور أحد مصلحي الطرق مقبرة قديمة، من حقبة زمنية قبل التاريخ، وعثر في المقبرة على هياكل عظمية بشرية وعظام حيوانات منقرضة من العالم البائد، وعظم دببة كهفية وضباع وأسود كهفية وماموث كهفي ووحيد قرن كهفي، هذا يثبت أن الإنسان عاش في وقت واحد مع هذه الحيوانات.
نظر "ميشي" إليه متعجباً، لقد تحدث العجوز عن هذا في الحصة الماضية أيضاً، عن الإنسان البدائي القديم، لكنه لم يدرسه من قرب مثل الآن، قال الأستاذ العجوز الآن، في 1852، وكأن ذلك قد حدث العام الماضي، هكذا قال له، الذي ولد بعدها بثلاثين عاماً تقريباً، كان هذا العصر القديم نفسه قريبا منه، وفجأة ظهرت أمامه صورة ما غامضة بشأن أن الإنسان القديم يختبئ في كهف واحد حيث يوجد دب وأسد وماموث. لكن كيف وجد الماموث مكاناً كافياً له هناك؟ تركزت عينه وانصب تركيزه على المدرس، وبدأ يشرح وهو يميل نحوه.
– في حقبة ما قبل التاريخ فذلك التّعريف طبيعي جداً؛ لأن التاريخ لا يعرف مثل أسلوب الحياة هذا، لكن التاريخ يبدأ من

أول أمس فقط، لقد تمّ بناء الأهرامات المصرية منذ أربعة إلى خمسة آلاف عام، في المقابل، الجمجمة التي وجدوها هناك، وأين كان ذلك، هنا بجوار دوسلدورف[31]، حسناً، تنطق بعدد لا نهائي من المرات باسم الإنسان.

عانى العجوز بشكل محرج بسبب ذاكرته، وذكره "ميشي":

– "نياندرتال".

قام الأستاذ العجوز بلمس كتف التلميذ الصغير:

– هناك، نعم. جمجمة "نياندرتال" وجدوها في شكل راسب فيضي قديم في أسفل طبقاته، إلى أن ترسبت الطبقة الفيضية وعليها الطبقة الرسوبية، هذا الوقت يقدر بمائتي إلى ثلاثمائة ألف عام على الأقل. فإذا كانت جمجمتنا النياندرتالية عمرها ثلاثمائة ألف عام، فمن الممكن أن يكون عمر البشريّة أكثر بكثير، لكننا سنبقى عند ثلاثمائة ألف عام فقط، فما ترتيب ذريتها التي حملت الأحجار إلى الأهرامات؟ لا يسمح بقول كلمات بلا مبالاة بشأن هذا أو ذاك، كانت قديماً، في الماضي القديم. بالنسبة لك يعتبر قديماً ما حدث في سنوات طفولتك، لكن هذا يعتبر بالأمس بالنسبة لي؛ لأنني صرت أستاذاً منذ ثلاثين عاماً، وحتّى ولدت أنت.

وما كان قديماً بالنسبة لي، في تاريخ هذه الأمة المجرية، فهو مازال اليوم، حيث أن الدولة المجرية قامت منذ ألف عام! وإذا نظرنا تاريخياً، بالنسبة لنا أرباض "Árpád" كان قديماً، رغم أن الحرب البيلوبونيسية مقارنة به تعد من العصور القديمة، وتعد الإنشاءات البابلية مقارنة بها أقدم، وعندها نهاية التاريخ... أربعة إلى خمسة آلاف هو عمر التاريخ كله، ذلك الذي نستطيع أن ننظر في ذاكرته عبر أشياء مكتوبة أو منحوتة... وها هي شبه الجزيرة الفلوريدية ذات التشكيل المرجاني التي تشكلت طبقاً لحسابات أجاسي خلال مائة وخمسة وثلاثين ألف/مليون عام، وهكذا وفقاً لعمق عظمة الذقن البشري الذي وجد فيها، فإنه من الممكن أن يبلغ عمرها حوالي عشرة آلاف عام، وعظمة الذقن تماثل عظم ذقن الإنسان حالياً، إذن، كان الإنسان مؤهلاً بنفس قدرات اليوم، لكن الظروف الحياتية كانت مختلفة فحسب، لكن جمجمتك النياندرتالية شيء آخر، هذه هي الأقرب إلى جمجمة القرود، الآن طابق بين الثلاثمائة ألف والثلاثة آلاف، هناك اختلاف كبير بين أن يكون لديك ثلاثمائة فورنت وأن يكون لديك ثلاثة فقط أم لا، وهكذا نحن نعرف قليلاً جداً عن تاريخ الإنسانية القديم: بما يقابل ثلاثة فورنتات فقط!

وكان في القسم الأخير من الفصل، ضحك وحركة وتدافع، لكن "ميشي" ظلّ متأملاً ينظر بعين متقدة إلى العجوز الصغير الحجم الذي تبدو عظام جبهته، جلده وردي ذابل باهت، تنتشر فيه الأوردة الزرقاء، ويداه ضعيفتان ومرتعشتان، ومن تعب الشرح أوقف الصور واضطر للجلوس. كان صديق "يانوش أراني" "Arany János"، أخبر بذلك عنه. نظر خلفه، فكّر في "يانوش أراني". صافحت يد "يانوش أراني" يد ناظو "Názó" العجوز عندما كان ناظو الشاب، عاد المدرس العجوز إلى الكرسي بصعوبة، وحنى رأسه ونظر أمامه لبعض الوقت، فوقف ولد في وسط الفصل واعتذر من الأستاذ الذي نظر إليه مضطرباً ومتفاجئاً، ووضع يده على أذنه الكبيرة كالخفاش، لأن سمعه ضعيف ولا يسمع إلا الصوت المرتفع، وسأله عما يريده، فقال التلميذ:

– معذرة سيدي الأستاذ، ألا ترغب في تسجيل الغائبين؟

– ها؟

صاح الولد بأعلى صوته مكرراً الجملة التي سبق أن قالها، فأخرج السيد العجوز سجل الفصل بسرعة وعصبية وفتحه استجابة لما قاله التلميذ، كمن يشعر أن عليه أن يكون دقيقاً لكنه لا يتحمل هذه الدقة. فتح السجل، ودوّن فيه.

– أي يومنا هذا؟

صاح الفصل بالكامل بشكل جماعيّ بأنه الخميس! كتب المدرس بحروفه المرتعشة الأمور اللازمة، ثم أكمل برأس ينظر إلى الأسفل:

– تواجد الإنسان قبل التاريخ، أي حقبته الزمنية التي لا يوجد شيء عنها، ليس فقط كتابياً، وإنما في الأقوال المتداولة بين

الأفواه، هذا مما لا شك فيه. مرت مئات الآلاف من السنين إلى أن فهم آخر عظيم لعالم الحيوان، الإنسان، تطوره العقلي حتى ترك للعالم القادم مؤخراً إشارات وعلامات أكيدة عن وجوده لا يساورها شك، من هذه العلامات الأدوات الحجرية والعظمية يمكن من الوهلة الأولى التعرف بها على أنهم كانوا يعملون يدوياً وبما تيسّر من أدوات بدائيّة. ومن هذا الأواني الصلصالية البدائية والحليّ البسيط، يبدو عليها أنهم لم يقوموا بشيها في الأفران أو النار فحسب، وفي المقام الأول المقابر القديمة أيضاً، والتي نتحدث عنها الآن، وهذه المقابر القديمة أيضاً التي تعلّمنا شيئين بدقة لا تخطئ أن العيش في جماعة والأخلاق فطرتان بشريتان للإنسان مولودتان معه مثلما نجدها فطرة مولودة في حيوانات أخرى أيضاً؛ مثل النحل والنمل، لقد وجدت القوانين الأخلاقية لدى الإنسان قبل القوانين المدنية، تلك إذن أقدم وأقوى الأركان للحياة البشرية من هذه الّتي عليها الآن.

خفض رأسه وساد ضجيج صامت طويل لم يلاحظه، لقد نسي "ميشي" وفرنسا والفصل، وبقي بين أفكاره الخاصة؛ لأنه كان يعمل في دراسة عن العصر القديم "لدبرتسن"، وتطرق إلى: "وهذه العصور لا تختتم بشكل منتظم كما يعتقد غير الخبراء، فالمجريون مازالوا يعيشون في دبرتسن اليوم أيضاً بأدوات العصر الحجريّ والعظميّ. الرعاة والأجراء في هورتوباج مازالوا يستخدمون اليوم الـ"تشورجولو" وهي أداة مصنوعة من عظم ساق الخرفان، يوجد في أحد طرفيه أداة عظمية حادة وفي نهايته الأخرى أداة عظمية مثقوبة، ويقومون بفك بكرات الحبال بها، كما توجد أداة شد شريط السروال معلقة في كل منازل الفلاحين تحت المرآة، وهي مصنوعة من العظمة الوسطى لجناح الإوز، ولها طرف مثقوب".

علا الضحك عند هذه الكلمة، وقد كان الجزء الأكبر من الفصل منشغل بتركيز مقسّم بالأشياء الخاصة الصغيرة، يبدّلون زراً أو يبرون قلماً، يتحدثون بصوت منخفض، يضحكون، يديرون الاختبارات الكتابية بينهم، وبعضهم يقوم بإعداد الأمثلة لحصة الحساب.

– أذكر هذه الأمور؛ لأنه يجب الحذر بشدة عند تقدير القيم المحددة للحدود الزمنية للأشياء التاريخية القديمة. لقد وجدوا في جزر ملايو العديد من الشعوب التي مازالت تستخدم إلى يومنا هذا الأدوات العظمية والحجرية، لكن الشعوب المتطورة صناعياً يصدرون أدواتهم المتقنة إلى كل مكان بسعر رخيص، باحثة عن أسواق لبضائعها. ثمّ إلى أي مدى — مثلاً – معروفة الموسى، أنا نفسي رأيت في مصر (همس وحركة) أن الحلاقين هناك لا يستخدمون موسى فولاذية وإنما يقومون بإزالة الشعر من على الجسم بشفرة حجرية سبجية (ضحك مكتوم)، شفرة يمكن جمع مثلها بعدد الحقائب في المجر أيضاً. على سبيل المثال في حدود دبرتسن هناك موقع مثير جداً من هذا القبيل هو وادي كوفاش "Kovás–völgy"، يسميه الكثير خطأ وادي كوفاتش "Kovács–völgy"... في الجانب الجنوبيّ على التلال الرملية الموجودة بجوار الطريق السريع بديوساج "Diószeg"، قاموا بتوزيعها في الخمسينيات على المزارع ومنذ ذلك الحين تشتهر بالأراضي اللعينة.

صاح ولد:

– لدينا هناك أرض لنا.

— في مكان حيث...

لكن الولد نهض واقفاً:

– معذرة السيد الأستاذ...

فزع العجوز:

– ماذا، ماذا، ماذا؟

ومد كفه المفرج الأصابع إلى أذنه.

– معذرة سيدي الأستاذ، السيد "لايوش أونودي" "Ónodi Lajos" يقول أن لديهم أرض هناك بالأراضي اللعينة.

أشار الأستاذ العجوز له بالجلوس، وواصل حديثه:

– في ذلك المكان، سهّل طريق للعربات فُتح بجانب التل، حيث لعقت الرياح بشكل جيد الجانب المنحدر للتل الرملي.

عندها انفجرت الضحكات الشديدة والقهقهات، بحيث لم يكن ممكناً سماع كلماته التالية، سألوه بشكل ساخر:
– ماذا لعق؟ من لعق؟
فسأل الأستاذ العجوز واضعاً يده على أذنه مرة أخرى بشكل كوميدي:
– ماذا؟ ماذا؟ ها؟
لم يرد عليه أحد، فقط كانوا يضحكون بشدة، عندها أساء السيد العجوز فهم الأمر، وقطع حديثه، وقال:
– مضحك أصل اسم "اللعينة"، خلال رئاسة تشوربا "Csorba" للبلدية، باعوا من المراعي العامة مساحات صغيرة منفصلة، لكن الشعب الفقير غضب ولعنوا المساحات التي أخذوها منها، وهكذا أصبحت أرضاً لعينة حتى اليوم.
لم يكن هذا الأمر يعني الأولاد، والسيد العجوز يتحدث دائماً كأنه يتناقش مع أشخاص أذكياء مثله، وقف الطالب الذي سأل، وقال:
– معذرة سيدي الأستاذ، لم يُفهم من لعقها...
حدق فيه السيد العجوز بشدة ثم غضب ونهض واقفاً، صاح فيه بصوت كصوت العوسق:
– أنت عديم النظر يا بني العزيز، شخص عديم النظر! لست من الأشخاص المحترمين: تعالَ، قف هنا بجواري!
خفض طلاب الفصل رؤوسهم وضحكوا، إلا "أورتسي" لوى رأسه باستنكار، ارتبك المدرس كأنه فهم تراجيدية وضعه، استجمع قواه والتفت إلى "ميشي"، وشرح له أن الرياح كشفت هناك بشكل جيد أشياء من العصر الحجري كانت مغطاة تحت الرمال.
– يشير هذا إلى أن ريف دبرتسن كان مسكوناً في العصر الحجري بالفعل.
كان "ميشي" سعيداً لأنه يتحدث إليه بمفرده، وتأثر بشكل كبير، وفهم كل ما قاله المدرس، شعر أنه تلقى اليوم دراسة عميقة وأبدية، وتوجهت روحه الصغيرة نحو العجوز ضئيل الحجم، نهض "أورتسي"، طالباً أن يسأل، ورد عليه الأستاذ بالموافقة:
– بكم سنة يقدر وجود العصر الحجري في دبرتسن قبل المسيح؟
– أوه! كم سنة قبل المسيح! إنه من العصر الحجري الحديث! للأسف ليست لدي معلومات حول اكتشاف شيء من العصر الباليوثي في مكان ما بوطننا. أما العصر النيوليثي فهو العصر الحجري الحديث، عصر الأدوات الحجرية المصقولة.
– نعم، معذرة سيدي الأستاذ، لكن هل كان العصر النيوليثي قبل المسيح؟
رفع المدرس يده:
– أين كان المسيح حينذاك! لم يعش المسيح إلا بالأمس! عندما عاش المسيح كنا قد تجاوزنا العصر البرونزي والنحاسي اللذين تبعا العصر الحجري وكنا في العصر الحديدي. كما أن الإنسان مخلوق بقائي يدخل بعض التغييرات على صقل الأدوات الحجرية المعتادة، وعليه أن يمر بآلاف من السنين، كيف يمكن إذن التحدث عن أرقام السنين يا بني العزيز: بكم سنة قبل ميلاد المسيح... والمسيح نفسه!
أخرج من جيبه حزمة من المفاتيح وفتح درجاً بالمنضدة.
– هذه القطعة من الحجر مطرقة مكسورة نصفين، انكسرت من عند الثقب، هذا الطرف الأدق من رأس المطرقة، إنها قطعة رائعة، يمكن أن تكون حديثة ومن العصر النيوليثي، عمرها لا يتجاوز ثلاثة أو أربعة آلاف عام بحد أقصى. لكن أين هذا من بداية العصر الحجري، من صخر الأوبسيديان الناري! يوجد بينهما مائة ألف عام على الأقل، يمكن فرض امتداد العصر الحجري للإنسانية إلى مائة ألف عام على الأقل أو مائة وخمسين أو مائتي ألف عام.
سأله "أورتسي" بعناد:
– قبل المسيح أم من الآن؟
احمر وجه المدرس غاضباً.

– أنت حمار، يا بني العزيز، مثل أبيك! تعالَ، قف هنا بجانبي!
أسرع "أورتسي" بانتعاش وانتباه إلى المنصة وصاحَبَه ضحك التلاميذ المرتفع، لوح من المنصة لطلاب الفصل أن يتركوه، عليهم ألا يضحكوا الآن.
– انظر إلى هذا الحجر، هل ترى كم هو مصقول بشكل ناعم؟ صُقل بأداة ما، منذ ميلاد المسيح مضى وقت قليل حتى أن ذلك الوقت في ذلك العصر الحجري لم يكن كافياً لظهور الأداة، التي كانت ضرورية لصقل هذه المطرقة. يوجد هنا هذا الحجر الآخر، إنه أداة حجرية لم يترك الحفر فيها إلا ثقباً مناسباً لأن يضع الإنسان فيه أصبعه، وكان ضرورياً للإمساك بها بشكل قوي، توصلت الإنسانية إلى أنه سيكون من الجيد أن تساعد نفسها بثقب من هذا القبيل، يا بني العزيز: حتى ذلك الحين مر وقت يبلغ عشرين ضعف الوقت من ميلاد المسيح حتى الآن. لا يوجد استحقاق للسؤال إذن. إذا حسبت أنا مائتي أو ثلاثمائة ألف عام فلن أحسبها من ميلاد المسيح ولا من تاريخ سجل الفصل اليوم، وإنما.
قال "أورتسي":
– منذ خلق العالم.
صاح المدرس:
– منذ وفاة جدك! من أين سأحسب؟
أشار إلى "ميشي" الذي كان مازال واقفاً أمام الخريطة، وتشرب كل كلمات المعلم بشره، قال "ميشي" وهو يهز كتفه:
– هكذا فحسب.
صاح المدرس، رافعاً ذراعيه:
– هكذا فحسب! نعم بالفعل، هكذا فحسب! بشكل تقريبي! لمجرد ان أقول حداً زمنياً حينذلك فحسب... اذهب إلى مكانك!
كان "أورتسي" مجروحاً يعض شفتيه، ضايقه الأمر. قبل أن يجلس نظر إلى المدرس، رأى أن المدرس لم يكن يراه فالتفت للخلف ووضع يده بجوار أذنه مقلداً العجوز، سرى ضحك في الفصل، رن الجرس، أخرج المدرس مدونته وكتب "لميهاي نيلاش" التقدير الأول بخط كبير، وقف "إمرا بارطا"، وحدق به.
– جيد جداً يا بني العزيز، يمكنك أن تذهب إلى مكانك.
وعندما خرج علت الأصوات في الفصل، قال "فري سجدي" "Szegedi Feri":
– إنها حماقة، لم يتكلم وحصل على الامتياز، ولو كنت قمت بشرح الدرس لأعطاني التقدير الثالث، تباً له!
ضحك كثيرون، لكن الجزء الأكبر من التلاميذ الفصل يسرعون مندفعين إلى الفصل الآخر بالطابق الأرضيّ. قال "سجدي"هذا وهو مجروح.
ونظر إلى "ميشي" الذي سمعه ولم يرد عليه، لأنه يعتقد أن "سجدي" محق، رغم أنه يعرف أن المدرس شعر أنه ينتبه ويفهم، وقف "طانينباوم" في صف "ميشي":
– لقد أجاب بشكل جيد؛ رغم أنه لم يقل شيئاً من درس اليوم إلا أنه قال ذلك الشيء، البالونتال[32] أم ماذا، حسناً...
وضع كتبه، وفتح كتاب الجغرافيا حتى يبحث عنها؛ لأنها كانت مكتوبة، وكتب بقلم الرصاص تلك الكلمة التي أجاب بها "ميشي"، صاح "سجدي" بأن كل إجابته أن قام بهز كتفه، هاجمه "جيماشي" مثل الفلفل:
– وإذا قمت أنت بهز كتفك فستحصل على التقدير الرابع، وعندما يقوم "نيلاش" بهز كتفه يحصل على امتياز، هذا هو الوضع بالفعل.
صاح "سجدي":
– أنتم تجاملون بعضكم البعض، مقعد ممتاز!
وبصق في اتجاههم. الكتب كانت تحت إبط "جيماشي"، لكنه أسرع إليه مثل التيس ونطحه وسقط "سجدي" على

المنصة، تبادلا اللكمات، تناثرت كتب "جيماشي"، وضغط يده البيضاء الصغيرة على رقبة "سجدي" الذي ضرب رأسه بقبضة يده، وضرباته تصيب رأس "جيماشي"، ولأن شعر "جيماشي" كان محلوقاً بالآلة فقد كانت الضربات تصدر صوتاً كالفرقعة، غير أنها لم تكن تؤلم "جيماشي"، الذي قام بضرب "سجدي" حتى سال الدم من وجهه، عندها أقحم "إمرا بارطا" نفسه عبر المقاعد وقام بالفصل بينهما، طالباً منهما التوقف، صاح "سجدي" ودمه ولعابه يسيلان بأنهما سيدفعان الثمن ذلك، ونظر إلى "ميشي" مهدداً فلتأتِ ناحيتنا فحسب! كان "ميشي" مضطرباً وخائفاً، تذكر أن "سجدي" يسكن بالقرب من المكان الذي يسكن به تلميذه، قال باكياً:

– ماذا فعلت لك؟

وقال "جيماشي":

– سوف أمسك بهذه الأذن القذرة وأنزعها نزعاً أيها المسكين.

صاح "طانينباوم":

– "نياندرتال"، "نياندرتال"، "نياندرتا"!

لم يفهم أحد لماذا صار "جيماشي" غاضباً لهذه الدرجة، كان أصغر جسماً من "سجدي"، لكنه استطاع مصارعته جيداً، عندما دخلوا الفصل كان يسير "جيماشي" في المقدمة ثم "طانينباوم" بعده، أصبحت تربطهما صداقة جيدة في الفترة الأخيرة، في الخلف "جيماشي" بصمت وحزن. عندها هتف أحد "لجيماشي"، وقال المحيطون ضاحكين، فليحيا الـ "köppincs"[(33)]! قال "جيماشي":

– لا تتحامقوا!

لكنه ابتسم وأعجبه ذلك، رغم أنه اعتاد أن يغضب قليلاً بسبب كلمة "köppincs". قال ذات مرة في حصة أن عندهم في ترانسيلفانيا لا يقولون "koppant" وإنما "köppincs"، وهذا كان مجرد ابتكار من عنده، لكنه أصر بشكل عنيد عليها. خاف "ميشي" لأن الحصة التالية هي حصة اللغة اللاتينية، وإذا قام المدرس باستدعاء تلاميذ فيها للإجابة أيضاً فلن يستطيع التخفي بسهولة. فجأة أصبح أمراً مريباً بالنسبة له أن "ميهاي شاندور" تحدث مع "أورتسي"، ثم أتى "أورتسي" إليه بعدها وقال له بشكل حاسم:

– هل سحبوا الأرقام، يا "ميشي"؟

طأطأ "ميشي" رأسه.

– يمكنك أن تخبرني بذلك، فلدينا طباخة عجوز تفهم في اليانصيب، وتضع فيه كل أسبوع ورقة نقدية بقيمة عشرة كرايتسارات، اعتدنا تشجيعها إلى أن يتم السحب. إنني متخصص في اليانصيب، كذبك عليّ بلا جدوى، أرى ما بداخلك مثل الزجاج. اللعنة عليك وعلى الزجاج!

الجرس دق ودخل السيد الأستاذ "جيراش". بسبب اضطرابات حصة الجغرافيا لم يكن أحد في مكانه. وقف السيد الأستاذ "جيراش" أمامهم، مرتدياً قفازاً، أشار متسائلاً عما يحدث، فعاد كل واحد إلى مكانه. صعد المعلم المنصة، وفتح سجل الفصل، وأخبرهم بأنه لم تكن هناك حصة، صاح الكثير من التلاميذ بأنه كانت هناك حصة، وصاح آخرون بأنها جغرافيا.

– أيّة حصة كانت؟

نهض "أورتسي" قافزاً وصاح بصوت مرتفع:

– معذرة سيدي الأستاذ، من فضلك...

نجح في توجيه الانتباه إليه، رغم أنه لم يكن هو المتحدث، لكن السيد الأستاذ "جيراش" لوح إلى الآخرين بالسكوت ونظر إليه، فأجاب بأنها كانت حصة جغرافيا.

– ولم يقم السيد الأستاذ بتسجيل الحصة؟

– بل فعل سيدي الأستاذ.

قلب السيد الأستاذ "جيراش" الورقة، وصفحات السجل مشيراً إلى أن الحصة لم يتم إثباتها، أسرع "أورتسي" إليه وقلب معه، وكانت حصة الجغرافيا مكتوبة بعدها بصفحتين. ابتسم السيد الأستاذ "جيراش" وشكر الانتباه وأرسل "أورتسي" إلى مكانه. قال:

– السيد الأستاذ يعتقد أنه في خلال مائة عام ستتغير الأحوال.

ضج الفصل بضحك شديد وصاح "أورتسي" بصوت أعلى من الجميع:

– في خلال مائة ألف عام!

ما قاله كان غريباً، حتى أن السيد الأستاذ "جيراش" نظر إليه بانتباه، يسأله عما قاله، ونهض "أورتسي":

– معذرة يا أستاذ، إنه لا يحسب هذا الشيء للإنسانية إلا بمئات الآلاف من السنين، الإنسانية، حتى أن تطور الأدوات لا يمكن رصده إلا بمئات الآلاف من السنين، تطور الأدوات الحجرية.

استند الأستاذ "جيراش" بظهره على الكرسي ونظر إلى "أورتسي" وكان على وشك الضحك، تفاجأ من الملاحظة المصيبة والحادة لذلك الولد، ولم يرد إلا بقوله ممتاز جداً، أشار له بالجلوس وللجميع بالسكوت، ونادى على "سانتا" "Szente". كان يجلس في المقعد الأخير ولم يكن مهتماً بشيء سوى غزل الكرات، كان يجب النزول إليه، وبقي بجواره حتى نهاية الحصة، وتدرب معهم على التحليل ومع جميع الجالسين بالمقعد الأخير، لذا كان بإمكانهم التحدث قليلاً، نكز "أورتسي" "ميشي" في جنبه بإصبعه الأوسط، سائلاً عن تذكرة اليانصيب.

– رددتها للعجوز.

– وهل تتذكر الأرقام؟

– لا.

– أنت حمار للغاية. إنه أمر هام!

صمتا قليلاً؛ فلم يكن ممكناً إجراء "محادثات خاصة" بجوار "جيراش"، كما يسميها هو، بعدها مال إلى "ميشي":

– يمكنك كسب مال كثير بها! عندما أخبرت أخي الكبير هنريك أني أضع عشرة كرايتسارات قي اليانصيب وأكسب أربعة فورنتات وسأشتري بها زوجاً من الزلاجات قال لي: "يا صديقي، إذا دخلت في اليانصيب سأرغب في أن أربح أموالاً كثيرة، وليس أربعة فورنتات، ولا حتى ألفاً، وإنما أموال كثيرة!" لذلك أقول إنك لا تعرف حقيقة الأمر.

لم يتكلم "ميشي" وانطوى على نفسه مثل القنفذ، وكان يحتاج أن تبدأ فقد تزيد أمامه إمكانية فوزه، لم يستطع التحدث وهو يؤنبه. انحرف "ميشي" ناحية "جيماشي" الذي أحبه اليوم، لأنه دخل في عراك بسببه. كان "جيماشي" يضع يده على قمة رأسه باستمرار، سأله إن كان رأسه يؤلمه من أثر الشجار.

– سوف أريهم إذا تعرضوا لك، سوف أدفعهم إلى الجدار حتى...

لكن "جيماشي" كان سيء المزاج وانعزل بنفسه، خشي أن يُعاقب لمشاركته في الحديث، بعد الحصة ذهب "أورتسي" إلى "جيماشي" الذي كان يعرف أنه على علاقة أفضل "بميشي"، وقال له:

– "جيماشي"، اعرف من "ميشي" أيّة أرقام وضع في اليانصيب.

– لماذ؟ هل فاز؟

– إنه لا يعرف أيّة أرقام وضع.

حدق بعينيه اللتين لا يوجد فوقهما حاجب، وتدور عيناه الصغيرتان الرطبتان المنحرفتان اليابانيتان بثقة مريرة وتعجب.

– سوف يعرف عندما أقوم بلكمه، لأنه صعب المراس مثل الحمار البري، لكنني أعرف مفتاحه، سوف (أكعبله) بقدمي فيسقط ثم أقوم بتوجيه لكمات إليه بيدي حتى يصبح ليناً.

لكن "ميشي" كان جالساً يبتسم ولم يتكلم، ما كان سيعطي الأرقام مقابل الكثير، إذا لم يذكر أحد اليانصيب أكثر من ذلك، صاح "جيماشي":

– هل ستقول أم لا؟!
– دعوني وشأني!
قال "جيماشي" بعصبية متزايدة وبصوت عالٍ:
– لست أنا العجوز "ناظو"، هل فزت أم لم تفز؟
– لم أفز؟
– أخبرني بالأرقام! أخبرني بها! ألا تريد الإخبار بها؟ لأنني سوف أنزع الأرقام من هذا حتى تنفرط منه!
عندها أمسك برقبة "ميشي" بمزاح وعينه متقدة، وبدأ في هزه، قال "ميشي" بلين وحب، وكاد أن يبكي بسبب ذلك:
– لا تتحامق بالفعل!
– ستخبر بها أم لا؟!
– لا!
عندها أمسك "جيماشي" برأسه بكل قوة وضربه على المنضدة غاضباً، لم يستطع "ميشي" أن يتماسك، قال "جيماشي" كأنه قد جن:
– ألن تقول، ألن تقول؟
رأس "ميشي" تؤلمه، نهض ووجه ضربات إلى "جيماشي" النحيف في صدره بمرفق يده وسقط خارج المقعد. ظل راقداً هناك يتنفس بصعوبة، خاف "ميشي"، ومال عليه بوجه شاحب مرتجف، يساعده في النهوض. لكن "جيماشي" نهض سريعاً وقفز إليه يضرب رأسه مثلما فعل مع "سجدي". تحلق الطلاب حولهما، عند الضربة الرابعة حمى دم "ميشي"، في البداية لم يحمل الأمر على محمل الجد، وبعدها فقد عقله ووثب على "جيماشي" ولكم وجهه، ثم احتضنه وطرحه أرضاً، شعر وهو يمسك برقبته النحيفة الصغيرة بقبضة يده ويضغط عليها دافعاً إياه إلى الأرض، اعتقد أن رقبته ستنخلع بين أظافره. رغم أن "جيماشي" ضربه، ولم يكن مجدياً، استطاع أن يبرك فوقه بركبتيه، وعندما رأى وجهه الصغير النحيف تحت ركبتيه وهو يعاني بشدة بين يديه بغضب وكره كبيرين، وبدون تسامح مثل ديك رومي، انفجر في البكاء، نهض من عليه، جلس في مكانه، وبدأ يبكي وينتحب. بخجل نهض "جيماشي" وهو يلهث للانتقام، كان الجميع واقفين حولهما وشاهدوا العراك بدون كلام، وكان يصرخ "أورتسي" باستمرار:
– هل أصابكم الجنون، فلتفصلوا بينهما!
غير أن أولاد المدينة لم يعتادوا على التشاجر والعراك، أحاطوهما بانتباه شديد، وشاهدوا بدون ضحك ماذا سيحدث، تمتم "جيماشي" وأسفل عينه ينزف دماً دون أن يبكي:
– لا تصرخ هكذا.
لملم "ميشي" شتات نفسه وهدأ، سأل "طانينباوم" بيأس متزايد:
– علام تتشاجران، علام تتعاركان؟
قال "شانطا" بأنه لا يعرف السبب، وذهب إلى مكانه وجهز كراسة الحساب للحصة التالية، كان هو ولد مدينة بحق لم يكن يخرجه عن هدوئه شيء! "يانوش فارجا" كان يجلس خلفهما، مال على "جيماشي"، قائلاً:
– ما كان هذا حقيقة؟
قال "جيماشي" وأخذ يضغط تحت عينه بمنديل جيب:
– إن هذا فلاح دنيء.
تألم "ميشي" من هذه الكلمة، أحرقت قلبه، قرر أنه لن يتكلم مع "جيماشي" أبداً، الفصل هائج، وفي الخلف اندلع الشجار، الأولاد يوجهون لكمات إلى بعضهم بدون سبب، وكانوا يضحكون ويتبادلون الشتائم كالمجانين. دخل السيد الأستاذ "باتوري" متفاجئاً، رأى الطلاب يتدافعون، وبعصاه ضرب ضربة كبيرة على المنضدة، فأصبح الفصل كالغنم

الطائعة. في لحظة جلسوا ساكنين، كانوا يخافون السيد الأستاذ أكثر من خوفهم من النار، نسي "ميشي" حزنه ونظر إلى السيد المدرس متجمداً، جلسوا، وصاح السيد المدرس:

– ضعوا أيديكم على المقاعد!

بسرعة شديدة وضع كل واحد كلا كفيه على المقعد أمامه، أخذ يمرر السيد الأستاذ "باتوري" نظره عليهم كالأسد وقال:

– سأرى أنا... هل سيكون هناك نظام.

جلس عند سجل الفصل ونظر في ساعته. ونهض واقفاً وأمسك طبشورة ولفها في ورقة، أخذها بين أصبعيه وقال:

– القاعدة الثالثة!

توتر وانتباه في الحصة، هدّأتهم طاقة المدرس، تحدث طوال الحصة كجندي المشاة، باقتضاب وحزم وجدية.كانت الحصة الأخيرة تربية رياضية. جرى الجميع مهللين متحررين إلى صالة الألعاب الرياضية، صالة كبيرة في الطابق الأرضي، تفتح نوافذها على الفناء الخلفي، نصفها الأول مغطى بخشب الأرضيات، وثلث الصالة من الخلف مغطى بخشب قشرة بلوط فخم، ويمكن السير والوقوف والقفز على هذا الجزء جيداً، وإذا سقط أحد من على "حصان" الجمباز لم تنكسر رقبته. لم يحب "ميشي" التواجد هنا. يقف الخامس من الخلف في ترتيب الحجم. ويأتي بعده "جيماشي"، ثم ولد صغير يرتدي حذاء طويلاً، ويدعى "جوري تيكوش" "Tikos Gyuri"، وهو من أبناء الحضر، جاد لا يضحك. بني صغير قصير، لم يكن ممكناً التعارك معه، لأنه يخبر المدرس على الفور ليس خوفاً ولكن لأن الخضوع للنظام العام يسري في دمه. "ميشي" على علاقة طيبة معه. ويعجبه أنه يذهب للمدرسة بشجاعة مرتدياً حذاء طويلاً وملابس مجرية رمادية ذات شريط أسمر، وهو ما لم يكن بإمكانه إرتداؤه أبداً؛ لأنه لم يكن يعد من الفلاحين حتى في المنزل.

فهو ذو دم مختلط، لا فلاح ولا سيد، الأرجح يشعر أنه أصيل ينتمي إلى الاثنين بنفس الدرجة. يود أن يتراجع عما قاموا به أول العام من تبديل الأماكن، حيث قام المدرس بتنظيمهم، جلس بجواره "تيكوش" وتلاه "جيماشي"، كان عاشقاً "لجيماشي" العزيز، آلة الصفع الدنيئة، الذي لا يستطيع النظر إليه، أعطاهم المدرس ظهره، جذب ذراع "جيماشي" وسحبه إلى الأمام حتى يكون بجواره. بدا الاستياء على وجه "تيكوش"، وخشيا أن يخبر المدرس بذلك، لكنه لم يهتم بذلك؛ تلاه "بيشتا شيمونفي" "Simonffy Pista" ابن شقيق عمدة دبرتسن، كان التواجد بجواره أفضل من أي أحد آخر في الفصل. يركض باستمرار، ولديه الكثير من الأشقاء، أثناء الحصة يمر بالترتيب على الفصول، أحياناً بالصف الخامس، أو السابع أو الرابع، يجلس في كل هذه الأماكن، صغير جداً ويدللونه في الفصول الأجنبية، إذا دخل "بيشتي" حملوه على الأكتاف وأعطوه سيجارة وتحدثوا ومزحوا معه. ثم اعتاد حمل الأقاويل من الفصول الأخرى.

– تعرفون ماذا قال العجوز في الصف الرابع؟

يتحلقون حوله ويسألونه عما حدث.

– شخبط "تشوكا" "Csuka" على السبورة عندما دخل العجوز، ضرب بعصاه وقال: "ما اسمك أيها الوغد؟". رد عليه: "تشوكا..." — "تشوكا[34]، يمكنني رؤية ذلك من فمك... لكن ما اسمك الآخر؟"

أسرع "أورتسي" إليهم يضحك، لم يسأل علام يضحكون، بيشتي يسعى لإرضاء "أورتسي" بالتأكيد؛ لأنه يعلم أن أسرة "أورتسي" من السادة الأثرياء، لذا قام على الفور بتكرار ما قاله:

– ضرب العجوز على مؤخرة "تشوكا" في الصف الرابع لأنه شخبط على السبورة، وسأله ما اسمك...

قال "أورتسي" ملوحاً بيده أنه يعرف ذلك بالفعل:

– أرى ذلك من فمك.

– نعم.

– يسجّل "شاندور ناج" "Nagy Sándor" بكتابة سريعة ما يقوله العجوز، لقد اعتدنا أن نذهب جميعاً إلى زاوية شارع كوشوت "Kossuth"، وهو يخبرني بكل شيء يومياً. "بيشتي"، صحيح أن "جيراش" يتودد إلى "ماجدا مارجيتاي"

"Margitai Magda"؟
حدق "بيشتي" وقال بتفكر:
– إنه يذهب إلى هناك!
قال "أورتسي":
– حسناً، ومتى يذهب؟
– سوف أعرف ذلك بالضبط، سأذهب مساء اليوم لكشف ذلك.
ضحك "أورتسي":
– لقد قال "شاندور ناج" بالأمس أنه علم ذلك. غيور.
– من؟ "شاندور ناج"؟
– نعم، لقد كتب شِعراً "لماجدا مارجيتاي"، وأعطاه لها بالفعل بالأمس على الثلج، هكذا يبدأ:
سمعت كلمتك
ولم أسمعك،
نظرت في عينيك
ولم أرك.
قال أنه يدعو "جيراش" للمبارزة:
– "شاندور ناج"؟
ضحك "أورتسي" بفم مغلق، وكان "ميشي" يشتم بفم مفتوح، في هذه الدقيقة سُمع صوت ضخم:
– اصطفاف!
دخل المدرس من كابينته الجانبية، كان مكتوباً فوق بابها حرف (E) ثلاث مرات بشكل كبير، وبدأ الاصطفاف في صف واحد.
– فليستقم هذا الصف! ماذا هناك؟! من صاحب هذا البطن الكبير؟! احترس!
وقفوا ثابتين كالجنود.
– اللف... لف! واحد – اثنان، واحد! اثنان!
انطلقوا في الصالة الطويلة حتى النهاية، أحدهم وراء الآخر.
– واحد! اثنان! واحد! اثنان! واحد – اثنان، بالخطوة السريعة... واحد اثنان، واحد اثنان، واحد اثنان...
عندما قاموا بلفتين تقريباً عندها قال أخيراً:
– قف!
كانوا قد عادوا إلى أماكنهم للتو:
– استرح.
هذه بداية الحصة دائماً، يمل "ميشي" من حصة التربية الرياضية ويراها حماقة، صعدوا حصان الجمباز، وعليهم عبور الحصان المنخفض قفزاً، قام الكبار بذلك بسهولة؛ لتمتعهم بسيقان طويلة، أما الصغار فبقوا على ظهر الحصان، وأحسوا باستياء مدرس التربية الرياضية "إشتوك سوتش" "Szüts Istók"، وكان صغيراً سميكاً وبديناً، وله شارب أسمر صغير ، يتحدث بحزم، وكتفه وذراعه سميكان جداً يبرزان من المعطف، لم يفعل شيء أمامهم سوى إصدار الأوامر، يحب الأولاد الأقوياء، يمرنهم بشكل منفصل، الرياضي الجيد بالنسبة له هو من يأتي من المنزل قوياً، لا يهتم بالضعفاء، ويسمح لهم بدخول الصالة الرياضية لأنه أمر إلزامي، يشعر أنهم يزعجون التمرين. ينبذ الضعفاء وعلى مدار ثمانية أعوام لم يستطع معرفتهم، كان يستعد ليكون راهباً، لكنه تزوج، ولأن "إشتوك سوتش" كان زينة مدينة الطلاب على مدى اثني عشر

عاماً، فإنهم جعلوه مدرساً للتربية الرياضية بعد إحالة البروفسور "زابراتسكي" "Zábráczky" العجوز إلى المعاش. العجوز "زابراتسكي" كان يعلم الكتابة والتربية الرياضية؛ لأن المادتين لا تتطلبان مؤهلاً أو قدرات، مثل رجل العالم القديم، تلميذ أسقف قديم، "ميشي" حزين لفقد تذكرة اليانصيب وتشاجره مع "جيماشي"، لم يستطيع الركض إلى الحصان أو القفز إلى قمته، صاح "إشتوك سوتش":

– حسناً، ماذا سيكون إذن! هل انقطع الحبل؟

أراد "ميشي" أن يتجاوز الحصان من جانبه، يصيح المدرس عليه أن يحاول مرة أخرى، وظل مستنداً على الحصان، فشل في ثلاث محاولات، يأمره الأستاذ أن يركض، انطلق، وأثناء الجري حسم قراره ووقف، أخذ جانباً ولم يصل إلى الحصان، فتح "إشتوك سوتش" فمه، لوح له بإصبع مثني:

– ارجع! ارجع، ارجع! دعني أرى هذا الركض مرة أخرى!

وقف "ميشي"، وكان متعباً للغاية، أصر وبقي مكانه، يعد "إشتوك سوتش" من واحد إلى ثلاثة، لم يتحرك "ميشي".

– انغزوه في جنبه، لأنني لو نغزته هنا سيطير إلى الكنيسة الكبيرة.

برقت عيناه وشد أطرافه المخيفة، وقف للانقضاض على الولد. لكن "ميشي" كز على أسنانه ولم يتحرك، صرخ المدرس:

– ألا تلتزم بالطاعة والانقياد؟! عصيان!

خطا خطوة إلى الأمام، انتظر الأولاد خائفين ما سيحدث، عندها خرج "أورتسي" من الصف وقال:

– سيدي الأستاذ، "ميهاي نيلاش" مريض.

– لم أسأل!

"أورتسي" كان متحمساً، يسمح له أن يكون محامياً لمن ليس لهم أولياء ومن هم تعساء، لم يتراجع "أورتسي":

– معذرة: الحق حق!

حملق فيه "إشتوك سوتش" لاهثاً ومنتفضاً مثل ذكر خنزير بري، لاحظ أن قميص الولد أرق من قمصان الآخرين، وشعره مرجل بشكل أنعم، باختصار "قرد من السادة الأثرياء"، أثاره هذا مثلما يثير القماش الأحمر الثور، اعتبرها إهانة له، وانتقاد لأصله الفلاحي، وانصب كل غضبه عليه، صاح وقد تحول لونه إلى الأزرق من تدفق الدم، يطلب منه المثول أمامه، تقدم "أورتسي" بشجاعة إلى الأمام، صاح "إشتوك سوتش" وأشار إلى أمام قدمه أن يقف أمامها! اقترب "أورتسي" بحذر خائفاً غاضباً، ود ألا يتلقى صفعة، لم يكن بإمكانه فعل شيء، ثبت عينيه على المدرس بجمود وشجاعة، راقب الفصل بأنفاس محبوسة ما سيحدث. مرت دقيقة، "أورتسي" شاحب كالموتى ولم يتراجع. وفي المقابل، فكر "إشتوك سوتش" أن هذا الولد لم يفعل أي شيء آخر غير أنه سيء رياضياً وضعيف، وقال:

– حتى لا تتدخل في أمر الآخر، أيها الولد الثري.

رفع يده، وأخذ يبرم شاربه بحركة فلاحية، كعادة عندهم عند إخافة أحد، حركة يد تشير إلى توجيه صفعة، ثم يحول المزحة إلى برم شاربه، وقال:

– حسناً أيها الدودة، سيخرج هذا. إذا كان مريضاً فليذهب إلى الجحيم، وستقفز بدلاً منه! واحد، اثنان.

"أورتسي"، يتحمل في سبيل الحق، يستطيع تحمل صفعة بدل أن يقوم بهذا ساقطاً على قدميه، لكنه انطلق راكضاً، وتوقف لحسن حظه أمام الحصان ولم يستطع القفز، فعل ما فعله "ميشي"، ولم يكن لائقاً للرياضة، قال "إشتوك سوتش":

– حسناً! أهنئك! أي دود يرسلونه إلي هنا.

أحس "أورتسي" بالخجل والخزي، واستدار ودخل في الصف يضحك على نفسه. نظر "إشتوك سوتش" إليه، ورأى "ميشي" مازال واقفاً في مكانه، طلب منه الخروج من الصف، لم يتحرك "ميشي"، أراد أن يقول أنه ليس مريضاً، لكنه شعر بدوار، ترنح حتى الحائط، استند إليه وفقد وعيه ثم سقط على الأرض. نظر إليه "إشتوك سوتش" متعجباً، وطلب من زملائه أن يصبوا على رقبته الماء، نادى عليه "بيشتي شيمونفي" الذي كان أقربهم إليه وكان رياضياً بارعاً رغم صغر جسمه،

وأخبر "جوزوميشكا"! بوجود كوب ماء على المنضدة في غرفته، ركض وسرعان ما عاد بكوب غمس يده فيه وبدأ ينثر رذاذ الماء على وجه "ميشي"، عاد "ميشي" إلى وعيه متقززاً، شعر بعفونة شديدة، لم يكن في الكوب ماء، وإنما خمر مقطر. احمر وجه "إشتوك سوتش"، وسب نفسه. شم الأولاد رائحة الخمر المقطر وبدؤوا يضحكون، لكن "إشتوك" صاح أن يحذروا، ويقول أن هذا علاج لكل شيء.

– بارطا! كلمن! أجلساه على هذه العقدة من الحبل.

لم يقدّر إلا مساعدة الرياضيين الجيدين، وكان على "أورتسي" و"جيماشي" و"شيمونفي" أن يعودوا إلى أماكنهم حتى يقوم الرياضيان بإجلاس "ميشي". كان "بارطا" متأثراً آسفاً على "ميشي" الذي يحترمه، ولأول مرة يوجه ملاحظة لاذعة إلى "إشتوك":

– هذا الأحمق يشرب خمراً مقطراً من كوب ماء.

هدأ "ميشي" خائر القوى بعد أن جلس على عقدة الحبل وأسند ظهره على الحائط البارد، صالة الألعاب تتمايل أمامه. يتثاءب ويشعر بقشعريرة من البرد. رأى "أورتسي" و"جيماشي" يتحدثان، اغرورقت عيناه بالدموع: كم هما طيبان معه، اليوم تشاجر كلاهما بالفعل من أجله. قال "جيماشي" "لأورتسي" خلال ذلك:

– أعرف ما مشكلته، لقد فقد تذكرة اليانصيب، رغم أنهم سحبوا أرقامه.

قال "أورتسي" مندهشاً:

– حقاً!

– إنني أعرف أرقامه، لقد كتبها عندنا! والآن سألت "ميهاي شاندور"، ولم يسحبوا الاثنين وعشرين فقط، أما الأربعة الأخرى فقد سحبوها، أرى ذلك.

قال "أورتسي":

— ربما سرقوها؟ ليس هذا مستبعداً!

تفاجأ "جيماشي"، لم يتذكر هذا، رأى "إشتوك سوتش" عدم النظام؛ لأنه أثناء الحصة يقف كل واحد في مكانه وينتظر دوره بعد الستين طفلاً، نظر بجدية وإصرار، وقف الولدان مكانهما وظل يرمقهما. فكر "ميشي" أنه ضرب "جيماشي" الطيب في مقابل أنه وقف في صفه عرفاناً بالجميل، سيكون حقيراً في نظر "أورتسي"؛ لأنه فلاح حقير، دمعت عيناه، وأصابه دوار وأغشي عليه، ود أن يضع رأسه في حجر أمه، لكن أين هذه المسكينة؟

الفصل الثامن

أراد أن يذاكر بعد الغداء، لم يكن في الغرفة إلا السيد "ناج" مستلقياً على سريره ويقرأ. سحب دُرجه وتذكر الخطاب الذي بدا كتابته لوالديه ومازال في الدرج منذ أسبوع، أخرجه وأمسك الحبر والقلم:

والديّ العزيزين!

لا تغضبا لأنني لم أكتب إليكما منذ وقت طويل، لكن...

ذلك ما كان في الخطاب، لو لم تكن كلمة "لكن" موجودة لاستطاع إكماله، يتساءل بماذا يبرر عدم الكتابة إليهم، لم يجرؤ على الكذب؛ يتذكر كلمة أمه: "يا بني، دائماً تصرف كأنني أراك... فكِّر في أن عيني تراك وعندها لن تفعل أبدا شيئاً غير صحيح." شعر بعينها الطيبة، الخوف يثير حلقه، ونظر إلى الخطاب بخشوع؛ ثمّ استأنف خطابه متهيّباً ومحتاطاً:

... لم يكن لديّ وقت؛ في كل مساء من الخامسة إلى السادسة أقرأ لسيد عجوز كفيف يدفع لي عشرة كرايتسارات لكل ساعة قراءة، ويجب الانطلاق إليه قبل الموعد بنصف ساعة تقريباً؛ لا يسمح بالتأخير، ثم أعود إلى السكن وقت العَشاء، وفي الليل أذاكر، ولا يمكنني أن أكتب مساء يومي الأربعاء والسبت لأني أقوم بتعليم أحد زملائي بالفصل اللغة اللاتينية والحساب؛ لذا لم يكن بإمكاني الكتابة إلى الآن يا والديّ العزيزين.

توقف واستراح، أخرج نفسه من المأزق بشكل جيد، ابتسم، لا يمكن أن تلومه أمه، الرياح تهب بالخارج، الثلوج تضرب النافذة، رأى أمه المسكينة تحمل بذراعها العارية الطعام للخنزير، ارتكز على المنضدة مستنداً على مرفقه وأخذ ينظر إلى حروفه حتى لم يستطع رؤيتها.

تذكر العام الماضي، زارهم في المنزل "خالي أندراش "András"، شقيق أمه، حداد آلات، ممشوق القوام، طيب، ذكي، يستطيع التحدث بلباقة كأنه يخطب، كان يود أن يكون راهباً، لكنهم لم يقوموا بتعليمه، صوته رنان، ولا يقول إلا أشياء جميلة كأنه يتحدث من منبر إلى المؤمنين، وكان عندهم طوال الشتاء؛ فلم يكن له عمل، يضع الخشب على النار ويجلس على كرسي ويقرأ روايات وصحفاً وكتباً هندسية طوال الشتاء، يجب الطبخ له جيداً لأنه لا يأكل المأكولات البسيطة ويشرب النبيذ، أحضر معه من الخمارة نصف لتر وشربه، يقول أحياناً: "بارطالان "Bertalan"، تعال اشرب كأساً من النبيذ!" لكن أباه كان يصيح: "كيف لي أن أشرب، لن أستطيع العمل!" لأنه يقوم بإعداد أرجل المزالج الخشبية طوال الشتاء، ذات مرة كان يعاني بالخارج من الطقس السيء ومن قطعة خشبية كبيرة يجب فلقها بالإسفين، كان يتصارع معها وخرجت الأم ورأته يعاني، فدخلت سريعاً وقالت "لأندراش": "يا هذا! هل بك روح! اخرج لمساعدته!" عندها تحرك الخال "أندراش" بتثاقل ونظر خارج الكتاب، وقال: "كيف لي أن أخرج! لم أجنّ لأفعل هذا..." ثم عاد إلى الكتاب وواصل القراءة، وبعدها وقف غاضباً وغادر المنزل.

خرجت أمه من الغرفة تبكي بالخارج. أما هو فقد كان يبكي بلا صوت بجانبها. يود مساعدة أبيه! خرج إليه، على الأقل لمشاهدته! تجمد لبعض الوقت بجوار أبيه، ازرق وجهه من التجمد، لاحظه الأب وصاح: "لماذا تقف هنا مرتجفاً! عليك بالدخول! لكنه ظل واقفاً. ود أن يسرع إلى الداخل من البرد. لم يعرف أحد تضحيته بنفسه، لا أبوه ولا أمه ولا أحد، أوجعه هذا، بعدها بقليل تشاجر مع أشقائه الصغار الذين يحدثون صخباً في الغرفة: اصمتوا! وجذب "فاريكا" "Ferike" الصغير.

سقطت دمعة من عينه وهو في الغرفة الدافئة بمدينة الطلاب، يداري دموعه، يتساءل عن حال أسرته، وإن كان لديهم خشب للتدفئة وخبز، وهل مازالت جدته تشتري كيلو من القهوة لأنها لا تشرب اللبن بمفرده، ولا يمكن لأحد أن يأخذ من قهوتها، تقوم بشيها وطحنها في طاحونة القهوة القديمة، يمتلئ البيت برائحتها. وكانت الجدة تحضر اللحم لمشكلة بمعدتها، لا تستطيع العيش على الطعام البسيط الذي يأكله الأطفال، يحترمون الجدة، أبوه والجدة لا يعانيان، لأن الجدة والأب يعتنيان ويرعيان أنفسهما. وكان أبوه إما سعيد أو غاضب، لكن غضبه لا يستمر كثيراً؛ يتخلص منه بالسب

واللعن، لا أحد يعاني إلا أمه، فعليها أن تعمل من أجل الأسرة، جسمها ضعيف صغير لا يناسب العمل، لكن الفقر يجبرها؛ وتحب أن تقرأ وتتعلم وتتسلى، لكن عليها أن تقوم بأعمال المنزل، وتحيك الملابس للفلاحات، تود أن تأكل أشياء جيدة وتستريح، لكن الكِسرة الأسوأ من نصيبها دائماً، ولا تأكل إلا إن حضر زوجها: "حساء، فلتأكلي ما طبختِه!" حينها يأكله الصغار الجوعى.

بقي متسمراً أمام الخطاب، لم يتحمل الجلوس، ود أن يرقد ولم يجرؤ لأنه ممنوع، عانى اليوم كثيراً، منهكاً لا يستطيع الجلوس. وضع رأسه على المنضدة ليفكر في الخطاب، لم يرد النوم، أغمض عينيه، يفكر في الخطابا، أخذه النوم، حلم أمه تقول:

– أعطني تذكرة اليانصيب، سأذهب من أجل إحضار النقود.

فرح، سيذهب لإحضار النقود، رغم ضياع تذكرة اليانصيب، بدأ يبحث، يسحب الأدراج، درج الشيفونات ودرج الخزانة وأدراج الأدوات. يركض في المنزل الصغير، أبوه ينظر إليه، ويقول بانفعال أنه قد ضيعها، لم يقل شيئاً آخر، خشي أن يسبه ويلعنه؛ لأنه سيغضب، يبحث، يطير في المنزل مثل عصفور، جناحه يخفق، لم يكن لجسمه وزن، لم يجد تذكرة اليانصيب.

– لماذا تقفز؟ أين وضعتها؟

توقف، يرتجف أمام أبيه الغاضب، ينظر إليه بعينه الجميلة الزرقاء، خفض رأسه، وقال أنها غير موجودة، يسأله أبوه عن مكانها ومن سرقها، وقال بصوت يكاد لا يسمع بأنه "بوسورميني"، كرر والده الاسم متسائلاً.

– انتقاماً مني؛ عرف أني سرقت سكينه ورميتها خلف صندوق القمامة الكبير، وليسبب مشكلة لي سرق تذكرة اليانصيب ومزقها، رأيته، لكني لم أعرف وقتها ما هي الورقة، وضحك عليَّ.

أخبره أبوه بأن يتبعه لأنه سيسن البلطة، وعلى "ميشي" أن يحرك حجر السن، لحقه، خشي أن يقوم أبوه بشطر "بوسورميني" إلى نصفين؛ يعرف أن سَن البلطة يتم لذلك، انتابته قشعريرة، ورأى "بوسورميني" في دبرتسن في السوق الكبير ضاحكاً، لا يعلم أنهما سيشطرانه، على رأسه قبعة، سيرفع أبوه البلطة عالياً بعلو قبة الكنيسة الكبيرة لتنزل على "بوسورميني"، وسيقوم هو بالتعلق في ذراعه ويصيح:

– أبي!

نهض فزعاً، خشي أن يلاحظ السيد "ناج" الراقد على السرير ذلك، ولكن السيد "ناج" منشغل بالقراءة، علم أنه كان يحلم، حملق في السيد "ناج"، تحرك ولاحظه، خشي أن يتحدث إليه، فنظر في الخطاب، خاف من قراءة حروفه مرة أخرى، فالحلم علامة لحياته المضطربة والمتعبة. جلس السيد "ناج" على السرير، وقال:

– "نيلاش الصغير"، هذا أمر فظيع. أتعرف ماذا أقرأ؟ أقدم قصة للشعب المجري، سفرات المجريون نحو وطن المجريين التليد حتى الآن.

رفع "ميشي" نظره، هذا الموضوع يجذبه، اشتعل حماسه منصتاً للسيد "ناج".

– نحن نعيش في وسط أوروبا مثل ابن الزنا، أنت لا تعرف ما ذلك ولن أشرحه، باختصار، تعرف ذلك الطفل الذي يخجل من ميلاده ولا يعرف والديه، ولا يستطيع تتبعهم، وكل ما يتمناه أن يعرف شيء عنهما.

فهم "ميشي" الأمر، لأنه لم يجرؤ أن يعاير أحداً بأبويه، أو بفقرهم وبمشاكلهم، أو يعمل فلاحاً، أو أن أمه حدباء، وأن أخواله وأعمامه كذا وكذا، لأنه لم يكن في حياتهم ما يمكن التفاخر به أو امتداحه.

– الآن نعيش في وسط أوروبا، وهذه المجر الصغيرة مثل القلب، حتى إن غرفتي القلب أيضاً مرسومتان فيها.

أعجب "ميشي" الوصف، القلب أجمل كلمة يمكن أن يقولها اللسان، سعيد بكون الأرض المجرية تشبه القلب، فكر في حياته الخاصة، وأنها بجوار كل المشاكل والفقر تستحق اسم القلب؛ لأن قلبهم يعيش، ولو كانت حياتهم مثل قلب كبير مريض.

– أمر شنيع أننا نعيش ونعمل ونعاني ونغني ونمرح في وسط أوروبا، ولا يوجد شعب يفهم لغتنا، ولا مشاعرنا أو حياتنا،

يجب أن ننعزل، ولا يمكن الاعتماد على أحد، كلهم أعداؤنا وليس لنا صديق ولا قريب.
دمعت عين "ميشي"، هذا حال حياته ومصيره، أن يعيش هنا في دبرتسن المدينة الكبيرة، وليس له ملجأ أو من يساعده، مهما يحدث معه هنا فلن يحميه أحد، أردف السيد "ناج":
– لم يكن هذا كذلك دائماً، ففي وقت بعيد في الأورال بجوار فولجا ما يعرف بـ"المجر الكبيرة"، في ذلك الوقت الذي انتقلنا فيه إلى وطننا الحالي هنا، كنا على علاقة مستمرة مع الوطن القديم. يكتب الإمبراطور اليوناني قسطنطين السابع "البنفسجي المولد[35]" "Bíborbanszületett Konstantinos" أن في عهده، في القرن العاشر بعد ميلاد المسيح، اعتاد المجريون إرسال رسل إلى أقاربهم الباقين في الشرق، ويزورونهم ويسألون عن أخبارهم، وعادة ما يحصلون على أخبار منهم.
أرهق "ميشي" التفكير، لم يتعلم التاريخ بعد، سيكون ذلك في الصف الدراسي التالي، لكنه تعلم في المدرسة الابتدائية شيئاً عن تاريخ المجريين، معلومات لا يعرفها ابن فلاح من منزله، لأنهم يكبرون في القرية، ولا يسمعون أخباراً أكثر عن ذلك التاريخ، يعيشون بالقدر الذي قام بدراسته العام الماضي، وما تعلمه هناك لم يكن صورة في روحه، كلمات لم تعنِ شيئاً مميزاً. تذكر "ميشي" أن "أجدادنا انتقلوا من آسيا إلى هذا الوطن الجميل، تحت قيادة آرباد "Árpád". والآن أصبحت حياة الأمة المجرية حقيقة وقصة إنسانية أمامه. حصل قبل الظهر على إحساس الإنسان القديم من العجوز "ناظو"، والآن رأى المجريين القدماء في ملابس؛ مثلما كان ذلك مجسّداً ومنقوشاً في الصورة المعلقة فوق سرير أسرة العم "توروك"، وفيها يتمّ اختيار آرباد قائداً
– بعد ذلك كان هناك احتكاك بينهم؛ لأنهم كانوا يعرفون عن بعضهم. ألم تسمع عن القس "يوليان" "Julián"؟ لا؟ في عصر الملك "بيلا" الرابع "IV. Béla" خرج القس "يوليان" مع أربعة من رفاقه لدعوة المجريين القدماء الملحدين إلى الدين المسيحي. وصلوا بعد الكثير من المصاعب، عبروا القسطنطينية سيراً على الأقدام، كان الطريق شنيعاً، ومن هناك إلى القوقاز. أخرج الخريطة، سأوضح لك.
أخرج "ميشي" أطلس كوزما "Kozma–atlasz" وبحثوا فيه عن خريطة روسيا.
– لعله نزل من سيكاشفاهيرفار "Székesfehérvár" بجوار الدانوب، ربما بواسطة قارب حتى بلجراد، ومن هناك انطلق هو ورفاقه سيراً على الأقدام حتى القسطنطينية. وهناك ركبوا سفينة لثلاثة وثلاثين يوماً إلى شبه جزيرة القرم عبر البحر الأسود، ثمّ نزلوا ومشوا على الأقدام حتى فولجا. اثنان منهم رجعا من القرم؛ فلم يتحملا البؤس والصعاب والمطاردة، وواصل اثنان السير سوياً. في مكان ما عند فولجا أصابهما مرض معدٍ مات على إثره آخر رفاقه. يدعونه "جاليرت" "Gellért"، ولم يكن هو القديس "جاليرت" "Szent Gellért". (لم يكن القديس "جاليرت" مجرياً، وإنما إيطالياً، وكان مبِشراً دينياً قبل يوليان بمائتي عام).
باختصار، سار القس "يوليان" مشياً على الأقدام إلى الشمال في أرض التتار حتى قازان. تقع بلغاريا حينذلك على تلك الأرض. تلك المنطقة جرداء، والشعوب تسكن خياماً من الجلد فقط، يرعون أبقاراً كما هو الحال في هورتوباج، مازال يعيش الجوياش "Gúlyások" هنا الآن كما كانوا يعيشون هم هناك. تقابل هنا صدفة مع امرأة مجرية تحدث معها، وأوضحت له أي اتجاه يسلك إلى المجر الكبيرة. سار في طريقه، لحسن الحظ وصل إلى المجريين في يوم ونصف اليوم، سعدوا به، دعوه من منزل إلى آخر، يقدمون الطعام والشراب له، سألوه كما يسأل المقيمون في الوطن عن الأشقاء المهاجرين: كيف أنتم، وكيف تعانون؟ نعلم أنكم حصلتهم على إرث "أتيلا" "Attila" عليكم أن تقدروه.
وسألوه أسئلة من هذا القبيل، لم يمكنه المكوث كثيراً هنا؛ لأن زعيم المجريين الكبار قال له: "ارجع يا أخي، إلى وطنكم، وقل للملك، أخي، إنني زعيم المجريين القدماء، أحييه وأبعث له بالأحضان والقبلات، ورسالتي له أن يتجهز ويستعد قريباً للخطر العظيم! سيأتي التتار من المشرق، وسيقومون بتدمير العالم بأكمله! لقد حصلت على أمر أنا أيضاً بأنه يجب الانضمام إليهم بكل جنودي، ولا يمكن رفضه. فليجمع على الأقل أسلحته وحلفاءه حتى يستطيع مقاومة التتار...".
وهكذا انطلق المسكين "يوليان" في 21 يونيو في طريق العودة، لكنه لم يسلك نفس الطريق الذي أتى منه، وأخذ طريقاً

أقصر نصحه به شعب المجر الكبيرة. وصل في اليوم الثالث من عيد الميلاد إلى الملك "بيلا" الرابع مريضاً وأخبره بكل شيء. جاء إلينا التتار خلال أربعة أعوام وقاموا بتدمير كل شيء، وحققت المجر آنذاك أن منعت التتار من مواصلة سيرهم في أوروبا، هذا مصيرنا دائماً: علينا أن نعوق شعوب الشرق الغازية، والمجر دائماً ساحة القتال الكبيرة التي استقبلت فيها الحصون الحقيقية جيوش الشرق. أليس عجيباً أن المجر جاءت من الشرق إلى هنا حتى تقوم بالاستمرار، وعلى مدار ألف عام قاموا بمنع وصول أيّة مشكلة لأوروبا من الشرق؟ أفنينا دماءنا في التقاتل مع الأشقاء الشرقيين وحماية الغرباء الغربيين الذين ظلوا على مدار ألف عام غرباء عنّا ويكرهوننا.

نظرا إلى الخريطة حيث المدينة لبعض الوقت بدون كلام. فتح السيد "ناج" خريطة آسيا.

– انظر، يحتمل أن يكون الموطن القديم حيث عاش المجريون في بداية العصر التاريخي هنا.

وسحب بإصبعه الجزء الجنوبي الغربي من سيبيريا حتى بحيرة آرال في الجنوب، وفي الغرب حتى جبال الأورال، وفي الشمال حتى مياه أوب "Ob"، وفي الشرق حتى جبال ألطاي (أسيا الوسطى).

– ...هنا كانت تعيش سوياً الشعوب الفينوأوجرية والآستياك[36] والأفارأوراسيا[37]. في ذلك الوقت كان هناك هدوء كبير في العالم بأسره، زعماء كبار وامبراطوريات كبيرة، وقاموا بابتكار القصص والحكايات القديمة، وحكت الأغاني البطولية عن زمن الأساطير القديم وخلق العالم وتشكل الشعب، أما الحكايات فكانت تسلي بلاط الزعماء. ويجب أن يمر بضع آلاف من السنين منذ آخر هجرة للشعوب؛ لا تعتقد أن هجرة هذا الشعب هي الوحيدة عندما غمرت جموع الآسيويين كل أوروبا عند انهيار الامبراطورية الرومانية. هناك قبل ذلك كانت الشعوب الطورانية؛ انتشرت في العالم القديم كله حتى فرنسا، وليس هناك أي أثر مكتوب عن هذا. إن دم الألمان والإنجليز ممتلئ بمزيج طوراني، وهذا ما جعلهم أقوى، من يعرف كم هجرة للشعوب حدثت قديماً؟ في وقت ما لم يكن هناك بحر، بين هذه الجزر الكثيرة الآن بين آسيا وأستراليا، كانت كل هذه أرض يابسة ملتصقة ببعضها، وكان بإمكانهم العبور من أمريكا إلى أستراليا وآسيا، وتلك المناطق التي توجد الآن بأسفل في قاع المياه سيراً على الأقدام أو على ظهر حصان. ألا تعرف أن الأرض من الداخل نار، وسطحها طبقة رقيقة، هي التراب؟ كما يقوم حارقو الفحم بإحراقه إذا تساقط متجمعاً فيقذف تراباً إلى سطحه. هل رأيت إحراق فحم قبل ذلك؟!

– نعم، خالي حدّاد وقد رأيت ذلك بالفعل، ذات مرة كنا بالخارج معه في الغابة.

نسي "ميشي" تماماً كل مشاكله وضحك بصوت عالٍ، سأل "ميشي":

– ولكن؛أليس لدينا أقارب في هذا الغرب؟

صاح السيد "ناج":

– في غرب أوروبا، وكيف يمكن ذلك؟! يسكن غرب أوروبا الشعوب الرومانية، الشعوب الجيرمانية، الشعوب السلافية، إنهم غرباء عنا تماماً. الفرنسيون، الأسبان، الإيطاليون؟ ماذا يربطنا بهم؟ أم الألمان، الإنجليز، السويديون، النرويجيون، الدانماركيون، الهولنديون، هؤلاء أيضاً غرباء تماماً. أم الروسيون، الكرواتيون، الصربيون: خاصة هؤلاء القريبون، كلهم أعداء قتلة! إننا محاطون من جميع النواحي بهم كأننا في قفص. مع من نعقد حلفاً؟ الفرنسيين، الأسبان، الإيطاليين: هؤلاء يقاتلون حيث تقتضي مصلحتهم فحسب، ثم يحتفلون ببعضهم كأقارب. مع الألمان والإنجليز؟ ليس بينهم غير صراع من يكون فيهم الأول في هذا العالم، لذا فهم مستعدون لإشعال البشرية كلها، لكنهم يفهمون بعضهم، لغتان وعقليتان شقيقتان. أما الروسيون فهم كالدجاجة التي تريد أن تجمع تحتها كل الشعوب السلافية الصغيرة، إلى من ينضم المجريون إذن؟ لا يوجد في لغتنا ولو كلمة واحدة تشبه لغات هؤلاء، ولا يوجد هذا في دمائنا أيضاً. القرب الموجود بين لغتنا واللغات المحيطة هو القرب الذي التقطناه منهم وعملنا به، كنا على استعداد للأخذ منهم، ولمن هنا؟ أتداخلت تلك المجموعة من الكلمات السلافية؟ تعلمناها، وصهرناها، الكلمات الجيرمانية واللاتينية والرومانية التي استقبلناها أخذناها منهم، لكننا أعدنا صياغة هذه الكلمات حتى أن أمها الأصلية لا يمكن أن تعرفها، يستطيع الشخص المجري تعلم أيّة لغة

من لغات العالم بشكل متقن، لكن اللغة المجرية لم يتعلمها شخص أجنبي الميلاد بحيث يستطيع التحدث بها بشكل سليم تماماً.

حملق "ميشي" في الخريطة قائلاً إن هذا لأمر بشع؛ وهو عدم وجود قريب لهم في الخريطة.

– الأقارب؟ ماذا سنستفيد من هؤلاء؟ البلغاريون سيكونون من أقاربنا، لكنهم فقدوا لغتهم القديمة وأصبحوا سلافيين، الشعب التركي سيكون من أقاربنا: لكنه مسلم، وليس له غير أقارب الدين. لذا؛ ليس فقط لم نكن أشقاء، لكننا عانينا منهم أكبر معاناة منذ خلق العالم. الفنلنديون من الأقارب: لكنهم مساكين بعيدون جداً، وهم أيضاً في أسر أكثر منا مائة مرة، الإستونيون والكوميون والساموييدك[38] والموردوفيون[39] والماريون[40] والأدمورتيون[41] والآستياك أقارب، لكنها أصبحت بالفعل مجرد قرابة من آدم وحواء والجوز!

قال "ميشي" من بين أسنانه مازحاً:

– اعتاد أبي أن يقول: بالتأكيد نحن أقارب، أمك وأمي: امرأتان.

قال السيد "ناج":

– نعم، بطريقة ما، المجر الكبيرة "Magna Ungaria"، التي يكتبونها الآن في الكثير من الخرائط كـ"Jugria" اختفت خلال الغزو التتري، جرف الفيضان المغولي الشعب كله ونثره وجرده من الاستقلال. كانوا يعرفون عنهم بعض الأمور في عهد الملك "ماتياش" "Mátyás"، لأنه كان يرسل سفراء حتى يستطلعوا أخبارهم: له هدف معهم، المجريون قليلون في الدولة، سيقوم بتوطينهم هنا. لكن الامبراطورية الروسية كانت متحدة، والامبراطور يتبع الدين الأرثوذكسي اليوناني، ولم يسمح بأن يتقابلوا ليعرفوا أخبار بعضهم. ثم جاءت بعد ذلك معركة موهاتشي، الأسر التركي، في ذلك الوقت لم يفكر فيهم أحد. حتى "جابور باتلان" "Bethlen Gábor" لم يخطر بباله أن يحاول عن طريق سفرائه المبعوثين إلى الأتراك استكشاف أحوال الأقارب المجريين القدماء الموجودين في القوقاز وعند نهر الفولجا، لم يشعروا بالحاجة إلى ذلك؛ لأن الناس والدول لم تكن تعيش في اتحاد قومي وإنما ديني. "جابور باتلان" لم يكن المجريون القدماء الملحدون أقاربه، وإنما السويديون البروتستانت، و"أدولف جوستاف" "Gusztáv Adolf" شقيقه الروحي، وليس "كاراكوم" "Karakum"... ويطلق على المجريين قديماً "القادمين من سيبيريا" وذلك من قبل أتباع قسطنطين السابع.

بدأ شعور "ميشي" بالعزلة يتملكه مرة أخرى. نظر إلى الخريطة التي كانت المجر فيها تأخذ شكل الرغيف الدبرتسني الصغير الجميل، ملونة بالأحمر من بين ألوانها المتعددة، أحس بدوار من رؤية مجموعات وحشود الشعوب الضخمة التي ترتسم في كل مكان باللون الأخضر والأصفر والبنفسجي كأنهم يفتحون أفواههم بشره ونهم ويديرون وجوههم نحوه على طريقة المخلوقات الغامضة والأشباح، قال مرتجفاً:

– ثمة تهديد...

سكت السيد "ناج":

– بالتأكيد، ليس السؤال من أين نحصّل أقارب، ولكن إلى متى سيكون لأوروبا فائدة منا. المجر جميلة جداً، ولكن بإمكانهم أن يتخلوا عنها بكل سرور، عن متعة أن يسكنوا في ميدان المعركة الأبدي، لأن هذه المقاطعة ملونة باللون الأحمر، بحر دماء أبدي: أتى البوشناق[42]، أتى الكومان[43]، أتى التتار، الأتراك، وإما صهرهم المجريون وأنقذوا منهم أوروبا، وإما هزموهم وحموا بدمائهم الغرب. يا إلهي، ألمانيا وفرنسا وإنجلترا لم تكن الحياة وردية بالنسبة لهم أيضاً، تناحروا مع بعضهم وأمكنهم أثناء تلك القتالات الداخلية وبمساعدتها أن يعملوا على بناء الثقافة الإنسانية العامة. أما المجر! بالنسبة لنا لم يكن ممكناً أبداً أن نتسلى بالخلافات المتعلقة بالمبادئ وما أشبه، أو أن نشنق بعضنا بسبب مشاكل علمية، بالنسبة لنا كان يجب ببساطة أن نفقد حياتنا خلال الحروب التركية والتترية والألمانية، حقيقة أن مصير الشعوب البلقانية كان أسوأ، لأنهم عاشوا في احتلال دائم، وكانت مناطق إضافية لسلطة الدولة التركية. الشعوب الصربية والبلغارية والدلماطية والرومانية كانت تعطي الإنكشاريين، يجندون أبناءهم كل خمس سنوات ليكونوا من الإنكشاريين، لم يكن مسموحاً للتركي الأصلي أن

يكون من هؤلاء، موظفو الدولة أيضاً لهم يخرجون من الأعراق البلقانية، والقائد الكبير قلما يكون ذا أصل تركي حقيقي. إذن في هذا العصر كان البلقان كملك للأتراك وسوط على ظهر أوروبا. لكن المجريين كانوا دائماً متحملين الصعاب وسداً منيعاً. لكن ماذا سيكون في المستقبل؟ من المؤكد أنهم لن يحافظوا على دولتنا ولا على أعراقنا مقابل ما فعلته بجدارة في الماضي، يجب أن تكون هناك فائدة أو منفعة منا. ماذا ستكون لا أعلم، سيكون أفضل وأجمل شيء أن يكون كل مجري متميز ويستطيع إنتاج أشياء تستطيع الإنسانية جمعاء الاستفادة منها.

هز الحديث "نيلاش" الصغير، لم يفكر أن الدول والشعوب تحسب قيمتهما معاً ويمثلون حياتهما سويّاً، نظر إلى الخريطة كأن عشرة أو اثني عشر شخصاً يقفون أمامه بعضلات بارزة مستعدين للملاكمة والمبارزة.

– إذن لماذا نحن متحالفون مع النمسا؟

سأل السيد "ناج" بسخرية:

– متحالفون؟ لسنا في تحالف معهم، وإنما قضمتنا النمسا. المشكلة أننا قضمة كبيرة لها. انظر، في خريطة أوروبا تحيطنا النمسا كفم كبير، لكنها لا تستطيع ابتلاعنا. ليس لديها جسم، ولا كيس يمكنها أن تصهرنا وتستوعبنا فيه، إنها مجرد فم فحسب، فم كبير قذر.

قال "ميشي" وقد أشار إلى نصف دائرة رومانيا فيما وراء ترانسيلفانيا:

– هذه أيضاً، من فضلك انظر هنا، هذه أيضاً هنا بالأسفل!

قال الطالب الكبير مبتسماً بسخرية:

– نعم، هذه أيضاً تعض، فم كبير، تريد أن تلتهم ترانسيلفانيا، لكنها أمسكت بقطعة أكبر مما يمكنها ابتلاعه، من المؤكد أننا ممسوكون من كل الجوانب بأسلوب الكلب، يتضايق الإنسان لأنه لا يخطر بباله كم سيكون جيداً أن نقوم إذا شعرنا بالعضة بعقد تحالف من وراء ظهرهم، مع الألمان مثلاً؛ حيث يوجد بهم دم طوراني من هجرة الشعب الأولى (ويوجد من الثانية أيضاً ما يكفي). وأن نتحالف مع الشعب البلغاري والأتراك إذا حدثت مشكلة في الركن الجنوبي، لكني أقول أن الشعب البلغاري أصبح سلافياً، أما الأتراك فهم موتى أحياء وهم أيضاً أصبحوا سلافيين بشكل سيء، لقد التقطوا كثيراً منهم خلال الانتصارات الكثيرة.

مارس الولدان السياسة بالطابق الثاني من مدينة الطلاب في غرفة سيئة مطلية باللون الأبيض أمام خريطة مدرسية، في عام 1892. نظرا إلى الخريطة بإمعان وتأمل وبحثا عن طريق التحرر والخلاص.

– إذا لم تكن أمتنا القومية في الخارج، ولا في أي مكان في العالم مفيدة لنا فإن مجريتنا لا تساعد على أن نخضع الشعوب الأجنبية لنا! مجريتنا ملائمة لما هو ملائم له الشعور الأسري بالنسبة للشخص الفقير المسكين، حتى نتلاحم ونتكاتف هنا في الوطن؛ لأننا جميعا سواسية أمامه، لا يمكن أن ينخلع أحدنا من المسؤولية مدعياً أنه مجرياً، يجب علينا أن نستمد القوة من هذه القوة وننتج شيئاً آخر، يمكن أن تنظر إليه الدول الأجنبية بفخر. هل تفهم ذلك؟ حتى لا يعني المجري للدول الأجنبية أنه لص صغير بين اللصوص الكبار! ولكن أنه عامل جاد وجيد بين العاملين الآخرين، ويمكن الاعتماد عليه! الموهوبين يطمحون إلى مكان أفضل! حتى ينظروا بفخر إلى هذا: انظر، ماذا فعل المجريون الصغار من أرضهم! كم عانوا خلال استعمار الأتراك– التتار، رغم ذلك أخذوا يعملون قدر الإمكان وأنتجوا! تعلموا وعملوا، أحبوا وعملوا بسعادة، لا يوجد هنا شيء آخر، يجب حب العمل والتعلم والمرح والبناء! ما يستطيع تعلمه الآخرون يستطيع المجري تعلمه! بل بشكل أفضل! لأنه لا يوجد شعب أكثر نشاطاً ولا عملاً ولا نفعاً منه في العالم! لا يوجد هنا في هذه الدولة أيّة مشكلة: فقط السياسة.

دق الجرس في الفناء، ارتدى الطالب الكبير قبعته وخرج. أراد "ميشي" أن يسأله ما تلك السياسة، بقي مرتكز على مرفقه فوق الخريطة لبعض الوقت، بدأت الخريطة تصبح صديقاً له، اكتسبت البقع الملونة حيوية، كادت تتحرك أمام عينه مثل كثيب النمل، ومنذ هذا الوقت درع المجر المستدير الجميل العزيز يلمع في تفكيراته وتأملاته. واصل كتابة الخطاب بقوة

وانتعاش. سرد فيه حياته، وزملاءه الذين يحبهم، ومدرسيه، ممتدحاً ومعظماً البعض، ولم يتذكر سوى الأشياء الجميلة والجيدة في حياته، وقرر أنه سيعمل ويتعلم ويذاكر ويجيب بشكل جيد حتى تنتبه المدرسة له، شعر بأنه مثل الأمة المجرية المحاطة من كل اتجاه بأعداء فاتحين أفواههم، فخر بفقر أبويه ومصيرهم المتدني؛ سيستمد قوة من ذلك لتحمل كل المشاكل والفقر، كانت الصورة المثالية له أنه إذا تحمل عراك المشاكل فستنتصر الأمة المجرية بالكامل.

كتب الخطاب ووضعه في مظروف، كان لديه مظروفان صغيران من المنزل، وضعتهما أمه له في خزانته. أصيب أحدهما ببقعة دهنية وقت اللفة، خجل، تردد بشأن ألا يقوم بنزعها، لا يجب إخفاء أخطائه، فلتكن العلامة التحذيرية حتى ينتبه من الآن فصاعداً لأشيائه. كز على أسنانه، وضم حاجبيه، نظر إلى المستقبل البعيد، خرج من الغرفة بدفتر قواعد اللغة اللاتينية تحت إبطه. علق المفتاح على ضلفة الباب كما اعتادوا، وقصد حديقة النباتات للمذاكرة. ذاكر باجتهاد وحماس، لم ينتبه إلا عندما دقت الساعة مرتين، الساعة الرابعة والنصف، الظلام حل ومعه البرد، تذكر أن عليه الذهاب إلى السيد العجوز، كان غريباً جداً مساء هذا اليوم، كأنه خرج من العالم، كان مستأثراً بنفسه منعزلاً بها، كأنه لا ينتمي إلى أي مكان ولا إلى أي أحد.

اليوم لم يكن سعيداً بالقراءة، تؤذيه القراءة غير المفيدة، حيث عليه أن يطحن الكلمات، أمور لا يفهم منها شيئاً. حاول الانتباه بلا جدوى، في السطر الثاني والثالث كان كل شيء غير معروف وغريباً، كيف فهم السيد "ناج" رغم أنه لم يدرس جغرافيا بعد، ولا تاريخاً، روحه مفعمة بكل شيء، ولا يفهم مقالات الجرائد. سأله السيد المسنّ:

– ألم يقوموا بسحب الأرقام الفائزة؟

توقف سيلان دمه، أحس أن لسانه تجمد، شحب وجهه، ساد صمت لثوانٍ، حينها استمد قوة من كون السيد العجوز لا يرى، ثم بلع ريقه، وقال:

– مازال لم يتم نشرها في الجريدة.

– ولا توجد بجريدة اليوم أيضاً؟

أخذ يقلب "ميشي" الجريدة وينظر فيها، تنفس الصعداء عندما لم يجد ذلك وأخبر العجوز الذي طلب منه أن يتأكد من ذلك في الجريدة الأخرى، وبعدما بحث رد عليه أن لا، وطلب المسن استكمال القراءة. ففعل، لكنه كان قلقاً، السيد العجوز يستعلم بحرص، سيسأل آخرين أيضاً، وحينئذ ماذا سيكون. عندما غادر كان سيء المزاج وحزيناً. اليوم فقط بدأ بنسيان هذا الأمر المنغص، ود أن ينتهي. يا إلهي، فقد تذكرة اليانصيب، من أين يمكن التحصل عليها مرة أخرى. ماذا سيجعل الآخرين يهتمون به؟ إنها مشكلته... ومشكلة السيد المسن أيضاً. سار إلى السكن برأس متدلية، وصل سكن، ناداه "ميهاي شاندور" عندما رآه:

– "نيلاش"! كان "أورتسي" و"جيناشي" بأعلى في الغرفة.

— تفاجأ "ميشي"، وسأله عما يفعلانه فردّ بأنها كانا يبحثان عنه.

جلس يمسح شوكته؛ كانت عادة، لأنهم لا يغسلون الأواني جيداً في المطبخ، يتساءل: عن ماذا كان يبحث عنده "أورتسي" و"جيماشي"، فزع، من المؤكد أن ذلك بسبب اليانصيب، سأله "ميهاي شاندور" عن سبب عدم حضوره لحصة بعد الظهر. وتمدد على الطاولة ليأخذ علبة الملح والفلفل، وأضافهما إلى خبزه، كعادة الطلاب لفتح شهيتهم، قال "ميشي" ونظر أمامه بسذاجة:

– بعد الظهر؟

– نعم، لقد سأل السيد الأستاذ أيضاً عنك.

– أليس اليوم هو السبت؟

نسي أن هناك مدرسة، لكن كيف خرج ذلك من ذهنه؟ لم يتبقَّ إلا أن ينسى شيئاً ما بهذه الطريقة، وهو المدرسة تحديداً. لم يستطع أن يشرح لرئيس الغرفة سبب تغيبه، استنتجوا أنه مريض، كان السيد "ليسنياي" غاضباً للغاية، وقال أنه لن

يكون في غرفة الأطفال، وأنه لم يسمع أن أحداً نسي مدرسته. ضحك الأولاد، خاصة "بوسورميني" الذي كان في ضحكته شيء مختلف، قال ساخراً:
– لحسن الحظ أن الرأس ملتصقة بالرقبة؛ فلربما نسيها أيضاً.
شعر "ميشي" أن ثمة أهمية كبيرة لتحدث "بوسورميني" بحماقة بهذه الصورة؛ لأنه لم يحدث أحد في الغرفة عن تذكرة اليانصيب، من المؤكد أن "بوسورميني" هو الذي سرق تذكرته، في المساء كتب واجب اللغة المجرية التحريري. سأله السيد "ليسنياس" صباح اليوم التالي:
– ماذا أكتب، أي مرض كان بك؟
– لا أعلم. السيد "ناج" أيضاً لم يذهب للحصة.
– لم تكن هناك حصة أولى في الصف الثامن، لذا لا يجب إثبات بشأن ذلك.
تمتم "ميشي" من تحت أنفه معتذراً، اعتقد أن الجميع سيضحك عليه، ولم ينتبه أحد إليه، لوح له من عند الباب:
– تحدثت مع طباختنا عن الأمر، السؤال هو هل تم سحب تذكرة اليانصيب في لوتري بودابست أم فيينا أم برنو أم براغ أم لينتس، في أي لوتري اشتركت؟
سكت "ميشي".
– ألا تعلم هذا أيضاً؟
لم يكن يعلم ذلك أيضاً.
– هناك فرصة للفوز بألف أو ألفي فورنت. إذا كان لوتري برنو فسيكون الفوز بألفي فورنت على الأقل.
ظل فم "ميشي" مفتوحاً، هذا شيء جديد! ألفا فورنت! لم يستطع تخيل هذا، في بلده اشترت أسرته المنزل الصغير بالحديقة بثلاثمائة فورنت، استمع للرقم وكأنه يستمع لحكايات ألف ليلة وليلة، حضر "جيماشي"، لم يبدُ عليه أنه غاضب بسبب ما حدث بالأمس، وأقحم نفسه بينهما، وقال "أورتسي":
– قالت طباختنا أنها فازت بألفي فورنت، يا إلهي. نصف هذا المبلغ ل المسن. أنصح ألا نخبر أحداً بهذا، فليبقَ بين ثلاثتنا؛ لأن السارق إذا علم بذلك فسينتهي كل شيء.
حملق "ميشي" إليه، هذا أيضاً يعلم أن ثمة سارق، اجتمعوا وتهامسوا، قال "أورتسي":
– يجب علينا أن نبرم عقداً، نخرج بعد الحصة إلى الفناء الخلفي ونتناقش بشكل جيد عن كل شيء.
قال "جيماشي": "نعم، وأقترح أن نضم إلينا "طانينباوم" أيضاً".
قال "أورتسي": "لا يجب ضم أحد، سنبقي حالياً نحن الثلاثة فقط".
قال "جيماشي": "صحيح، الأمر سواء بالنسبة لي".
قال "أورتسي": "لكن يجب الاحتراس حتى لا يخمن أحد شيئاً ما".
انتهت الحصة فركضوا إلى الفناء الخلفي، إلى كوخ خشبي بني اللون سيىء الرائحة، اجتمعوا عند السياج يتشاورون.
قال "أورتسي": "في البداية يجب التأكيد على كتمان الأسرار. نختار من بيننا رئيساً".
قال "جيماشي": "صحيح، أنا أعطي صوتي لك".
قال "ميشي" رغم أنه لم يفهم لماذا يجب أن يكون هناك رئيس بين ثلاثة: "وأنا أيضاً".
قال "أورتسي": "إن كنتما تريدان ذلك فليس لدي مانع، لكني لن أقبل إلا إذا أقسمتما بشرفكما أنكما ستطيعاني، طاعة عمياء".
فأقسموا.
قال "أورتسي": "ليس مسموحاً بالتواجد سوياً كثيراً؛ فهذا يثير الشك، الآن ستكون عندي حصة فراغ، سأفكر في الخطة وأضع القواعد الأساسية".

تصافحوا، شعر "ميشي" بالحمى، قلبه يخفق لسرية الأمر. بالحصة التالية؛ حصة الغناء، تحدث وترقق السيد الأستاذ "تشوكنياي" بلا جدوى، جلس "ميشي" طوال الحصة مصاباً بالحمى، فاقداً للوعي، يتعجب أن "جيماشي" غير مشدود وطبيعي مثلما يكون في الأوقات الأخرى، يتلمس كراساته ويدور القلم الرصاص، أخرج كتبه ثم أدخلها. انتهت الحصة، أتى "أورتسي" على الفور، سأل ضاحكاً:

– تعرفان ماذا حدث؟ كنت أتمشى في الفناء حول المخرج، أتى أكاديمي أو طالب لاهوت خلع قبعتي وضرب رأسي، قائلاً: "لماذا لا تذهب إلى الحصة؟" قلت له أنه لا يسمح لي بالتواجد في حصة الغناء. فقال: "نعم، أنت يهودي!" وضرب رأسي!

ضحكا بعصبية.

– قلت له لست يهودي، وإنما كاثوليكي، فرد قائلاً: "نعم، أعرفك!" وغادر!

ضحك "ميشي" بتشنج، وقال:

– يا لها من مزحة لطيفة!

وأغمض عينيه وأخذ يضحك بشدة، احمر وجهه من الضحك، أكمل "أورتسي":

– عندها أتى المدرس العجوز ذو الشعر الأبيض والذي يدعونه العم "إمرا" "Imre"، وقال: "حسناً، إذا كان ليس لديك حصة فلا تتسكع هنا بالخارج، ولكن اصعد إلى المكتبة." أخذني إلى المكتبة الكبيرة بمدينة الطلاب حيث لا يوجد شيء آخر سوى الكتب، وأعطاني كتاباً جيداً وقمت بقراءته، وسأذهب إلى هناك دائماً بعد ذلك عندما يكون عندي حصة خالية.

نظر "ميشي" إلى "أورتسي" بتعجب وحسد، كان يريد هو أن يذهب إلى هناك: يا إلهي، غرفة لا يوجد بها إلا كتب، لا يمكنم تخيل شيء أكثر سحراً من هذا.

– هناك فكرت في كل شي ووضعت القواعد الأساسية، ها هي، كتبتها في ثلاث نسخ، حتى يكون عند كل واحد نسخة.

قاعدة أساسية! كان هذا ساحر "لميشي"، لكن من أين يستطيع "أورتسي" ابتكار مثل هذه الأشياء. نظر إليه باحترام كأنه ينظر إلى شخص ما بمرتبة أعلى.كانت القواعد الأساسية كما يلي:

* قاعدة أساسية:

1. الاسم: "لوتريون". 2. الأعضاء في تحالف أخوي كأشقاء. 3. لا يوجد أيّة أسرار. 4. رئيس، أمين، كاتب. 5. الإفشاء للغرباء ممنوع، هذا هو كل شيء.

قال "ميشي" "لجيماشي" بصوت منخفض:

– أريد أن أكون أنا الكاتب.

– اقترح أنت أن أكون أنا الأمين، لأنني الأمين.

همس "ميشي" "لأورتسي":

– "جيماشي" الأمين.

قال "أورتسي":

– بل أنت الأمين بالفعل، الأمر كله سرك.

لم يكن ممكناً الاعتراض على هذا، قال "أورتسي" "لجيماشي":

– أليس هذا حقيقياً؟ سره هو؛ إذن هو الأمين.

تعكر مزاج "جيماشي".

– يجب على الأمين كتمان السر، أما هذا فقد أفصح عن كل شيء، أستطيع أنا القيام بذلك أفضل منه.

قال "أورتسي" ضاحكاً:
– هذا حقيقي، لو كان كتم سره لما علمنا نحن شيئاً الآن، هذا حقيقي.
– هذا لا يصلح إلا أن يكون كاتباً؛ حتى يدون ما يفعله الآخرون.
لم يشعر "ميشي" أن ذلك جرحه، بل ضحك سعيدا أن سيكون هناك أخيراً ما يمكن تسجيله في تشيفاري كرونيكا.

الفصل التاسع

سأله أورتسي هامساً عند دخوله الفصل في الصباح:
– أمازلت لا تعرف من سرق تذكرة اليانصيب؟
– لا.
– ولم تفكر في هذا؟
– حسناً...
– إنني أعرفه بالفعل.
خجل "ميشي" مما حدث بالأمس من اختيارهما له رئيساً، لو علم أحد بذلك لود أن تبتلعه الأرض، لكن الرئيس الآن فاجأه، لم يكن ينتظر منه أن يعرف من السارق بالفعل.
– أو بالأحرى أعرف أنه يجب البحث عنه.
– نعم؟
– سنكتب من تسكن معهم في الغرفة.
قال "ميشي" بصوت منخفض أن نعم.
– اكتب، من فضلك أسماءهم في ورقة فوراً.
بحث "ميشي" عن ورقة، لكن "أورتسي" وضع أمامه ورقة من عنده:
– على هذه.
كانت ورقة ناعمة بيضاء تميل إلى الاصفرار، أحب "ميشي" الورقة الجميلة، أخذها أمامه، وكتب اسم رئيس الغرفة وأسماء الآخرين الذين يسكنون معه، كان يستمتع بروعة الورقة، عندما انتهى دفعها إلى "أورتسي" الذي كان يحكي شيئاً للجالسين بالخلف، لكنه ترك ذلك عندما انتهى "ميشي" وعاد للجلوس بجانبه.
– بأي صف "ليسنياي" هذا؟
– بالصف الثامن.
– "وناج" "Nagy József"؟
– بالصف الثامن.
– و"أندراشي" "András"، هل هذا هو الذي بالفصل "A"؟
– نعم. "أندراشي"، "بوسورميني"، بالفصل "A"، "شاندور"، "تشيتشو" "Csicsó" وأنا بالفصل "B".
سأل "أورتسي":
– "شاندور"؟
نهض واقفاً ونظر إلى الخلف، بحث عن "ميهاي شاندور"، لم يكن جالساً في مكانه وكان بجوار المقعد الأول، لا يتحدث مع أحد حينها، كان يتسكع ويستمع إلى كلام الأولاد، لوح "أورتسي" له، أسرع "شاندور" إليه.
– أنتما تجلسان بجوار بعضكما البعض على المنضدة، أليس كذلك؟
– أين؟ في الغرفة؟
– نعم، هناك.
– قل لي، كيف هي مرتبة أشياء "ميشي"؟ إنه ولد غير منظم، أليس كذلك؟
ضحك "شاندور".
– ليست مرتبة بشكل جيد، فقد فقد تذكرة اليانصيب.

سكت "أورتسي" قليلاً.
– أيّة تذكرة يانصيب؟
ونغز "ميشي" سراً بركبته حتى ينصت.
– قال السبت الماضي أنه قام بوضع خمسة أرقام في اليانصيب بفورنت والآن لا يجد التذكرة التي أعطوها له عن المال.
قال "أورتسي":
– غير معقول! من المؤكد أنه وضعها بلا نظام في مكان ما.
– من الممكن ذلك؛ لأنه دائماً إذا بحث عن شيء يبحث في كل جيوبه ولا يجده أيضاً.
دخل "جيماشي" الفصل، تجاوز "شاندور" الذي كان يقف أمام مقعدهم وجلس في مكانه، وكان منتعشاً وعينه تضحك، قال:
– سوف أفتش أنا جيبه.
قال "أورتسي" فجأة "لشاندور":
– من فضلك، هل لديك مثال الحساب؟
– نعم.
– أرنيه.
أسرع "شاندور" لإحضار الكراسة، عندها مال "أورتسي" على الاثنين الآخرين، وقال:
– عندما أقرر أحد لا تتدخلوا، أنت تفسد الأمر، ميشي يتصرف جيداً ولا ينبس ببنت شفة، يجب ألا يعرف الفصل أننا نحقق ونبحث عن السارق، حينها سيتحدث الجميع عن ذلك، وإلى الظهر سيعلم المدرسون، أنصتا عندما يعمل الرئيس.
أومأ "جيماشي" بتفهّم وانقياد، أما "ميشي" فقد همس "لأورتسي" بانفعال موضحاً:
– لم أضع تذكرة اليانصيب في جيبي أبداً؛ لأنني كنت أضعها في محفظتي الصغيرة دائماً ولم أخرجها، لقد ضاعت منها.
تظاهر "أورتسي" وكأن مثال الحساب الخاص "بميهاي شاندور" يثير اهتمامه، نظر إلى نهايته، وقال بأن النتيجة خطأ، تفاجأ شاندور سائلاً: أين الخطأ؟
– قم بعملية الضرب مرة أخرى، هذا الضرب به خطأ.
وتحدثا عن مثال الحساب ولم ترد تذكرة اليانصيب في حديثهما بعد ذلك، دخل المدرس ووضع أورتسي ما كتبه "ميشي" تحت الكراسة أمامه، وكان ذلك كما عرفنا أسماء رفقائه بالغرفة، أخذ ينظر إليها طويلاً، ويلتفت أحياناً إلى "ميشي".
– هل السيد "ناج" هو ذاك الأحدب الصغير؟
– نعم.
وأضاف "ميشي" بسرعة حتى لا يشتبه فيه "أورتسي": إنه شخص محترم وطيب جدا، قال "أورتسي":
– سوف نرى في النهاية.
أثناء الحصة نهض "أورتسي"، ورأى "ميشي" متعجباً أنه يتحدث مع تشيتشو مرة واحدة، انتظر "ميشي" بعصبية عودة "أورتسي" ليعرف منه ماذا علم، لكن "أورتسي" رجع إليه مرتين ولم يقل شيئاً، كان يضحك بابتهاج ويقول شيئاً ما لكل واحد، دق الجرس، جلس كل واحد في مكانه سأله بصوت منخفض وإثارة:
– ماذا يقول "تشيتشو"؟
ضحك "أورتسي":
– أنبهك إلى أنه ليس مسموحاً سؤال الرئيس عن أي شيء، هذه المرة أقول لك أن "شاندور" و"تشيتشو" ليس مشتبهاً بهما، هذان أحمقان، أما "بوسورميني" فسوف أخرجه خلال الحصة.
لم يقل أي شيء آخر، لكنه قال خلال الحصة:

– ماذا كان بينكما؟
سأل "ميشي" وقد احمر وجهه كالجمر عما يقصده.
– نعم، كان هناك شيء ما.
قال "ميشي" وقد نظر نحو المعلم حتى لا ينادي عليه بسبب التهامس بأنه لا شيء، ثم خطر بباله بعدها أن "أورتسي" يعرف غرفته، كان عندهم أول أمس عندما لم يكن هو موجوداً، حينها استنتج شيئاً ما، فمال إلى "أورتسي" وهمس في أذنه:
– عندما أتت إليّ لفة أكل "بوسورميني" دهان الحذاء الخاص بي؛ لذا فهو غاضب مني.
قال "أورتسي" وضحك بصوت منخفض لأنه تذكر حادثة اللفة بالكامل التي علم بها أيضاً حينذاك بأن نعم. خلال الحصة، الساعة العاشرة، في الفناء، يلعبون لعبة "الكَوْم صغير، يريد المزيد". يوم جميل جاف بارد، لكنهم كانوا في الخارج مرتدين معاطف شتوية. خرج تلاميذ الفصل "A" وشاركوهم بالصياح والصراخ في اللعبة، حيث يقومون بإيقاع ولد على الأرض ثم يقفز عليه آخر فثالث وهكذا، عندها يصيحون "الكوم صغير، يريد المزيد". فيركض الأولاد المحيطون إلى الكوم كالنحل، يقفزون عليه ويكبر تل الأولاد أكثر حتى يبدأ من في الأسفل بالصراخ فيتفرق الجميع. رأى "ميتشي" "أورتسي" وهو يهمس "لجيماشي" مرتين، خجل من أن يراقبهما، أخذه الحماس ورمى بنفسه على المجموعة، صياح وصراخ مرتفع، أخافوا العصافير على أشجار السنط الخالية من الأوراق، اشتد حماسه واحمر لونه، أفاق على عدم وجود أي أحد فوق رأسه، يصيح أحدهم:
– ألن تقف يا عديم النفع؟!
وأصابته ضربة بعصا على ظهره، صرخ بأعلى صوته:
– من عديم النظر هذا؟
ونظر إلى الخلف، كان مدرس اللغة اللاتينية هارتالاندي "Hertelendy" ذو الشارب الشائك بلحيته غير المهذبة، ويهدده بعصاه الكبيرة المعقوفة، لم يضربه أكثر، وفي المقابل فزع ولم يكد يستطيع الوقوف على قدميه، ضحك التلاميذ عليه لأن العجوز أمسكه. وضحك عندما اختفى المدرس قرب غرفة المدرسين، ثمّ دخل في شجار مع ثلاثة أولاد، اشتعلت النار في دمه وكان يستطيع عراك الفصل بالكامل، ظهر "سجدي":
– ملاكمة، ملاكمة يا صديقي؟ تعالَ إلى هنا فقط للتشاجر!
لكنه تراجع عنه، لم يأخذ التحدي، وواصل السير إلى وراء النافورة، وهناك رأى "أورتسي" يتناقش مع "بوسورميني". فزع منهما، أراد العودة حتى لا يلمحوه، غيّر رأيه وتوجه للفصل عبر الباب الثاني وهو يتصبب عرقاً، "بيشتي شيمونفي" في الفصل يحكي بفم ممتلئ أن "نيلاش" ركل السيد الأستاذ "هارتالاندي" رائد الصف الخامس، في بطنه عندما ضربه بالعصا، وكان هذا كذباً لأنه لم يفعل ذلك بالفعل، وارتفع صوت "بيشتي" وصدق الجميع، وقال "يانوش فارجا":
– إن هذا المدرس ذو بطن كبير جداً، أتمنى أن تكون قد ضربته جيداً؟
ضحك "ميشي"، وجلس "إمرا بارطا"، هرقل الفصل وهو يضحك، ثم ضرب على كتفه وهو يناديه صديقي، راقت له ضربة الكتف، رغم أنه لم يضرب المدرس، وشعر في قدمه بزغزغة غريبة وكأنه قام بركله بالفعل، قال "أورتسي" الذي دخل للتو ورأى ضرب "إمرا بارطا" على كتف "ميشي":
– قمت بتحريض "يارمي" "Jármy" على أن يلعب الكوم صغير، ولديه ساعة ذهبية صارت في الأسفل وفوقها المدرسة كلها، وضحكوا.
ظهر "لميشي" أن "أورتسي" هو من حرض على الأمر، وتناقش باطمئنان مع "بوسورميني" وراء النافورة. "بوسورميني" ولد متوحش يتعارك دائماً، تأكد أن "أورتسي" قام بترتيب الكوم الصغير حتى يصل خبره إلى الفصول ويخرج "بوسورميني" من الفصل "A" حتى يمكنه التحدث معه سراً. أراد أن يسأله عمّ تحدثوا عنه، وأن يعرف كيف تحدث وماذا سأل، وماذا قال

"بوسورميني" له، بدأ "أورتسي" يثيره بشكل رهيب الفضول بالفعل بشأن ماذا سيكون في ربع الحصة القادم. كيف سيجعل "أندراشي" يخرج من الفصل؟ خجل أنه ترك نفسه "لأورتسي" كالمجنون، كطفل صغير من قبل أن يراقب أولاً ماذا يفعل "أورتسي". الآن سوف يتحكم في نفسه، دار هذا في ذهنه. لم يتكلم "أورتسي" خلال الحصة، وطلب ممحاة مرة واحدة، كان سعيداً أنه أعطاه إياها، وأن لديه ممحاة من الدرجة الأولى ناعمة، اشتراها هذا الأسبوع، شعور جيد له، ومازال لديه الكثير من النقود، في جيبه فورنت وخمسة كرايتسارات رغم أنه أنفق ثلاثين بالفعل منذ أول الشهر.

دق جرس استراحة العشر دقائق، انطلق "أورتسي" إلى الخارج، ارتدى معطفه في الممر، أسرع وراءه لكنه تأخر، لأنه لم يضع كراساته، وترك أشياءه على المنضدة التي ستتناثر بالكامل تحت الأقدام. خرج إلى الفناء لم يرَ "أورتسي"، انقضت عشر دقائق، و"أورتسي" يعمل ذهنه، لم يعرف ماذا يريد "أورتسي"، قابل "جيماشي" في الفناء. خرج "جيماشي" وراءهما؛ يتساءل أين ذهبا، وسأله على الفور:

– أين "أورتسي"؟

– لا أعلم.

– ألستما معاً؟

نظر "ميشي" إليه، يفكر أن "أورتسي" على علاقة أفضل "بجيماشي"، ويتسارا أمامه، قال:

– لقد كنتما تتهامسان قبل ذلك.

قال "جيماشي" بشكل صريح:

– أنا لم أتهامس، فقط قال "أورتسي" أن أدعو باي "Bay" إلى خارج الفصل.

– من الفصل "A"؟

– نعم.

– باي؟

– نعم.

– ماذا يريد هو من باي؟

– وهل أعلم أنا؟

نظرا إلى بعضهما وبدآ يضحكان.

– لم يقل سوى أن سألني عن علاقتي بباي، فقلت أن علاقتنا جيدة فهو ابن عمي. طلب مني أن أناديه ليخرج، فناديته إلى الخارج، فذهبا، تركاني وشرعا في التهامس.

– عن ماذا؟

– ليس لي علم، وليست أذني طويلة، كانا يقفان هناك، أما أنا فكنت أقف هنا. لم يكن بإمكاني أن أسمع، رأيت باي دخل بعد وقت قصير، وبدأ مع يارمي لعبة الكوم صغير يريد المزيد، وكنت فيها، ثم رأيت بعدها "أورتسي" يتحدث مع ذلك الولد البدين، الأحمر الخدين، أتعرف من؟

قال "ميشي" بصوت مرتفع:

– "أندراشي"؟ تحدث مع هذا أيضاً؟

– ومع من أيضاً؟

نظر "ميشي" أمامه فحسب، وشعر فجأة أنه يجب ألا يخبر بكل شيء، قال كاذباً وقد غمز بعينه:

– إنه لا يعرف "أندراش"، وبالرغم من ذلك يتحدث معه.

قرر أنه سيقوم بمراقبة أورتسي، لكنه لن يخبر أحداً بعد ذلك بما يعلم. انطلق عامل المدرسة صاحب الحذاء الطويل، عبر الفناء، بجوارهما. شعر كلاهما أنه ذاهب لدق الجرس، تتبعاه بنظرهما، وقال "جيماشي":

– هل تتذكر أن الجرس كان مزيناً العام الماضي.
– متى؟
– أثناء امتحانات إتمام المرحلة الثانوية! يا لك من أحمق، الصف الثامن! أتتذكر أن الصف الثامن قام أثناء امتحاناته بتزيين الجرس بالورود وغيرها، والسجق والنقانق وشرائح اللحم المقدد تتدلى منه، وبرتقال أيضاً.
– نعم!
– رأيته، لا تتحدث عن ذلك لي! عليك الانتباه في يونيو القادم عندما يكون هناك امتحان صف في الصف الثامن، الآن أيضاً سيقومون بتزيينه؛ لأن هذه عادة مدينة الطلاب.
توجها لا إرادياً نحو الجرس المثبت في الحائط أمام الصف الثامن، نظرا إلى عامل المدرسة يمد ذراعه لأعلى ويمسك بالمقبض السلكي المتدلي من الجرس ويجذب الجرس عدة مرات. أرادا الاستدارة للركض إلى فصلهما، تفاجآ "بأورتسي" يخرج من باب الصف الثامن، وتفاجأ "أورتسي" برؤيتهما، ظلوا ينظرون إلى بعضهم للحظة، بدأ "جيماشي" يضحك، وضحك "أورتسي"، أما "ميشي" فكان ينظر بشكل جاد. يتحدث مع تلميذي الصف الثامن، ذهب إلى شقيقه الكبير بالصف الثامن وشاهد السيد "ليسنياي" والسيد "ناج"، أسرع "أورتسي" إليهما بدون توتر:
– لقد قلت بالفعل أن مراقبة الرئيس وترصّده ممنوع.
تركهما وغادر راكضاً، كل منهما نظر إلى الآخر، انفجر "جيماشي" في القهقهة كما اعتاد بعين مغمضة مثل الديك في الشمس، وضحك بشدة واحمر وجهه للغاية:
– رئيس! تباً له! كنت سأكون الأمين، ثم إنه ليس لدي هذا الكم من الأسرار.
وأشار إلى ظفر إصبعه الصغير، لم يتكلم "ميشي"، ينظر إلى "أورتسي" بجدية، خاف منه:
– سيعلم هذا كل شيء، وفكر بخوف في صندوق القمامة، والسكين الصغيرة الموجودة خلفه ذات المقبض الذي يشبه السمكة.
تلا ذلك الحصة الأخيرة، وقد مال عليه مرة:
– "ميشي".
– نعم.
– قل لأي أحد يسأل عن تذكرة اليانصيب أنك أعدتها بالفعل إلى السيد المسن.
نظر "ميشي" إليه، متفاجئاً، وقال له ذلك عندما سأله أول مرة عن الأرقام، وهو الذي رأى ألا يخبر أحداً عن فقد تذكرة اليانصيب، شعر أن "أورتسي" يعلم كل شيء وخفض نظره، بعدها همس إليه "أورتسي" مرة أخرى:
– مهما سألوا عليك أن تصر على أنك قمت بردها فحسب.
أومأ "ميشي" بهدوء، مرتبكاً وهامساً، لكن فم "أورتسي" تحرك، ابتسم بانتصار، وعض على شفته خجلاً أنه كشف كل أسراره، "أورتسي" عرف أنه لم يرد تذكرة اليانصيب إلى السيد المسن، كز على أسنانه غاضباً، ونظر إلى الكراسة بشكل باهت، غير الحروف والجمل فيها. شعر أنه ذليل، انفعل لأنه تصرف بشكل طفولي إلى هذه الدرجة، كره "أورتسي، وود أن ينغزه في جنبه حتى يسقط من على المقعد، وفي المقابل أحب جيماشي المسكين فهو ولد صغير جيد، يجلس بهدوء بجواره، ولا يخمن أي شيء مما يحدث. شعر أن ما فعله "أورتسي" مغامرة لصوصيّة، أما "جيماشي" ولد مسكين يجلس بجواره بوجهه الأبيض المشمول بالبراءة، وفي المستوى الثالث. فهم لماذا أراد "أورتسي" أن يكون الأمين و"جيماشي" الكاتب. إذا كان هو الأمين فسيثق فيه بشكل أكبر.
هل يا ترى سيقول شيئاً ما بعد الحصة؟ غداً هو الأحد، هناك حاجة إلى مناقشة، ربما سيقول أين يتقابلون، وفكر بالفعل أن يكون ذلك في مكان سري، عند سفح برج ما أو تحت شجرة كبيرة في الغابة. خطر بباله مؤخراً أنه ربما يدعوهما إلى منزلهم. هنا اشتعل فيه الكثير من المشاعر والانفعالات، شعر برائحة الشمع الذي صبوا به التماثيل، ثم رأى ما كان عند

الوجبة الخفيفة من مفرش المائدة الأبيض الثلجيّ والكؤوس البورسلين الرقيقة، ذات الرسومات الملونة، ثم تذكر المرأة ذات الشعر الأشقر، واشتعل وجهه كالجمر، الفتاة الثرية الصغيرة اللعوب ذات الشعر الأشقر... سر الحلم. في هذه اللحظة كان أمامه قطعة من الورق: غداً الساعة الرابعة مساء بالضبط عندنا، همس إليه "أورتسي":

– وقع عليها.

لم يفهم لماذا عليه أن يوقع.

– لماذا؟

فقد "أورتسي" صبره:

– وقع عليها. خطاب عام. "جيماشي" أيضاً سيوقع.

عندها قام بالتوقيع عليها باسمه. وأعطاها إلى "جيماشي"، قال له:

– اكتب اسمك هناك.

كتب "جيماشي" اسمه بدون كلام، ثم أعاد إليه الورقة، قام "أورتسي" كعادته بجمع متعلقاته وذلك عندما دق الجرس، وغادر في تلك اللحظة التي خرج فيها المدرس من الباب. لم يقم حتى بإلقاء التحية على أي أحد. أما هو فقد صافح "جيماشي".

— مرحباً.

— قال "جيماشي": مرحباً، هل ستأتي عندنا بعد الظهيرة؟

— هذا غير ممكن بالطبع.

— لماذا؟

— يجب علي أن أذهب لتعليم "دوروجي".

— نعم.

غادر مسرعاً بدون إلقاء تحية جديدة: فقط حتى يقلد "أورتسي". لم يستطع أن ينتهج هذا الخلق حتى الآن، كان دائماً هو الأخير، كان يقدم أمامه الجميع، لم يكتم سرًّا أمام أحد، لم يكن يجب إلا مجرد السؤال، وكان يحب أن يرضي الجميع، لكنه الآن حركه شيء ما حتى يكون قوياً ويبقى مع نفسه ولا يسلم نفسه لأحد. صعد على السلم مسرعاً، كان يقفز درجتين مرة واحدة، كان يلهث وكاد أن تتوقف أنفاسه عندما وصل إلى الطابق الثاني. لم يكن هناك أحد بالغرفة، هو الذي فتح الباب بالمفتاح المعلق على دلفة الباب. فرح أن الغرفة خالية، يمكنه أن يبقى مع نفسه لدقيقة على الأقل، قام بوضع كتبه داخل الدرج، كان يتنفس بشدة، لم يكن يفكر في شيء، لكن شيئاً ما بداخله جعله مشدوداً، متوتراً.

أتى بعدها رئيس الغرفة مرتدياً سترة، كان يسير هكذا دائماً، حتى في الشتاء لم يكن يرتدي معطفاً عندما ينزل إلى الفصل، جاء تلاميذ الفصل "A"، ثم تشيتشو وفي النهاية "ميهاي شاندور"، الذي كان ينصت إلى المتحدثين على السلم. خجل من نفسه أمامهم، من يدري هل يا ترى لاحظوا أن "أورتسي" يقرر الآخرين؟ خرج من الغرفة بسرعة إلى مدينة الطلاب القديمة، وركض تحت القبو حتى النافذة، والتي كان عليها قضبان حديدية كبيرة، سوداء، وغطت الأتربة بشدة الطلاء الأسود، نظر إلى الخارج إلى برج الكنيسة الكبيرة. كان يحلق حولها الكثير من الغربان، وكان يمكن سماع صوتها، فتح ذراعيه هو أيضاً، ود أن يطير ويحلق، وشعر أن ذراعيه ورغبته تصطدم بقبو مدينة الطلاب. كما لو أنّه السجن، كان هو حبيساً هنا، لم يكن ممكناً أن يبقى مع نفسه ولو للحظة، وبالرغم من هذا عليه أن يعيش وحيداً، بدون رفيق، بدون حديث، لا يمكنه أن يبوح بما في قلبه لأحد. أمسك السياج الحديدي، لم تكد تصل إليه أصابعه، لو أنه قوي الآن مثل شمشون لاستطاع هزه ولانهار المبنى وسقطت الأحجار فوق رأسه جميعاً!

قطع صوت جرس سكن الطلبة خلوته، ورجع راكضاً إلى الغرفة. عندما اقترب من الباب انفتحت الأكرة وخرج الطلاب الستة واندفع من يسكنون بالغرف الأخرى أيضاً إلى الخارج. دخل جارياً بينهم، التقط معطفه وهرول هو أيضاً وراءهم. لم

يقل له الطلاب الكثيرون، المتحدثون، المثرثرون، المحركون أفواههم بالكلام دائماً مجرد:
مرحباً.
بعد الغداء أسرع إلى منزل "دوروجي". عندما دخل من البوابة الخشبية الطويلة، سيئة الحالة، التي لا تظهر ما وراءها، والتي تميز المنازل في دبرتسن، والتي يجد المرء بداخلها فناءات جرداء وخالية، عندما دخل لفحت وجهه رياح شتوية، توقف نفسه حتى ركض إلى نهاية الممر واحتمى في باب المنزل. خرجت "بيلَّا" الصغيرة من المطبخ إلى الصالة الصغيرة في نفس اللحظة التي دخل هو فيها من ناحية الفناء. قالت الفتاة بسعادة.
— مرحباً بك!
ابتسم "ميشي".
— قالت: هل لديكم دروس كثيرة؟
— نعم...
— كثيرة جداً؟
— بما يكفي.
أدارت الفتاة وجهها ضاحكة ونظرت إلى مكان ما بعيداً.
— فلتتفضل إذن... سيد "ميشي"...
وأشارت إلى طريق إلى الباب، بيدها اليسرى. فتح "ميشي" الباب ودخل. كانت الخالة جالسة كعادتها في الغرفة الضيقة، في مكانها، بين ثلاثة أسرة على رأس منضدة صغيرة، في أريكتها، مر أمامها ملقياً التحية بصوت منخفض، لكنها لم ترد التحية ونظرت إليه بنظرها المتجمد بشكل جاد كأنها تطارده به، إلى أن هرب عبر الباب الآخر. لم يكن بالغرفة إلا "إلونكا"، وعندما دخل بدأت تضحك على الفور. ارتبك "ميشي" كونه معها بمفرده. قالت:
– معذرة، لا يوجد هنا "شانيكا".
ضمت الفتاة شفتيها حتى لا تنفجر في الضحك. قال مرة أخرى:
– أليس موجوداً هنا بالداخل؟
فانفجر الضحك.
– بالطبع ترى أنه ليس موجوداً.
احمر وجه "ميشي"، أسرعت إلى الخارج، وجذبت الباب وراءها، لو كان هو الآن قوياً وذراعه طويلاً ويستطيع اختراق الحائط أيضاً لمده ذراعه عبر الباب المغلق وأمسك بشعره وجذبه منه بقوة. فكر في نفسه أنه ربما تنادي الآن على شاني بالخارج، جلس بجوار المنضدة حيث كانت الكتب موضوعة بالفعل. أخرج قلمه الرصاص من جيبه، وبدأ يشخبط خطوطاً على حافة كراسة. كانت الغرفة دافئة، تدعو للنوم، هادئة، وكان يسمع صوت دقات الساعة من الغرفة الأخرى، وكتب هو فجأة:
العقيد "شيموني"
في سنوات طفولته
صعد ذات مرة على
البرج الأحمر
منذ وقت طويل وهذا المقطع الشعري يدور في رأسه. من يدري متى خطرت بباله هذه السطور الأربعة، لكنه لا يستطيع إكمالها، لا يستطيع إيجاد الباقي؛ لأنه ليس لديه وقت قط للتفكير فيه. يريد أن يقول بالشعر أنه عندما صعد العقيد "شيموني" البرج الأحمر وجمع صغار الطيور ثم أسقطه رفقاؤه لكنه لم يصبه أي ضرر. كان يدور هذا في رأسه باستمرار منذ حوالي شهرين بالفعل ويريد أن يصنع منه قصيدة شعرية. مثل "أقسم الملك للاسلو هونيادي..." ذات مساء قالها كلها

بالشعر لكنه لم يكن بإمكانه أن ينهض ليكتبها ونسيها حتى الصباح. فجأة واصل الكتابة:
كان البرج عالياً
قمته عالية
سطحه بالكامل
مليء بالعصافير
فرح بهذا بشدة، لم ينتظر هذا حقّاً، لم يلاحظ أصلاً كيف كتبه؛ لأنه لم يفكر فيه ألبتة.
مدوا إلى الخارج لوحاً خشبياً
ووقف هو عليه
اعتبره الأولاد
عبداً ذليلاً...
يا إلهي! تغير وجهه. بدأ الأمر بشكل جميل للغاية، اعتقد بالفعل أنه سيكتمل حتى النهاية بهذه السهولة، لكن كلمة: عيد ذليل، لم يكتبها هناك إلا حماقة؛ لأنه لم يخطر بباله أي شيء آخر... حسناً، الآن هو عبد ذليل لكتابة الشعر! لكن كيف يخطر بباله أنه يستطيع كتابة شعر؟
اعتبره الأولاد
تحرك فم الجميع...
ضحك بسعادة إلى حد ما، ثم وجده بعد ذلك سيئاً.
مدوا إلى الخارج لوحاً خشبياً
ووقف هو عليه
اعتبره الأولاد
ولداً سيئاً.
نظر أمامه مفكراً وعندها أزال ما كتب وكتب من جديد:
الأطفال الأوغاد الكثيرون
مدوا إلى الخارج لوحاً خشبياً
وعلى حافته
أوقفوه بالخارج.
ليس جيداً، مسح هذا أيضاً.
عندها مال على رأسه وجه، عرف من سخونته أنها "بيلّا".
– هل تكتب شعراً؟
نزع "ميشي" الورقة فجأة، وكرمشها، وضغطها في قبضة يده بيأس، لكن الفتاة أمسكت بمعصمه وأرادت أن تأخذها منه وهي تقهقه، بدأ الولد الصغير يتدافع معها بقوة شديدة. كانت الفتاة أقوى بكثير، لكنه تقوقع وضم قبضته إلى صدره، حاولت الفتاة بذراعيها بقوة أن تفرد جسمه. لم يعلم أي منهما كيف حدثت هذه المصارعة المفاجئة ولماذا يريد أحدهما الشعر بأي ثمن ولا يعطيه له الآخر ولو نظير حياته. ظلاً يتدافعان لبعض الثواني بلا صوت تقريباً. رجته الفتاة بإلحاح:
– أعطنيها يا "ميشيكا"، "ميشيكا" اللطيف، يا عزيزي، سأموت ما لم آخذها.
لكن الولد ضحك بانتصار وأدخل قبضة يده في جيبه. احمر طرف وكانت تبرق عينه السوداء، هز رأسه بعناد وسعادة أن لا. قالت الفتاة متوسلة إليه:
– أيها اللطيف "ميشيكا"، لابد أن تعطني هذه الورقة، لدي فضول شديد تجاه شعرك، شعرك أنت أيها اللطيف

"ميشيكا"، "ميشوكا"، أعطنيها يا "ميشي".
قال الولد الصغير:
– لا يمكن.
قالت الفتاة هامسة:
– لقد كتبته لي على كل حال؛ لذا ستعطينيه بالطبع.
أراد "ميشي" أن يقول بصوت مرتفع وهو يضحك أنه كان في ذهنه أن يكتب لها، لكنه لم يعلم من أجل ماذا، لم يقل ذلك ولكنه جعل الفتاة تعتقد هذا.
– عن أي شيء يتحدث ما كتبت يا "ميشيكا"، عن أوراق الورد، عن عطر البنفسج، أيها الشاعر الصغير، أيها الشاعر الصغير؟
تفاجأ "ميشي"، أراد أن يضحك على ذلك. أوراق الورد؟ هل يمكن الكتابة عن هذه أيضاً؟ لكن الضحك بقي في قلبه.
قالت الفتاة:
– إذا لم تعطني الورقة سأغضب منك.
لم يكن من الصبي إلا أن هز رأسه بعناد مرة أخرى.
– حسناً، أنا غاضبة منك.
أخرجت عملها اليدوي وجلست بعد المنضدة أمام النافذة، قالت مرة أخرى:
– إنني غاضبة منك بحق.
ولم تتكلم بعدها، جلس "ميشي" في مكانه، أحزنه غضب الفتاة. كان على وشك أن يريها ما كتب. عندها دخل "شانيكا"، لم يلقِ أحدهما التحية على الآخر، جلس "شانيكا" مكانه في مواجهة "بيلا"، ولاحظ أن هناك صفحة تم نزعها من كراسته، حدق إليه، ونظر إلى "ميشي"، ونظر إلى اليسار إلى "بيلا"، لكنه لم يتكلم، فقط حملق بوجهه وأرسل نظرات لاذعة. استحى "ميشي" أن يخبره بما حدث، فقط حول الكلام إلى التعلم، بدأ الدرس وسار بصعوبة في البداية، لكن بعدها اتضحت أفكاره وقام بشرح القاعدة الثلاثية بشكل صحيح ومبدع.
ود أن يستمر المساء إلى الأبد، لم يشعر أنه منتعش وذكي مثل الآن، وبإمكانه أن يشرح كل شيء، شرع في شرح أصعب الأشياء، لم يكن يشرح "لشاني" فحسب، بل لهدف أعلى، أراد التعبير عن نفسه بشكل رفيع، استخدم كلمات لم يجرؤ على استخدامها في وقت آخر: "بشكل شعري"، "روح" "زهرة ذات رائحة عطرة" وكلمات أخرى من هذا القبيل. أشعلت "بيلّا" المصباح، ساد الصمت، شاهد اشتعال عود الكبريت وبجانبه وجه الفتاة البريء التي كانت تتحرك بحيوية وتضحم دائماً. لكنها هادئة وساكنة، إنّها لأخت جيدة. لم يشعر من قبل أن أحداً قريباً منه بهذه الصورة باستثناء أمه، كان سعيداً، نسي كل شيء سيء في حياته، ما كدّر سعادته أنه يجب عليه المغادرة قريباً، لم يعرف سبب خوفه اليوم من السيد المسن، كتم بداخله فكرة أن تذكرة اليانصيب تهدده، بلا جدوى، وفي الصمت الدافئ حيث سكت الجميع، وهو من يتكلم، سكت، حزن. قاما بترجمة جملة لاتينية: الأصل المجيد للشعب الروماني يمارس تأثيراً جليلاً على قلب كل المواطنين، عندها قال:
– أصل الشعب المجري لا يمارس تأثيراً جليلاً على قلب المواطنين المجريين.
رفعت "بيلّا" نظرها بتعجب.
– لماذا لا؟
– لأن المجريين سيئون للغاية لدرجة أنهم لا يعرفون شيئاً عن أصلهم، وليسوا مهتمين بذلك أصلاً.
– لماذا لا يهتمون بذلك يا "ميشيكا"؟
– لأنهم يعتقدون أنه ليس من الجدير الاهتمام بذلك؛ لأنهم لم ينحدروا من أصل رفيع ثري وإنما من رعاة وفلاحين فقراء؛

لذا لا يهتمون بالأقارب حتى؛ لأنهم بقوا فقراء ورعاة الآن أيضاً.
– أي أقارب يا "ميشيكا"؟
– المجريون أيضاً لديهم أقارب! الألمان والإنجليز يعلمون أنهم أقارب، كما يعلم الإيطاليون أنهم أقارب الفرنسيين، لكن المجريين لا يعلمون هل الفنلنديون هم أقاربنا أم الأتراك أم البلغاريون أم من.
– هم أيضاً لا يعلمون عنا.
– لأن الفقراء لا يصلون أقاربهم، فقط الأثرياء. رغم أنه ليس الكونتات فقط هم الذين لديهم أقارب، وإنما لعمال المياومة أيضاً، بيد أنهم لا يصلونهم؛ لأنهم لا يستطيعون استضافتهم.
– من أين تعلم أنت عن أقارب المجريين؟
– لا أعلم كثيراً، القليل فقط، سمعت من "أمي" ومن "خالي المدرس" ومن السيد "ناج" بالأمس ومن السيد الأستاذ في حصة الجغرافيا أيضاً، كما قرأت الحكايات والخرافات المجرية القديمة عنهم. وخرج المجريون من آسيا حتى يحتلوا امبراطورية جدهم "أتيلا" "Attila"، بقي إخوانهم في أرض الوطن ولم يدعوهم أبداً إلى أن يلحقوا بهم.
– ولماذا يلحقون بهم؟
– لأن هذه الدولة كانت كبيرة بالنسبة لهم، وسيكون جيداً لو أتى باقي المجريين جميعاً، لكن الأقارب الأغنياء لا يريدون أن يعرفوا شيئاً عن الفقراء. إذا كان لأحد ثروة كونت كان ذلك كبيراً له بلا جدوى لغيره، حيث لا يدعو الأقارب الفقراء.
نظرت "بيلَّا" باندهاش إلى الولد الذي كان وجهه متقداً وعينه متوهجة ويتحدث بغضب، بصراحة فهو يقول أفكاره الأكثر سرية للشخص الوحيد الذي يمكن أن يفهمه في هذا العالم، قالت الفتاة بصوت منخفض وأصبح وجهها جاداً:
– هذا حقيقي، القريب الغني لا يعرف بعدها القريب الفقير.
صاح "ميشي":
– إنهم يستحقون أن يفسدوا في النهاية. أما سيكون جيداً للمجريين اليوم لو أن المجر يسكن في كل مكان بها مجريون فقط، وليس الطوطيون والرومانيون والصربيون والشفابيون والأجناس الأخرى؟ هؤلاء لن يساعدوا المجريين أبداً، أما لو كان المجريون فقط هم الموجودون لاتحدوا وتعاونوا. لكنهم لم يريدوا أن يدعوا إلى هنا أبناء وطنهم؛ لأنهم لم يريدوا أن يقاسموهم ويشاركوهم. أرادوا جميعاً أن يكونوا كونتات في وطنهم ويمكن التحكم في الغرباء الفقراء أكثر من الإخوة والأشقاء.
قالت "بيلَّا" بمعنى سري:
– الأخ لا يريد التحكم إلا في أخيه.
قال "ميشي":
– هذا حقيقي، وأعلمه، لأننا فاسدون، وأبي لم ينتقل إلا منذ ثلاث سنوات إلى القرية التي نعيش فيها الآن؛ لأنهم قاموا بعرض أرضنا ومنزلينا للمزاد لتسديد ستمائة فورنت بسبب انفجار الآلة البخارية وعندها انتقلنا إلى هذه القرية؛ لأن أقارب أمي موجودون بها، وقد قال هؤلاء: "تعالَ إلى هنا يا زوج أختنا، سيكون لك حياة مثلما في الجنة، وعندما انتقلنا بالفعل أرادوا أن يستأجروا أبي وأمي، ولم يريدوا حتى الدفع لهما. لأن أمي عندما تحيك لأحد بلوزة تدفع لها جميع الفتيات الفلاحات عشرين أو خمسة وعشرين كرايتساراً نظير ذلك، لكن خالتي "شارا" "Sára" لا تريد أن تدفع ولو قصعة لبن، ولا يخرج منها إلا أن تقول: "كم أنت ماهرة يا "بورتشا"، وتدعوها "بورتشا" رغم أن أمي تكره هذه التسمية؛ لأنها كانت تدعى بالبلدة دائماً "بورتسا" أو "بوريكا". لكن خالتي تدعوها هكذا حتى تشعرها أنها أعلى، وتسميتها هكذا "بورتشا" كخادمة ما. على القريب الفقير ألا يختلط بالأقارب الأثرياء. لكنه إذا ذهب إليهم كسيد مثلهم أو أكثر ثراء منهم فإنهم يحترمونه ويسعون في رضاه!
نظرت "بيلَّا" متفاجئة إلى الولد الصغير، أصبح وجهاً جاداً للغاية، كان وجهها ليناً وحزيناً.

– أنت محق تماماً في هذا يا "ميشيكا"، الفتاة الفقيرة لا يمكن أن تذهب إليهم إلا كغني.
سكت "ميشي" قليلاً، ثم قال بعدها:
– إذا قاموا الآن باستكشاف كتب وكتابات قديمة بخصوص وقت شغل المجريين لموطنهم، وواصل فـرع من المجريين السير إلى الغرب وأصبح منهم سكاناً بفرنسا؛ فسيبدأ المجريون على الفور في الكتابة والتحدث عن أن الفرنسيين أو الإنجليز هم أقاربنا الكبار وسيتلطفون ويتوددون، لكن إذا كان الأقارب ماريون وكوميون[44] وتتار وأي جنس من هؤلاء فمن الأفضل عدم التحدث عنهم طالما أنه ليس لنا أية فائدة، لذلك فأنا غاضب من المجريين.
كررت "بيلا":
– ولِمَ يهتمون بهم؟
– رغم أنه من الممكن أن يكون هؤلاء الفنلنديون أجمل وأفضل من الفرنسيين أو الإنجليز، ولو أنهم محظوظون لاستطاعوا أن يكونوا متحضرين متقدمين، لكن المجري لا يأخذ على عاتقه أن يجعل القريب متحضراً وثرياً. لا يمتلك أبي فورنتا واحد، عليه أن يعمل ويقطع الأخشاب طوال اليوم مقابل ثلاثين كرايتساراً كأجرة يومية، رغم أنه لو أن أحد الاقارب بالقرية قام بتدعيمه ومساندته فيمكنه أن يقوم بنشاط تجاري وربما يسترد كل ما فقده أو أكثر خلال عام واحد. لكنهم لا يريدون أن يفعلوا ذلك، بل يأتي إلينا الأقارب الأثرياء جداً ويشربون مشروباتنا التي يحضرها لهم أبي من أجره اليوميّ. إنهم يبقونه فقيراً بالقوة حتى لا يصل بأيّة حال إلى شيء ما؛ لأنهم يعرفون أنه إذا صار في مكانة أفضل بقدر ما فلن يكونوا هم سادة أغنياء بجواره.
قالت "بيلا":
– غير مسموح بالتواجد بين الأقارب الأغنياء إلا كغني.
ثم أضافت متنهدة:
– أود أن أكون غنية ولو ليوم واحد حتى أتواجد بينهم وعندها سيسير كل شيء بشكل تلقائي.
نظرت أمامها، منحنية إلى الأمام قليلاً، بوجه رقيق، نبيل، كطائر محلق، نظر إليها "ميشي" متعجباً، كان هذا غريباً وغير معتاد بالنسبة له حتى أنه لم ينس هذه اللحظة أبداً، ثم واصل حديثه:
– الأثرياء المجريون لم يريدوا نفع الفقراء المجريين، بل أضروهم، والأمة المجرية الثرية لم تكن جيدة مع الأمم ذات القرابة الفقيرة ولا لدقيقة واحدة، لهذا السبب لا نعلم نحن شيئاً عن أجدادنا ولهذا ليس لدينا أقارب. ولن يكون من المجريين أمة كبيرة أبداً، لأن المجري ليس كاللاتيني، فاللاتينيون أقل من المجريين عندما بدأوا التاريخ؛ لأنهم لم يكونوا إلا مدينة واحدة، وبالرغم من هذا استطاعوا غزو العالم، أما المجريون فلم يستطيعوا فتح دولتهم. وعندما انطلق الرومان يغزون العالم أدخلوا فيهم الجميع كمواطنين رومان، أما المجريون فإنهم سيجردون الجميع من المجرية، وليبق هو المجري الوحيد الذي يضرب على صدره متباهياً أنه المجري الحقيقي، لا أحد يتمسك بهم.
قالت "بيلا":
– أود أن يكون لي ملبس واحد حتى أستطيع الذهاب إلى عمتي، الأميرة "باتكي" "Petky" وأخبرها وأقول لها من أكون.
انفعل "ميشي" مرة أخرى وبدأ من الأول مجدداً:
– مجري أو غير مجري، ألماني أو غير ألماني، فرنسي أو غير فرنسي، إنجليزي أو صيني، كل هذا سواء، شرح السيد الأستاذ مؤخراً أن البشرية كلها في مرتبة واحدة. قبل ذلك بعشرة آلاف سنة كانت جمجمة الإنسان وكل عظامه بنفس الهيئة، وكان الأمر سواء حينها بشأن أي لغات يتحدث، كان إنساناً وكفى. إذا علموا طفلاً صغيراً الفرنسية فسيكون فرنسياً، وإذا علموه الإنجليزية فسيصبح إنجليزياً، وزنجياً إذا تعلم الزنجية، وإذا أرسلوه إلى المدرسة فسيكون أستاذاً جامعياً، وإذا لم يفعلوا فسيكون راعياً قروياً، إذن بأي شيء يفتخر الشخص على الآخر؟ لقد تحدثنا كثيراً عن هذا مع أمنا. يا إلهي، هذا الإنسان الحقير كيف يستطيع التكبر على الآخرين ويحتقر أحدهم الآخر. إذا حاكت فتاة فلاحة ثلاثة خطوط على بلوزتها

فإنها تحتقر من وضعت اثنين فقط. تأتي السيدات الفلاحات إلى أمي ويقلن: "أيتها الخالة بوريشكا، أريدك أن تصنعي لي ثوباً ليس لأحد في القرية مثله، لكن لا تقومي بعدها بصنع ثوب مثل ثوبي لأحد آخر حتى لا يكون له مثلما لي". رغم أن تلك الملابس تتطلب حياكتها لها بأن تشبه ملابس الأخريات بالضبط حتى أن الغريب لا يستطيع التمييز بينهما، هذا ثوب فلاحي وذاك أيضاً. فقط أحدهما يوجد عليه وردة، تمت حياكته آلياً والآخر عليه رسمة قرنفلية. هذا هو الاختلاف بين البشر، لكن أتعتقدين أنه إذا وضعت "يوليشكا بارطا" في قصر "مارتوش جوروندي" فلن يكون بمقدورها أن تكون فتاة مدللة مثل "مارتوش جوروندي"، أو إذا كانت "مارتوش جوروندي" في مكان "يوليشكا بارطا" فلن تذهب هكذا إلى عمل بالمياومة؟ المال هو سبب كل شيء، لأن أسرة "جوروندي" لديها مال كثير، أما أسرة "بارطا" فليس لديها أي مال.
أطلقت "بيلّا" تنهيدة قائلة:
– نعم، المال هو سبب كل شيء.
– يجب على أبي أن يعمل طوال النهار من أجل ثلاثين كرايتساراً في ملابس متسخة، متعرقاً، متعباً. أما المدرس فمن أجل الحصول على راتبه يجب عليه أن يذهب كل يوم إلى المدرسة مثلما يفعل التلميذ، ويمكنه الذهاب دائماً بملابس جميلة ولا تتسخ يده. أما الشخص الثري فليس عليه أن يعمل حتى، وهو رغم ذلك يبقى ثرياً دائماً ولديه كل شيء.
نظرت "بيلّا" بشكل جاد في عين الولد الصغير:
– سأسألك الآن عن شيء يا "ميشيكا"، لكن أجب عليه كما تعتقد حقّاً. لو أن أحداً فقيراً جداً ويعاني للأبد ويعيش في فقر، وهناك إمكانية لألا يعيش في الفقر أكثر من ذلك ويكون بين الأثرياء على الدّوام، ويساعد أشقاءه ووالديه. فهل مسموح له أن يضيع هذه الفرصة؟
فكر "ميشي" في أمه وأبيه وأشقائه الصغار الذين يتزحلقون على الأرض في الغرفة الباردة، وتدخل الرياح من صدع الباب ودلفة الباب البيضاء بسماكة من أثر الصقيع، وقال:
— ليس مسموحاً.
خفضت "بيلّا" رأسها، ساد صمت لوقت طويل، أراد "ميشي" أن يتكلم لكن الألم ضغط على حلقه، خطر بباله أن الحظ كان بيده، تذكرة اليانصيب التي يمكنه أن يحصل بها اليوم على ألف فورنت على الأقل، ثروة والده بالكامل تم بيعها في مزاد بستمائة فورنت، ويمكنه أن يعطيه ألفاً، وحينها سيكون كل شيء جيداً، وسيصبح والداه وأشقاؤه مرة واحدة سادة أغنياء. انفطر قلبه بسبب أنه ضيع الورقة الصغيرة التعيسة، ارتعشت شفتاه، وأراد أن يخبر "بيلّا" بذلك، لم يجرؤ لأن "شانيكا" أيضاً كان هناك ولم يتدخل بكلمة في محادثتهما، لأنه حمار كبير ولا يفهم من الأساس ما تحدثا عنه، لكن هذا الأمر سيتحدث عنه في المدرسة، لم يتكلم "ميشي"، كما أن الساعة تقترب من الخامسة، ويجب عليه الإسراع إلى السيد المسن، عندها دخلت الفتاة العانس، "فيولا"، فور دخولها انبعث البرد منها، كان هناك برد قارس قاسٍ بالخارج، وقالت:
– حسناً، تم هذا الأمر أيضاً! دفعت للفلاح عشرة فورنتات مقدماً، أعطيته إياها، لكن كم كان مقابل هذا من الحديث! لكن الآن سيكون عندنا قطعة أرض لأقوم بإنتاج كل ما نحتاجه من الطعام طوال العام. ألا تفرحين بذلك؟
اعتدلت "بيلّا" ثم استلقت إلى الخلف، واغمضت عينها جزئياً ولم تقل سوى:
– حقاً؟
– نعم، نعم، يمكنك أن تفرحي بذلك.
ثم التفتت "فيولا" إليهما:
– كيف تسير المذاكرة؟ متى سيكون توزيع الشهادات؟ متى يعطون الإجازة؟ اقترب عيد الميلاد المجيد. في خلال ثلاثة أيام عيد، بقي أسبوعان فقط وتنتهي فترة الجد والاجتهاد.
خفض "ميشي" رأسه لأسفل، ليس هناك ما يمكن التباهي به. لم يكن متأكداً بحق أن "شانيكا" يعرف شيئاً آخر غير متى بدأ الدرس. قال بهدوء:

– يجب المذاكرة كثيراً.
– بعد ذلك ستتعلم "بيلَّا" مع "شانيكا" بشكل منفصل.
لم تحرك "بيلَّا" ساكناً، بقيت ساكنة وقالت مرة أخرى.
– نعم.
قالت "فيولا" بحدة:
– ساعديه حتى يساعدنا جميعاً، بقدر ما يستطيع.
ثم وضعت فراء القط ومعطفها الفوقاني، قالت "بيلَّا" بصوت لا يكاد يسمع:
– حسناً، سأساعدكم جميعاً، بقدر ما أستطيع.
نظر "ميشي" إليها متفاجئاً وتألم لأنه رأى أن عينها تلتمع بدمعة، قالت "فيولا":
– يا إلهي، مازال هناك هذه السنوات السبع! سنعاني فيها بشدة، لكن لا مشكلة، لست آسفة على نفسي ولا على أحد آخر: فلتكن للطفل حياة أفضل بعد ذلك.
فهم "ميشي" لكنه فزع من ذلك، رأى أن "شانيكا" الصغير سيعيش في وقت ما كأبناء الكونتات الأثرياء، من معاناة أخواته الفقيرات، من عرقهن، وفكر في هذا الأمر بانفعال وكره. نهض واقفاً لأنه كان عليه الذهاب إلى السيد المسن، لكنه لم يتحمل أيضاً أن يبقى بعدها بينهم. قالت "فيولا":
– صحيح، هذا لك.
ووضعت في يده فورنتين فضيين، أخذ "ميشي" النقود متفاجئاً، لم يكن يعتقد أنه يذهب إليهم منذ شهر بالفعل، شكرها على النقود بخجل وحياء، كأنها من قبيل الصدقة، وكاد يقبل يدها. عندما كان بالخارج خرجت وراءه "بيلا"، سألته بصوت منخفض:
– ألا تترك الشِعر هنا؟
مد "ميشي" يده في جيبه، بوجه متوهج في الظلام، وأخرج الورقة المنسية المكرمشة حتى يعطيها لها، لكن شعور غريب صده عن ذلك، شعر أن الشعر الذي كتبه سيئاً للغاية، وخشي أن تنخدع فيه الفتاة بشدة وتسخر منه؛ لذا قال لها:
– أرجوك لا تغضبي مني.
وخرج مسرعاً من الباب، ركض طوال الطريق حتى كادت أن تتوقفأنفاسه، لم يهدأ إلا بالقرب من مدينة الطلاب، حياته غير مرتبة أو متناسقة، لم يفهم ماذا ينقصها، لم يفهم سبب العشوائية الغبية. فالأشخاص في النهاية أذكياء، يستطيعون فهم الكثير من الأشياء، وشرح الكثير، لماذا أسرته وأسرة "دوروجي" غير محظوظة هكذا؟
كانت "بيلَّا" قريبة منه، هو أمر طيب ورقيق أنها أرادت قراءة شعره، لقد هزه هذا، ندم على أنه لم يعطه لها، خجل من ذلك لأنه لم يرَ طيبة مثل هذه من أحد قبل ذلك. إذا عثر الأولاد على شعره فمن المؤكد أنهم سيضحكون عليه ويسخرون منه. كم هو شيء مؤسف أن هذه الأسرة فقدت غناها أكثر منهم، فماذا تزن ثروتهم مقارنة بثروتهم هم، لقد استأجر جد "دوروجي" قطاراً بالكامل لرحلته، بالتأكيد لم يكن هذا باستطاعة أسرة "ميشي"، لو كان عنده الآن مال كثير جداً لدرجة أن يملأ مكيال حبوب مثلاً، أو غرفة فسوف يعيد إليهم كل ممتلكاتهم وثروتهم ويهديها لهم، لكن ليس "لفيولا" حتى لا تتسلّط أكثر متى كانوا أغنياء، ولا لأبيهم، حتى لا ينفقها على تناول الخمر أو يضيعها ويبددها، ولا "لشاني" الذي لا يستحق إلا الضرب بسبب عدم نفعه، ولا لتلك الفتاة الصغرى التي لا تنفك عن الضحك، ولا للأم المومياء، وإنما سيهديها "لبيلَّا" فقط حتى تستطيع أن تري من هي حتى تتحكم في الآخرين، في الجميع، حتى تكون لها ملابس جميلة، وقصر وخدم ويسعى العالم كله لإرضائها، ولتكون ملكة في هذه المدينة. أما الشِعر فلن يعطيه لها. مهما فعلت. ضحك "ميشي" في نفسه بشدة، بدغدغةٍ وسعادة.
سيكون جيد ذلك المال الكثير، لو كان له فورنت ذهبي يعود إليه دائماً كلما أنفق منه فسيشتري "لبيلَّا" جميع محلات

المدينة ويرسل إلى منزلها حريراً، لكن هذا الأمر يسير ببطء، سيكون الأفضل لو وجد هنا في الطريق أمام قدمه محفظة نقود ممتلئة بالنقود من فئة الآلاف ولا يبحث أحد عنها، أو لو تحول ما يلمسه إلى ذهب، لكن ليس كل شيء، كما كان للملك ميداس[45]، وإنما ما يريده أن يتحول إلى ذهب، وإذن لتودد إليها بزهور من ذهب، أو لو علم أين هو مخفي كنز الذهب القديم في الأرض، كما يقول الفلاحون في القرية أن لهبه الأزرق يضرب لأعلى لقام هو بحفره، أو لو ظهر له عفريت وقال له أنه يمكنه تحقيق ثلاث أمنيات له فسوف يتمنى اثنتين وستكون الثالثة دائماً أن تتحقق له ثلاث أمنيات أخرى. هكذا حلق خياله وتخيل بألف طريقة الحصول على الكنز، ويربط كل كنز بشخص "بيلًا" وأراد أن يغمرها بكل شيء بلا تعب. قرأ الجرائد عند السيد المسن منهكاً متعباً. وفي نهاية الجريدة رأى بشكل مفاجئ الخبر الصغير "سحب اللوتري". فزع بشدة حتى أن السيد العجوز لاحظ ذلك:

– ما هذا، ما هذا؟

– لا شيء، أرقام اليانصيب.

– هل خرجت أرقامنا بالفعل؟

– لا.

– لا؟ يا له من حظ سيء!

قرأ "ميشي" الأرقام:

– بودابست: 5، 95، 4، 11، 92. فيينا: 12، 37، 43، 7، 88. براغ: 71، 7، 46، 83، 18. لينتس: 34، 45، 76، 13، 2.

سكت السيد العجوز، قلب "ميشي" يخفق بشدة، لم تكن أرقام لوتري برنو هنا، ولا يعلم لماذا إلا الرب، سأل السيد العجوز:

– بأي لوتري كانت أرقامنا؟

– بودابست.

– وما الأرقام التي خرجت في بودابست؟

– 5، 95، 4، 11، 92.

قال السيد العجوز بغضب:

– ولا رقم من هذه جيد.

لم يتحدث عنها أكثر وقال:

– ماذا يوجد غير ذلك في هذه الجريدة؟

واصل "ميشي" القراءة بسرعة، سعيد بكذبه، نجح الأمر بسهولة، لم يكن يعرف أنه سينكر ذلك، لو سأل السيد المسن أكثر لما أمكنه الإنكار، كم سهل هو الكذب لهذه الدرجة، كلمة واحدة فحسب، هل من الجدير صب الكثير من هذه المشاكل على نفسه بينما لا يحتاج التخلص منها إلا مثل هذا؟ لم يتحدث السيد المسن عن ذلك، عندما خرج من عنده كان في الفناء برد شديد، جمع عليه معطفه الصغير وذهب إلى مدينة الطلاب مسرعاً. كان راضياً وجائعاً بقدر ما كان يوم أمس يوماً سيئاً اليوم أفضل بكثير. عندما أراد الخروج من ممر المشاة إلى الكنيسة الكبيرة ظهر له شخص ما. في البداية لم يفكر أي أحد هو؛ فهو لم يعتد على النظر إلى النساء، لكن كأن هناك قوة مجهولة جذبت عينه إلى هيئة نسائية. كان يضيء أمام فاترينة مصباح متوهج كبير وكان يقف هناك شاب وفتاة ويتحدثان بمرح ضاحكين. وكلاهما ينظر إلى الفاترينة. تجمدت قدماه. كان الشاب هو "يانوش توروك". والفتاة هي: "بيلا".

فأنت تظنّ لو أنه قبيل هذا ضربت صاعقة بجواره لما حرك ساكناً، ولو أن الكنيسة الكبيرة أنزلت قبتها الحمراء وانحنت أمامه إلى الأرض تحية لرد التحية بأدب بدون تعجب، لكن هذا الأمر المفاجئ والصّادم جعله يتجمد كالشجرة الضاربة

بجذورها في أعماق الأرض، تملكه فزع وخوف، ولم يستطع التحرك من مكانه الذي يقف. كان يقف هذان على بعد خمسة خطوات فقط منه، وسمع صوت ضحك "بيلَّا" الرقيق المعروف جيداً. سمع صوتها وهي تقول بلين وانشراح:

– أنتم جيدون لو أنه يمكن تصديقكم.

أقسم الشاب بصوت منخفض:

– بالتأكيد يمكن!

وانحنى أمام الفتاة، في هذه اللحظة صنعت "بيلَّا" وكأنها ستتحرك وتنطلق في الاتجاه الذي كان يقف به، خاف من مقابلتهما حتى أنه بدأ يركض بخوف كالكلب الصغير المذعور، ولم ينظر إلى الخلف إلا عندما كان أسفل سياج الحديقة التذكارية المظلم. ومن هناك لم يستطع رؤيتهما بالفعل فأوجعه قلبه أكثر بسبب ذلك.

الفصل العاشر

اعتاد أن يستيقظ ليلاً ولا ينام بعدها، يضع عينه في الظلام ويفكر في كل أمر مستحيل. كيف تعارف السيد "يانوش" و"بيلا"؟ لم يحدث هذا إلا بأسلوب ظالم، حيث قالت "بيلا": "كلا ألبتة بكل سرور". ولم تكن تعرف من هو وأي شخص، لم يكن لها أي مزاج لأن تتعرف عليه، ورغم هذا كانا يتحدثان سوياً بمرح وبدون توتر، ووقفا طويلاً أمام الفاترينات. أراد أن يفكر في أن السيد "يانوش" تسلل إلى أسرة "دوروجي" بالقوة وأقنعها بشكل كاذب حتى تصدق شيئاً ما سيئاً. لماذا كانت "بيلّا" أمس لطيفة وحزينة هكذا؟ غداً يجب الذهاب إلى أسرة العم "توروك" وإخبار الخالة أن السيد "يانوش" يريد فعل شيء شرير؛ لأنه شخص وقح.

ما بين اليقظة والنوم، يسمع صوته بوضوح وهو يشي بالسيد "يانوش"، تصاب الخالة بخيبة أمل وتبكي الآنسة "إلونكا" والعم "توروك" يخرج الغليون من فمه ويرفع حاجبيه الرماديين السميكين إلى أعلى ويقول: "أحظر عليك أن تعرض الفتيات البريئات للخطر!" لا يعرف ما الذي يقحم "بيلاتشكا" فيه، قلبه يؤلمه من الحزن، أمس كانت الفتاة رقيقة ومتوجعة تبكي، يشعر أن شيئاً ما رهيباً لا يمكن تخيله يهددها، وتخاف منه، لا تعرف ما كنهه، لكنها خائفة. ينتظر الصباح أن يطلع لينهض ويرتدي ملابسه ويثور ضد الجميع، ضد نفسه، و"فيولا"، و"شانيكا"، وأبيهم، وأمهم، وضد الفتاة الضاحكة دائماً، ورئيس الغرفة الذي ينام باطمئنان، وضد الأولاد، ومدينة الطلاب والمدرسين. ضد أسرة العم "توروك" والبرد والسياجات العالية، ضد ضعفه، لو أنه قوي مثل شمشون لأمسك "بيانوش توروك" ودفعه إلى الألواح ومسح بأنفه شخابيط الطباشير من على ألواح السياج: "مصاب بسيلان الأنف للبيع!".

ركل قضيب سريره الحديدي، شعر بالألم، مشكلة، فقد أصدر السرير صوتاً حاداً وقد يستيقظ أحد ما. خطر الذهب بباله مرة أخرى: يا إلهي، أن يصبح المرء غنياً فجأة. ويتخيل أن ينتقل لجيبه كل المال الموجود في جيب الشخص الذي يراه لو أراد ذلك. أو أن المال الكثير، في البريد، لو أنه بالخارج على السياج، وتطير إليه الأوراق النقدية كالفراشات وتدخل في صدره. غمرته سعادة دافئة من هذه الأحلام، دخل أكثر تحت لحافه، ضغط طرفه الدافئ إلى وجهه وتخيل أنه يحتضن جسم أبيه العزيز الدافئ، أخذه النوم ناسياً كل الأمور السيئة والمشاكل.

استيقظ صباحاً، الطلاب يغتسلون. غسل الأرجل صباح يوم الأحد. اصطفوا لغسل الوجه والصدر والرقبة، وبعدها مر الحوض الفخاري المليء بالماء لغسل الأرجل. ضحك الأولاد لأنه لم يغسل رجله إلا عندما كان الجميع قد غسل رجله بالفعل في الإناء. وما إن انتهى من ذلك كانوا قد غادروا السكن. دق الجرس، يجب الذهاب إلى مصلى الكنيسة للصلاة. ارتدى ملابسه أثار الكناس الغبار في عينه، واستعجله أن يذهب على الفور ولا يقف هناك. رد عليه بغلظة:

– دعني وشأني: سأذهب عندما أنتهي.

– سأضربك بهذه المقشة!

– فلنرَ إذن، لنرَ!

لم يكن أبداً مهاجماً، ولم يعرفه الآخر أيضاً، ألقى بالمقشة.

– إذا لم تتركني أنظف فلتقم أنت بالكنس! لن أتسكع أنا هنا وأنتظر كل واحد!

– حسناً!

عندها ألقى الكناس بالمقشة المكسورة وارتدى قبعته وغادر. بقي في الغرفة. يرتدي ملابسه ببطء وارتياح. ود أن يكون جميلاً. خجل من ملابسه الصغيرة المهترئة، سراويل كريهة، لا قصيرة ولا طويلة. تمنى لو عنده سروال أنيق مثل "أورتسي" يصل إلى الركبة، وله زر عندها. ورغب أن يكون له سروال طويل مثل الكبار كما "لبالفي" "Pálfi"، وكان "أورتسي" يحسده على هذا البنطال، ذات مرة شكا أنه طلب من والديه أن يسمحوا له أن يذهب إلى المدرسة مرتدياً سروالاً طويلاً، وقالوا له أنه يمكنه ذلك عندما يكون في الصف الخامس، لم يفهم، كما حكى "أورتسي" ذات مرة في الخريف أنه "مشي"

مع الأستاذ "جيراش" في الشارع وكان في إحدى الفاترينات معاطف خفيفة وملابس رجالية، وقفا أمام الفاترينة، وشاهد السيد الأستاذ "جيراش" معطفاً خفيفاً ربيعياً رمادياً، وقال:

– من المناسب الآن معطف خفيف جديد.

وقال "أورتسي" أن المعطف الخفيف القصير البني الأنيق صار بالياً، لكنه لم يفهم ذلك، كان يرى السيد الأستاذ "جيراش" أنيقاً للغاية ويبغضه لذلك. ذكر "أورتسي" أن "جيراش" قال: حسناً، لا مشكلة، لا يسمح أن يكون معطف الشخص النبيل جديداً. بقيت هذه الكلمات في أذنه مجهولة، لم يفهم، كيف يمكن أن تكون الملابس مهمة بالنسبة لشخص ما.

كان أبوه أنظف شخص في القرية ببنطاله المبقع وحذائه الطويل المشوه، يقف بشكل سليم، بشجاعة، بصلابة، بوجه صريح ونظيف، حتى أن الفلاحين الكبار، الداكنين، العظميين، النحاف، السمر مهما ارتدوا يبقون فلاحين بجواره. ود أن تكون له ملابس وحذاء جديدين؛ لأنها مقطوعة ومشوهة. قال أبوه ذات مرة عندما كانا ذاهبين سيراً على الأقدام إلى سارنتش "Szerencs": كيف تمشي، سأكسر كاحلك على الفور، إنك تضرب إحدى قدميك بالأخرى أيها الأعرج! سعى بعدها أن يمشي بشكل جميل، راقب مشي الجميع حتى يعرف كيف يجب المشي. ليت لديه ساعة جيب لتدق بالجانب الأيسر، يود ذلك، لكن بدون سلسلة، حتى لا تتدلى كما للسيد "ليسنياي"، سيرتدي الساعة مثل السيد "ناج"، بدون سلسلة، وسينظر فيها كل دقيقة.

بإيجاز أراد أن يكون شخصاً كبيراً، مل من الطفولة الطويلة التي يبدو أنها لن تنتهي. محق شقيقه الصغير الثاني الذي كان يسأل في الصيف باستمرار: "أمي، كم عمري الآن؟" "سبع سنوات يا بني" قالوا له ذلك لحوالي أسبوع حتى تعب: "هل سيكون عمري دائماً سبع سنوات؟" هو أيضاً يمل من أنه دائماً تلميذ، ويستطيع هؤلاء الأطفال الحمقى حوله الاطمئنان لكونهم تلاميذ في أول المرحلة الثانوية، ويتصرفون وفقاً لذلك، يعلمون متى سيكونون بالصف الثالث، الصف الرابع، الصف الخامس، الصف الثامن: أما هو فيريد أن يكون كبيراً ولا يذهب إلى المدرسة، يريد أن يعرف ويفهم كل شيء، والقيام به، وليس التفكير في قواعد اللغة وبناء الجمل اللاتينية وأمثلة الهندسة. كيف يستطيع هؤلاء القهقهة، يُسمع صوت ضجيج الأطفال من الفناء، مرحون وضاحكون، وتلمع وجوههم، الحياة كلها فرح وسعادة، يلهون عندما يحل يوم الأحد، يستريحون ويلهون في الكنيسة.

انتهى من ارتداء ملابسه المتسخة التي كان يرتديها أمس، لم يكن نظيفاً منها إلا ملابسه الداخلية، أسف أنه أخذ على عاتقه التنظيف بتساهل ولامبالاة، الآخرون بالأسفل، وسيصعدون فصلاً فصلاً إلى المصلى، سيذهب بمفرده إلى هناك، ويسعى إلى التسلل بين طلاب الفصل ويجب الطلب من الكاتب أن يقوم بمسح اسمه من بين الغائبين. عندما كان في كنيسة المدرسة شعر أنه بحالة جيدة، أحب اسم المصلى، يبدو له بشكل خاشع: "مصلى..."، والقاعة العالية للغاية، والمقاعد الخشبية المرتفعة يفقد بجانبها كل كبرياء، وخطر بباله أن في هذه القاعة تم إعلان الاستقلال في ثمانية وأربعين، وجلس بالأعلى لايوش كوشوت Kossuth Lajos" وخطب بصوت ساحر، ليته استمع إلى هذه الخطبة.

خطب معلم دين، قبله قامت الفرقة بالإنشاد، لها أثر خاص، أصوات كأنها من عالم آخر، أربعة أصوات تخرج كأنها تنبع من بوق بعيد، لكن المعلم الديني تحدث كما في الحصة، هادئ ورقيق، غير أنه أخرج الأصوات ببطء أكبر بكثير، وكأنه لم يخرجها من فمه، وإنما عبر أنفه، مع كل صوت نصفي كل شيء أعلى مما يتحدث شخص ما بشكل عادي. بعد الكنيسة ألقى نظرة على حجر قبر البروفسور "هاتفاني"، والذي لم يكن مر بجواره أبداً حتى لا يحاول تهجي اسمه، ويسعى دائماً لاستدعاء قوته السحرية الذي استطاع أن يسحر بها أربعة حزمات من القش إلى أربعة خنازير سمينة، اشتراها فلاح في سوق دبرتسن وساقها إلى شامشون فتحولت في فناء منزله إلى أربعة حزم من القش. جاءه قاضي دبرتسن الأكبر بعربته وتجرها أربعة خيول وقال له: "سيدي البروفسور، اركب معي" رد عليه قائلاً: "لا يمكن ذلك؛ فأنا أسرع". ورسم بعصاه على التراب عربة بستة أحصنة وجلس فيها وانطلق متجاوزاً القاضي الأكبر، رآه بعينه وعرفه في العربة السحرية، وعندما وصل إلى دبرتسن، كان البروفسور متكئاً على النافذة يدخن من غليونه.

تلمس حجر القبر الصلب المتكسر، الملصق وكأنه يلمس رداء البروفيسور، ثم وثب على السلم الخلفي بين الطلاب المتفرقين في جماعات غير منتظمة. أراد أن يذهب قبل الغداء إلى أسرة العم "توروك"، لن يقدر، الساعة الحادية عشرة والنصف والغداء وشيك، ليس من المستحسن زيارة الناس قبل الغداء، وقد كان عندهم الأحد الماضي، سيعتقدون أنه يعاني من شيء ما. بعد الغداء ذهب مسرعاً في اتجاه شارع ناجمشتر، وأبطأ من خطواته عندما اقترب من مدرسة البنات؛ خاف أن يتعجبوا من قدومه مرة أخرى في وقت قصير، وكان قبلها لا يأتي لأشهر. الساعة الرابعة، يجب عليه أن يكون عند "أورتسي"، قرر أنه سيكون ذكياً مثل "أورتسي" الذي تحدث أمس قبل الظهر مع الجميع.. ليته يصبح ماهراً مثله. بينما كان يتمشى ببطء ويلمس ألواح السياجات بيده اليسرى، أمسكت كتفه يد سميكة لكنها لينة:

– أيها التلميذ الصغير، أيها المعلم، كيف حالك؟

نظر متفاجئاً، كان العم "لايوش سيكصاي" "Szikszay Lajos"، بالتأكيد كان ذاهباً مرة أخرى، مثل كل يوم أحد، إلى العم "توروك". سارا بدون حديث بجوار بعضهما، وبدا له أنه لا أحد مع العم "سيكصاي"، ولا الخالة "سيكصاي"، ولا أي من أبنائه. لم يقل له العم أية كلمة، شد خصره السميك إلى الخلف وأخذ يدندن بصوت منخفض:

– كلب صغير... كلب كبير... لا تعوِ بلا جدوى... لدي حبيب.

نظر إليه متفاجئاً: فهو يغني ما يغنيه والد "شاني دوروجي"، "رينالدو الكبير"؛ وبلحيته ومعطفه، كم هو مختلف هذا العم "سيكصاي" بأنفه الكبير، الناعم، الأحمر، وبشاربه الطويل، الحاد، المبروم على الطريقة الدبرتسنية. العم "سيكصاي" أحياناً يغني، وأحياناً يصفّر بصوت مرتفع:

– مدينة شهيرة مشيدة بالطوب... قريبة من الحدود... هناك يسكن حبيبي.

اعتاد العم أن يدندن في الشارع، والآن يغني بقوة ويصفر، ولم يجرؤ على النظر إليه حتى لا يلاحظ العم كم أن ذلك ظاهر، وصلا إلى البوابة. دخل العم "سيكصاي" وتبعه ككلب صغير متخلفاً عنه قليلاً، ولم يبدُ أنه حضر إلى هنا كرجل منتقم ومصلح للأمور. عبر الممر، تفاجأ شجاعته، وما كان سيفعل لو لم يكن هنا. بينما كان واقفاً لدى الباب فكر أنه سيكون من الأفضل أن يغادر، لكن العم "سيكصاي" قال منذ وقت طويل أنه موجود هنا، وهم ينتظرونه، وإذا هرب ماذا سيعتقدون؛ لذا تشجع بعدها ودخل. لم يكن هناك أحد في المطبخ على غير العادة. لكن باب الغرفة كان مفتوحاً، وهناك محادثة كبيرة في الداخل، ليست محادثة، بل بكاء. برد الدم فيه؛ والعم "سيكصاي" يبكي. كيف؟ هذا العم الذي كان دائماً بمزاج جيد ويغني، يدندن لتوه في الشارع حتى رنت المدينة، سمع بين البكاءات كلمات، ثم قالت الخالة:

– لكن يا "لايوش"، "لايوش"، أليس لديك روح، كيف تقول مثل هذا؟

وبكت الخالة والآنسة "إلونكا" أيضاً، صاح العم "سيكصاي":

– لا، ليس لديّ خيار آخر، لا يمكن تحمل هذا: الموت أفضل مائة مرة من مثل هذا الإذلال!

صاحت الفتاة أيضاً:

– العم "لايوش"! يجب رجاء ذلك الشخص الشرير!

قال العم "سيكصاي" بصوت مرتفع:

أبداً! أبداً! (وكررها بشكل غنائي): أبداً! الموت أفضل مائة مرة.

تدخل العم "توروك" بصوته الصغير الجاف، يمكن الشعور بتأثره الداخلي بشكل أكبر من كلمات الآخرين المنتحبة:

– ليس هناك مجال لرجائه، ليس لذلك معنى، ومع ذلك ليس مسموح باليأس لهذه الدرجة، فلا جدوى منه.

صاح العم "سيكصاي" بصوت كالرعد وضرب على صدره بشدة:

– لكن من أنا؟ "سيكصاي لايوش"! ويتعاملون معي بهذه الطريقة! كافحت وعملت اثنين وعشرين عاماً في خدمة المدينة الفقيرة ليجرؤوا على فعل هذا معي.

سرد القصة وتدفقت منه الكلمات: العمدة ألد أعدائه، يحاربه منذ وقت طويل ليقيله من وظيفته، ولم ينجح الأمر مع

المحافظ القديم، لأنه يعرف "سيكصاي لايوش" جيداً! لكن نجح الشرير العجوز في تشويه صورته مع المحافظ الجديد، وتلقى عقوبة الإيقاف ثم التسريح.

– البارحة راجعوا الخزينة، ولخطأ حسابي يتمثّل في مائة وتسعة وسبعين فورنتاً، أو أن الأشرار قد فعلوا شيئاً، كنسوا نجاحات اثنين وعشرين عاماً.

– ولماذا يا "بال توروك" "Török Pál"؟ في هذه الدولة ليس هناك مكان للتقدير والكبرياء الذاتي، والحاجة كلها لعبيد متملقين لمن هو أعلى، ومع من هم أدنى يبيعون آخر وسادة للفقراء دون أيّة مراعاة أو رحمة، لماذا كان كل هذا يا "بال توروك"؟ لأنني لست دبرتسني المولد، لذا لا أستطيع فهم واستيعاب هؤلاء الذين رأوا من على تلال باشهالوم الدبرتسنية السارق في وضح النهار، لست من مدينة دبرتسن، ليس ديني دين الدبرتسنيين ذوي الرؤس الحديدية، لم أستطع تعلم الدين الدبرتسني على مدار خمسة وعشرين عاماً، لست أنا، يا "بال توروك": لأن الجميع يعلم ماذا تعني المداهنة ويمارسها، إلا "لايوش سيكصاي"، لذلك تلقى "سيكصاي" عقوبة.

ساد صمت لبعض الوقت، ثم قال العم "سيكصاي" بصوته الغنائي وواصل مدندناً بمرارة:

– أخذت الوظيفة الحسابية بجدية، كم مرة توجهت إلى السيد العمدة سائلاً عن الانتهاكات المرتكبة وبعض أموال المدينة، تبن ناجأردو وجلود ماشية هورتوباج الميتة، أعرف ما أرادوا فعله مع عقد مصنع الغاز الممتد لخمسين عاماً، أرادوا إبرامه لمائة عام حتى يعاني حفدة حفدتهم في دبرتسن، الشركة البافارية كانت أكثر استحياء، وطلبت إبرامه لتسعة وتسعين عاماً فقط، وقلت أن خمسين عاماً كافية، هل يستطيع "بوشالاكي" أن يقول ماذا فعلت في ذلك الوقت! لو علم الناس فعليهم أن يباركوا اسمي كل يوم لستة وثلاثين عاماً، يا إلهي، رموني الآن بستة أطفال بلا شيء، عزلوني من الوظيفة بدون كسرة خبز واحدة، ولم يقدروني، أوصلوني إلى عصا الشحاذة، جردوني من اسمي بسبب مائة وتسعة وسبعين فورنتاً.

انكفأ على المنضدة وأخذ يبكي، صاحت الخالة:

– لكن هذا مستحيل، "لايوش"، هذا مستحيل، أيها اللطيف "لايوش"!

– مستحيل! عند ذلك الوغد الجرأة ليقول في وجهي أنه لو لم يكن العمدة لألقوني في السجن الآن، حبس وقائي حتى انتهاء إجراء التحريات وكشف الحقيقة بالكامل! قلت له "احبسني يا سيدي في السجن، حيث يطعنون المرء بسرور بدون تحريات!" العمدة يتخيل نفسه كما لو كان دوق فينيسيا! فلتكن له حجرة من الرصاص! تدمير حياة بهذه الطريقة، قصمها وشطرها نصفين من وسطها وتلويثها وكسر بذرتها! كيف سيمحو ابني اسم المختلس في هذه الدولة، في هذه المدينة الخنزيرة يوجد الكثير من اللصوص ارتكبوا في حق المدينة ما يعلمه الجميع، سيلصقون كل شيء بي ويتهمونني به، وسيشير إليّ أبناء المدينة بالبنان: هناك يمشي لص المدينة.

ضرب المنضدة بكلتا قبضتيه، ثم بدأ في هدوء مفاجئ:

كلب صغير... كلب كبير... لا تعوِ بلا جدوى... لديّ حبيب...

وقام بعزف النوتة إلى النهاية بصفير بشكل منتظم، لكن الصفير كان مخيفاً كأنه الصرخة الأخيرة للشخص المقتول، استمع "ميشي" بعين متسعة وخوف لهذه الكارثة الشنيعة للشخص الكبير.

– لا يوجد مفر هنا، إما أن أشنق نفسي أو أشقها، لكن ليس هناك مخرج.

صرخت الخالة والفتاة مرة واحدة:

– "لايوش"!

عندها تحدث العم "توروك":

– لا تفزعا، لن يفعل ذلك بنفسه! لديه ستة أبناء صغار يحتاجون التربية، ينظرون إليه، أنه يمكنه تجاوز ذلك بسهولة، نعم لن يفعل؛ لأنه شخص معافى وصحيح ولديه روح صحيحة، مليء بالدم والقوة والقدرة على العمل، إنه يتحمل ذلك؛ وفيه قوة حياة لا يمكن تدميرها، أنا شيء آخر، ما كنت سأتحمل لو أصابتني مشكلة من هذا القبيل، لم تعد لدي قوة لتحمل

ذلك، لم أعد أتحمل الصراع بالفعل، لا أستطيع العراك.
خنقت صوته دمعه، خيم صمت لوقت طويل. ثم واصل بعدها باختناق:
– انظر، لا أستطيع مواجهة المشاكل، لم أطق ولدنا السيء، كرهته منذ كان عمره 16 عاماً، ولم أتحدث إليه حتى هذا العام، لم أهتم به. الآن أصبح إنساناً، شغل وظيفة بانتظام ويقوم على أمر نفسه، لا أطلب منه أكثر من ذلك، سيضبطه الوقت شيئاً فشيئاً، ويصبح جاداً ويتزوج، وتنظم زوجته أموره، لكنني شخص عجوز، لماذا أحمل غضباً حتّى القبر؟ مهما حدث من أمور سيئة، فهذا لا ينفع، والآن زوجتي تبدأ الأمر، ولا تستطيع قبوله، كافحت معي وضدي لعشر سنوات، وهي لا تلاحظ ذلك، لا أطيق هذا الصراع الصغير حتى.
بدأ العم "سيكصاي" يصفر:
مدينة بالطوب مشهورة...
قال حينذلك:
– انظري يا عزيزتي "يوليشكا"، هناك مشاكل كبيرة في العالم الآن حتى تتصالح العائلات.
قالت الخالة باكية:
– يا إلهي، يجب الإصلاح بين أم وابنها، لا أستطيع تحمل ذلك، منذ أن أصبح قريباً من أن... ليس نظيفاً... ابني أنا: مِن مَن ورث هذا؟ لا زوجي ولا أنا، هذا قذر هكذا.
قال العم "سيكصاي" بصوت يخنقه الاستياء:
– من الراجح أنه يطلي نفسه بذلك ويصبغها به.
– قلبه ليس نقياً، يخفي دائماً شيئاً ما، واليوم يسافر، إلى أين؟
قال أبوه:
– لديه مهمة خارجية، يسافر إلى هناك.
– فلتصدقه يا أبي، إنه يجعل أبي يصدقه في كل شيء.
لم يطق "ميشي" البقاء، يخاف أن يكتشفوه وهو يتصنت، كان عليه أن يقدم نفسه إليهم منذ وقت طويل. لكنه لم يطق البقاء ساكناً، إذا كان السيد "يانوش" سيسافر. نزلت هذه الكلمة عليه كصاعقة. تسلل إلى الباب على أطراف الأصابع وخرج منه خلسة. أقفل الباب وراءه وخرج جارياً إلى الفناء كاللص. بعد أن خطا بضع خطوات في الشارع قابل السيد "يانوش توروك"، ود أن يكون غير مرئيّ، نسي كل تخيلاته العاصفة الليلة الماضية عندما دارت في ذهنه الضربات التي كان مستعداً لتوجيهها للسيد "يانوش" في حال اكتسابه قوة جسمانية كبيرة بشكل سحري. رأى أنه من الأفضل أن يكون جباناً، رفع القبعة باحترام وألقى عليه التحية متمنياً له يوماً سعيداً، وقال "يانوش" بقلة أدبه الصاخبة المعتادة:
– أخي الصغير، تعالَ، أمسك بحقيبتي حتى أدخل إلى العجوزين لتحيتهما.
عندها وضع في يده حقيبة صغيرة سوداء لم تكن ثقيلة، كان هذا إذلال "لميشي" حتى أنه كاد يسقطها على الأرض.
– انتبه لها جيداً! احترس حتى لا يسرقوها منك، يوجد بها نقود.
واصل السير نحو البوابة. ثم التفت بعدها، قائلاً:
– سأسافر إلى خالك "جيزا"، فكر حتى أعود؛ أيّة رسالة تريد أن تبعثها إليه!
بقي "ميشي" كتمثال من الملح، يحملق في الغبار مستنداً على الجدار، شعر بدوار، الشارع عريض جداً يشعره بالدوار، عندما كان يسكن هنا يرى الأبقار تنتشر في الطريق بكامل عرضه كما في المرعى، ويقوم راعيان بتوجيه القطيع، وفي المقابل محل يقف الراعي عند بابه، ويوجه بوقه النحاسي إلى نافذتهم وينفخ فيه عند الفجر. فتح العم النافذة ذات مرة وقال للولد الراعي: "تعال هنا يا بني". وأعطاه مشروباً ليحتسيه. وقال له: هذا لأنك تنفخ في البوق بشكل جميل، هل تعلمت ذلك في الجندية؟" أجاب الراعي: "نعم"، "حسناً فلتنفخ دائماً في البوق هنا وستحصل دائماً على كأس." في صباح اليوم

التالي لم يكن ممكناً النوم، انطلق الصوت من البوق بشدة، حتى أن صورة تنصيب آرباد قائداً رقصت على الجدار. أطل العم من النافذة وهو نعس بعين منتفخة، وأعطاه كأساً مرة أخرى. في صباح اليوم الثالث تكرر الأمر. تعجب كثيراً من كرم العم؛ فقد اشتكى كثيراً في السابق بسبب البوق. في اليوم الرابع لم يعطه العم شيئاً، ولا الخامس. وفي السادس لم ينفخ في البوق، وجاءت امرأة بخبر أن الراعي غاضب وقال أن العجوز لن يسمع صوت بوقه مجاناً بعد ذلك. واصل السير إلى المطحنة، وقام بالنفخ في بوقه بعيداً منذ ذلك الحين، ولم يسمع بعدها أصوات تؤثر على النوم عند الفجر.

كانوا يمزحون طوال شتاء العام الماضي بهذا، والآن في آلامه تجددت الذكرى، وارتسمت ابتسامة على وجهه، لم يضحك منذ وقت طويل بحيث شعر بثنايا وجهه وكأنها تخرج من مكانها، يا ترى أيّة نقود هذه التي بالحقيبة، من أين لعديم النفع هذا بكل هذه النقود؟ فكر بعدها، كأنها نقود مسروقة، يتساءل: لماذا تركها معه ولم يأخذها إلى الداخل؟ وهدده بخاله "جيزا"، أمر محزن أنه ولد صغير عديم الحيلة، لو أنه ثور، كبير أسود ذو رقبة سوداء كالسخام، كالذي اعتاد الرّكض في قريته والجميع يجري من أمامه، بحيث لا يمكن أن يبقى حينها بالخارج طفل ولا شخص كبير أيضاً، سينطحه عندما يخرج، شخص وقح، وذات مرة ضربه الراعي، فقام بنطحه فخرجت أمعاؤه، تخيل أنه ركض في الشارع وأمعاء السيد "يانوش" تتدلى من قرنه، وجذبه على الأرض كما يجر الكلب العظم المنتن. خرج السيد "يانوش" ومعه حقيبة أخرى، وأشار إليه أن يتبعه، إذلال جديد، بدا كشيال مُستأجر، يمشي "يانوش" بسرعة وعليه أن يخطو بسرعة حتى يبقى بجانبه.

أمر جيد أنه لم يكلمه، من المحتمل أن السيد "يانوش" يعاني من مشكلة فوجهه مكفهر ويفكر على غير عادته، قرر "ميشي" أنه سيتخلص من هذه المهمة بأيّة طريقة، لن يقوم بحمل الحقيبة حتى السكة الحديدية، وعندما وصلا إلى مدينة الطلاب قال له:

– معذرة سيد "يانوش"، يجب علي الدخول.

– أنت ولد مغرور، لم تكن لك حاجة بالعشرة كرايتسارات، فهل إذا أعطيتك عشرة بانجو ستأخذها؟

– شكراً جزيلاً، لا أريد.

وكان متفاجئاً وتراجع كأنه هدده بصفعة ووضع يده على وجهه تقريباً، أمسك "يانوش" بذراعه، استعمل معه القوة، تدافع معه، حينها وجه إليه ضربة:

– اغرب عن وجي أيها... الوغد!

التقط الحقيبة الصغيرة من على الأرض، وانطلق في اتجاه الكنيسة الكبيرة، لم ينظر إلى الخلف، تبعه "ميشي" بنظره لبعض الوقت، ثم دخل مدينة الطلاب غاضباً وأطرافه ترتجف، ود لو قال كلمة حاسمة واحدة، ولكنه كان جباناً مثل الأرنب، ماذا عساه أن يفعل، ليس لديه ما يفعله في مدينة الطلاب، لم يرد الصعود إلى الغرفة، كما يجب إخبار الأولاد، أخذ يدور في الممر، ووجد نفسه واقفاً أمام اللافتة السوداء، حيث اعتاد الأولاد الجري أمامها، تهجى ما في قطعة الورق المعلقة على السياج: (الخطابات الواصلة). لمح اسمه، تحديداً بين الحوالات المالية، تملكته رجفة في غمرة سروره. دخل، لكن عامل المدرسة لم يكن موجوداً، وهناك عمال آخرون في الغرفة الداخلية يلعبون الكوتشينة ويضحكون بشدة، تسكع لبعض الوقت ولم يرد التحدث إليهم، سأله أحدهم عما يريده.

– خطابي... مكتوب هناك، من فضلك.

نهض أحدهم، لم يكن عامل المدرسة المعتاد، صوت مفاتيح شديد، بعد بحث أعطاه الورقة الوردية اللون. نظر، عرف خط أبيه، قلبه الصغير يدق بشدة: حروف أبيه، حروف قوية مفاجئة عظيمة، تكهربه دائماً، كتابة مثل النشارات الطازجة المقطوعة ببلطة. كان سعيداً أن عينيه تتنقلان بينها، ورأى وجه أبيه وضحكته وعينه الزرقاء الطيبة، كان إذا رأى خطاب أبيه يضحك من كل حرف بشكل منفصل، وإذا رأى خطاب أمه كان يضيق قلبه ويرتجف بسبب إحساسه بالذنب. قال عامل المدرسة:

– يمكنك أخذ النقود حتى الساعة الثالثة.

ووضع الخمسة كرايتسارات الخاصة به.
— أين؟
— في البريد.
خرج، وبدأ يقرأ بعض السطور في الممر الذي كانت تهب فيه الرياح، لم يكن بالخطاب إلا هذا:
(ابني العزيز،
اشترِ لنفسك شيئاً ما، ليس لدينا أيّة مشكلة، انتبه لنفسك. سترسل أمك لفة في عيد الميلاد المجيد.
قبلة من أبيك المحب.).
كرر: "ابني، اشترِ لنفسك شيئاً ما". في نفسه، عينه ممتلئة بالدموع، وانطلق خارج مدينة الطلاب. "ابني العزيز!" وسمع صوت أبيه الشجاع، العذب: "ابني، اشترِ لنفسك شيئاً ما!" لديه نقود لم يشترِ بها أي شيء لنفسه. ماذا عساه أن يشتري بها، فلديه كل شيء، وإذا لم يكن عنده فليس عنده وحسب. لا يوجد شيء في المنزل، وليشترِ هو شيئاً ما؟ نعم، لعله يشتري شيئاً يرسله إلى منزلهم، لكن ماذا؟ كل شيء غير نافع: فليشتروا هم في المنزل شيئاً ما لا يحتاجه هو هنا، فليشتروا لحماً للأطفال وليس لجدتي، وسكراً أيضاً. ركض بقدر ما يستطيع وفي خلال وقت قصير كان في البريد. دخل من البوابة، هناك سيارات بريد خضراء في الفناء، يستريحون يوم الأحد، خرج عامل البريد وفي فمه غليون، سأله من أين يمكن سحب النقود، أشار له إلى المكان:
– لكن عليك الإسراع، ستدق الساعة الثالثة خلال وقت قصير جداً.
فكر أنه لا يمكنه الذهاب إلى منزل أسرته في عيد الميلاد المجيد ما دام سترسل أمه له لفة، ومن المؤكد أنه ليس لديهم المال لنفقات الطريق. أربعة فورنتات. قد يكونون يعانون من قلة ذات اليد في المنزل ما داموا لم يدعوه للمجيء، سيعيد إرسال الفورنت، دخل كابينة البريد، بحث عبر السياج الخشبي عن الموظف الوحيد، لم يستطع التحدث من البكاء، تمالك نفسه وقال:
– من فضلك، هل يمكن إرسال نقود؟
– ربما تقصد سحب نقود.
– لا، معذرة، لا أريد سحب نقود وإنما أريد إعادة إرسالها.
وأعطاه الحوالة، أخذ الموظف يقلب في الورقة.
– باختصار لن تقبلها. اكتب عليها أنك لا تقبلها.
أخذ الورقة وقلما رصاص، لكنه فزع فجأة: كيف يكتب لأبيه أنه لا يقبلها؟ ماذا سيقول عنه؟ "تباً له، لماذا لا يقبلها من أبيه"، وضحك أثناء البكاء عندما سمع صوت أبيه يسب ويلعن، قال بارتباك:
– لا، معذرة، أريد استقبالها ولكني أريد إرسال فورنتين.
موظف البريد نحيف أشقر، استفسر قليلاً وخاف أن يصده؛ لأن موظفي البريد غير لطفاء، لكنه لم يفعل ذلك، وقال برقة مؤثرة:
– إذن ستسحب هذه وتقوم بإرسال حوالة أخرى.
– أينعم.
ذهب إلى طاولة سوداء من بقع الحبر المتناثرة عليها، وبقلم سيء لا يمكن أن يوجد إلا في مكاتب البريد وقع على ظهر الحوالة. قام موظف البريد بقطع الكوبون وأعطاه له، فصار سعيداً لأن ما كان يحزنه أنه لن يرى خط والده، على الأقل بقيت رسالته. حصل على ورقة حوالة أخرى فارغة وقام بكتابة العنوان عليها بشكل سيء جداً، بالقلم السيء، وخجل من ذلك، وقام بالكتابة على الكوبون، لكنه لم يكتب سوى: (أبي العزيز الغالي، أشكرك شكراً جزيلاً، وأقبل يدك أبي العزيز، ولكن لدي نقود، فلتبتئس بي إذن. يقبل يدك ابنك المحب الشاكر، "ميشي").

عندما قرأ ما كتب لاحظ متفاجئاً أنه نسي كلمة لا[46]، قام بإضافتها، لكنه استغرق وقتاً طويلاً في الكتابة، واستعجله موظف البريد لأنها الساعة الثالثة، أعطاه الورقة، وبدأ يمسح أصابعه الملوثة بالحبر بباطن معطفه. طلب موظف البريد منه فورنتاً وخمسة كرايتسارات. أخرجها له من محفظة نقوده الصغيرة، وحصل على إيصال صغير بها. كان غريباً جداً أن يداً غريبة كتبت اسم أبيه، أسرع بالخروج باكياً وسعيداً. أحب أن يرى خط أبيه مرة أخرى، والذي كان مكتوباً بهذه الحروف الكبيرة القافزة: "ميهاي نيلاش" "Nyilas Mihájˮ. ضحك منها بشدة، لأنه كتب اسمه بحرف الـ [47]"j"، رغم أنه ليس من عادة أبيه ارتكاب أخطاء إملائية، لكنه لا يعتبر حرفي الـ "j" و "ly" مختلفين في أي شيء. لم يكن فخوراً ولا سعيداً بهذه الدرجة من قبل، سار مسرعاً في شارع السوق حتى نهايته، وصل إلى شارع السكة الحديدية ووقف، تذكر أنه يجب أن يكون عند منزل أسرة "أورتسي" في الساعة الرابعة، ومازالت الثالثة.

واصل السير بشكل أهدأ نحو محطة السكة الحديدية. الشارع ضيق، ويقف في وسط الميدان الكبير الموجود في نهايته المبنى المنخفض الأصفر المكون من طابق واحد. خرج القطار البخاري الصغير بجواره، ووقف إلى اليمين أمام المحطة. على اليد اليسرى ميدان الممشى ذو السياج المتهالك الذي اعتاد الطلاب المجيء إليه في فصل الخريف، عندما تنضج حبات الزيتون. أشجار زيتون رائعة بالداخل، وكان الطلّاب يحبون مضغ حباتها الخضراء، أما هو فيشعر بروعة ومتعة مختلفة من رائحة شجر الزيتون، رائحة طيبة ولطيفة، وينفر من رائحة الزهور العنقودية لشجر السنط، الشجرة الأجنبية. لم يرَ شجرة الزيتون في أي مكان إلى الآن، فقط بعضاً منها في دبرتسن، فقد أفكاره عن الأراضي الأخرى وتحت سماء أخرى. تذكر كلمة خاله: "مؤسف أن الأب آرباد لم يواصل المسير مع شعبه، لبعض الأيام من السير على ظهور الخيول،كنا سنجلس الآن في إيطاليا ولما كنا بحاجة إلى التدفئة". ضحك حينئذ؛ لأن لأفكاره تأثيراً قويّاً عليه كأنه يسمتع لمحادثة حية.

رياح شتوية باردة قارسة، وهي بالسهل العظيم أشد منها في أي مكان آخر، تهب وتقف، أحكم معطفه عليه. فكر أن يدخل محطة السكك الحديدية، رغم أنه كعادته لم يجرؤ دخول مكان غريب ليس له فيه أمر، حتى في الشارع لم يستطع السير لأن العادة كانت أن الناس يخرجون إلى الشارع، سواء ألهم مصلحة أم لا، لكنه لم يشعر أنه بحالته الطبيعية، يتصور أن المرء يجب عليه أن يقوم بعمل ما باستمرار، هذه مهمته، واعتاد قول أبيه: قم بعمل ما بسرعة ثم ابدأ عملاً جديداً. بقلب يخفق دخل المحطة من بابها العملاق، عربة أجرة واقفة، وحمالون ينزلون حقائب سفر. البهو مرتفع للغاية، في الوسط يمكن شراء تذاكر من نافذة زجاجية كبيرة، وقف بين المسافرين، ضجيج مجهولين وضوضاء وصخب متواصل بلا توقف أو تغير، ورائحة عفنة منبعثة من الحمامات المطهرة بالطلاء الأحمر، كأثر غريب عليه. فضل الانعطاف إلى اليمين، نحو صالات انتظار الدرجة الثانية والأولى. يمنع الدخول، ولم يرغب في ذلك، وموظف الاستقبال ذو السترة الزرقاء واقف عند الباب ويطلب التذاكر من الجميع.

لم يكن بإمكانه منعه من اختلاس النظر إلى الداخل عبر الأبواب الزجاجية. أمر غريب، الناس يسافرون باستمرار مثل تنقل النمل، لا يعلم إلى أين يسرعون هكذا بلا تعب أو كلل. رأى من خلال الباب الزجاجي "بيلّا"، تجمد كحجر في مكانه، خشي أن تلتفت "بيلّا" وتنظر إلى الخارج؛ بدأ موظفو الاستقبال في دق الجرس، أسرع مفزوعاً حتى خزينة التذاكر. وقف هناك، ووضع يديه الصغيرتين المتجمدتين حتى الازرقاق على قلبه شديد الخفقان بوجه محتقن كالجمر. لملم شتات نفسه، عاد وتسلل نحو باب صالة الانتظار. يترصد بحذر وبرقبة ممدودة إلى الأمام، حتى يمكنه التخفي في لحظة، واحترس حتى لا يثير انتباه الناس، لم يرَ الفتاة، خرج الجميع، وموظف الاستقبال يقرأ بصوت مرتفع قائمة أسماء طويلة إلى حيث سيتوجه القطار، ويرن جرسه الصغير الحاد عدة مرات. ظل واقفاً حتى أصبح المكان خالياً، ثم سمع ورأى القطار المتحرك، وانطلقت عربات مظلمة كثيرة، خلت المحطة، الحمالون يقومون بِعَدّ الكرايتسارات وأسداس الفورنتات، وهو ينظر حائراً لا يهتدي لأمر.

استدار بدون فكرة، خرج من المحطة بصمت، الرياح قارسة حادة تهب واصطدمت بعينه وأوجعته، خفض رأسه لتحميه حافة القبعة من صفعات الرّيح، كادت تسقطه، عيناه دامعتان، وصل إلى المنازل، توقفت الرياح، واستطاع السير بشكل

أسهل، قال في نفسه بحاجبين مرفوعين: "لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً، لقد جننت بالفعل حتى أنني أرى كل واحد وكأنه "بيلا"". يستحيل أنها كانت مع السيد ت"وروك" بالأمس وتسافر الآن؛ فهي لم تقل شيئاً مساء الأمس، لكن لِم تقول له؟ في العام الماضي قرأ رواية في مجلة دولة وعالم "Ország–Világban"، في أحد أعدادها القديمة أشياء غريبة جداً لم يفهمها، يعتقد أنها مجرد رواية، لكنه بدأ يخمن وبدا غير مقيد بحدود، صحيح، لقد قالت الفتاة "بيلا": "بكل سرور كلا ألبتة..."، ومن يعلم، فربما يعني أنه ممكن رغم ذلك أيضاً، من يدري؟ فلو أنها أرادت أن تقول لا، لقالت لا، وليمضِ إلى حاله وليتركها وشأنها، لماذا كتب لها خطاباً، هذه قلة أدب، تباً له، وما يدريني ماذا اعتادت الفتيات الحسناوات قوله عندما لا يرغبن بشيء، لكن قولها "كلا ألبتة بكل سرور" وقولها "بكل سرور كلا ألبتة" احتيال، من المؤكد أنهما تقابلا، بل ربما لم يعرفا بعضهما البعض وهربا الآن.

وانتبه، أنه لم يفكر في أن تكون الفتاة "بيلا" قد سافرت مع السيد "توروك"؛ لأنهما لم يكونا معاً في صالة الانتظار، لكن السيد "يانوش" أراد السفر بهذا القطار، من المؤكد أنه ذهب إلى المحطة لشعوره بأن هذا ليس أمراً عادياً، وأراد أن يرى أنه مسافر مع حقيبة النقود. الآن يمكن أن يجنّ بسبب ذلك، وبكى، سالت الدمعة من عينه إلى خده بسبب الفتاة الجميلة، كانت طيبة جداً أمس وتحدثت بشكل جميل ورقيقة وطيبة ولم تكن قاسية مثل الأوقات الأخرى، ولكنّها استطاعت السفر مع هذا الشخص القذر. يا إلهي، يا لها من فظاعة!

وصل إلى الكنيسة الصغيرة، لم تكن منارتها مبنية، بل متروكة؛ مثل الحصون على قمة القلاع في صور المعارك، وفي شارع كوشوت يجب الانعطاف يميناً، الساعة الرابعة إلا الربع وموعد "أورتسي" في الرابعة. يوم رهيب، لن يذهب مرة أخرى إلى أسرة "دوروجي" إذا كانت الفتاة "بيلّا" قد سافرت، يكره الجميع هناك، لماذا يذهب ما لم يكن الشخص الذي يذهب بسببه هناك؟ مسكينة، لطيفة، عندما كانا معاً في حجرة التخزين وقالت "لا يمكنني تعليم هذا الحمار"، سافرت، وعليه هو مواصلة تعليم شاني، الحمار، الغبي، الخنزير، عديم الذوق. يكره "أورتسي" ويخاف منه، وسيرى أنه بكى ولا يريد أن يخبره بشيء، ومن المؤكد أنه سيخبره بكل شيء. انتظر قليلاً حتى يهدأ، دقت الساعة الرابعة ودخل فزعاً من البوابة، كما اعتاد الدخول إلى السيد المسن الساعة الخامسة. استطاع دق الجرس، فتحت الباب خادمة عجوز، خالة ذات وجه طيب، لم يعرف حينها أين الصالة، ضل بين الأبواب الكثيرة، لم يعرف إلا الشماعة، وتعجب من كونها خضراء، يتذكرها حمراء، وأن هناك قماشاً أحمر على الحائط في إطار تحت الشماعة.

نظرت إليه السيدة العجوز ولم تقل شيئاً، اصطحبته إلى غرفة "أورتسي"، وكان هناك، خرج معه، قال مثاراً وأمسك يده:

– حسناً، ماذا نفعل الآن؟

قال "ميشي" بشكل لا إرادي حيث أعد الكلمة في فمه بشكل مسبق:

– مرحباً.

لم يضحك "أورتسي"، كان جاداً للغاية، ورد الـ (مرحباً) ثم سأل "ميشي":

– ماذا نفعل مع أيّ؟!

ثمّ استدرك "أورتسي" قائلاً بحماس، متخلياً عن كل هدوء؛ وكأنّه قد تذكّر شيئاً مفاجئاً:

– ستأتي "فاني" "Fáni" إلى المنزل الآن، كانت في البورصة بعد الغداء، وشخص أخذها أمس بعد الظهر!

صرخ "ميشي":

– أخذ ماذا؟!

– الجائزة!

سكتا وحملق كلاهما في الآخر.

– موظفة البورصة قالت أنه ذهب يوم الأربعاء لاستلام الجائزة، وقالت أنها لن تعطيها له إلا يوم السبت، وأكملت ربما يأتي أحد آخر، لكن الأرقام معلنة بالخارج لمدة أربعة أيام ولم يحضر أحد آخر؛ لذا سلمتها له.

ضم "ميشي" يديه إلى بعضها وحملق في "أورتسي" بغباء. وصاح "أورتسي":
– والآن ليس بالبيت أبي ولا أمي، ولا أعرف ماذا أفعل. "فاني"، "فاني"... تعالي!
دخلت السيدة العجوز، وتحدثت بخيبة أمل، كأنهم سرقوا مالها الخاص، فربعت يديها، وشحب وجهها ثم ولولت:
– يا إلهي، الخالق، لماذا لم يقل لي ابن السيد مبكراً، لو كنت ذهبت بالأمس، يا إلهي. هذا أمر رهيب، موظفة البورصة أيضاً لا تعرف لمن أعطت النقود.
وضعت السيدة العجوز فاني يدها على رأسها وأخذت تضربه، كانت يائسة وفزعها انتقل إلى ميشي الذي بدأ يشعر بحجم الفاجعة التي حدثت، لفزع المرأة الغريبة الكبير، طلبت منه السيدة العجوز أن يجلس ففعل، استمع لها وهي تعيد للمرة الثانية والثالثة نفس القصة، كيف تعرف موظفة البورصة، كم مرة اعتادت الاشتراك في اليانصيب كل عام، وأنها لم تفز أبداً، تقوم بوضع نقودها في اليانصيب فقط، لكنها اعتادت وضع عشرة كرايتسارات فقط، أو في صندوق الحظ الذي تسحب منه خمسة أرقام، وأنها شاركت في كل اليانصيب ولم تفز إلا مرة واحدة عندما جعلت بنت أختها الصغيرة تسحبت رقماً لها، لأن للطفلة البريئة حظ جيد، وحينها خرجت الأرقام، لكنهم وضعوها في لوتري سيء وهو لوتري براغ، وكانت الخمسة أرقام قد خرجت في لوتري فيينا. كان "ميشي" ينصت فحسب، ولم يكن يعرف "أورتسي" ماذا يفعل، كان يضحك ويقفز بعصبية. ويصيح باستمرار:
– لماذا لا يأتي "جيماشي" هذا، لماذا لا يأتي "جيماشي" هذا بالفعل؟!
انقضت ساعة بلمح البصر، ولم يلاحظوا ذلك إلا عندما دقت الساعة في الغرفة الأخرى عند ثلاثة أرباع الساعة، قفز "ميشي"، عليه المغادرة. قالت "فاني":
– قام بسحب النقود رجل طويل، ذو شارب مبروم، أجعد الشعر.
رأى "ميشي" على الفور السيد "يانوش" يدخل المحل ويضع حقيبته هناك ويضعون له النقود فيها، وقد حمل هو اليوم هذه الحقيبة. الآن، كاد أن يصاب بالإغماء، بدأ يبكي منتحباً، ولخجله من بكائه خرج إلى الصالة جارياً. لم يكن يستطيع التقاط معطفه، حاول "فاني" و"أورتسي" إثنائه عن المغادرة بحجة أن والديه سيعودان إلى المنزل خلال وقت قصير وسيفعلان شيئاً ما، رغم أنه قد دعاه الساعة الرابعة إلى المنزل لأنه يعلم أنه لن يكون هناك أحد به، وأراد أن يعقد مجلساً استشارياً رئاسياً، ولم يعتقد بالتأكيد أن الأمر سيصير هكذا. نزل "ميشي" السلم منتحباً، محاولاً كتم بكائه، ماسحاً دموعه بيده، يركض، اتجه يميناً إلى فناء المسرح، مازال فيه قدر من قوة يكفي لمشاهدة إعلان المسرح، وتعجب أنهم عرضوا اليوم أيضاً "الأطفال الأشرار". ثم لم يأبه بعدها بالمسرح، ركض عبر الحديقة في اتجاه محل صانع الأحذية.
كيف يمكنه الذهاب إلى السيد المسن، بكى كثيراً، من المؤكد أن السيد المسن يعرف منذ ذلك الحين؛ لأنه لم يقرأ له أمس "لوتري برنو"، سأل عن "لوتري برنو" ولديه خادمة عجوز، التي فسرت له الحلم، لأن السيدات العجائز يتحدثن في دبرتسن عن خروج أربعة أرقام من الخمسة من "لوتري برنو" ونظير ذلك يتمّ تسليم حقيبة مليئة بالنقود لسارق! كان عليه في شارع تشابو "Csapó" الانعطاف إلى اليسار ليذهب في اتجاه السوق إلى السيد المسن؛ ولكنّه لم يجرؤ على ذلك، وواصل السير مسرعاً في اتجاه مدينة الطلاب. وكان يقف عند بابها ثلاثة أولاد، أحدهم ليس من ساكني مدينة الطلاب واثنان يسكنان بالغرفة 21. نادوه، وسأله أحد اللذين يسكنان بالغرفة 21 ألا يريد أن يذهب إلى المسرح؟ إلى المسرح؟ كيف يخطر هذا ببال أحد بينما لم يتواجد هو بالمسرح قط، قال الولد:
– لا أريد؛ اعتقدت أنهم يعرضون محفظة النقود الحمراء، اشتريت تذكرتين من مكتب المدير مقابل عشرة كرايتسارات، إذا كنت بحاجة إليهما يمكنك شراؤهما، سأعطيهما لك.
كان طوال حياته يتوق بشدة إلى المسرح ولم يستطع مقاومة ذلك، أخرج محفظته الصغيرة وأخرج منها عشرة كرايتسارات وأعطاها له، قال الولد:
– يجب أن تكون هناك الساعة السابعة، هل فهمت؟ هل لديك إذن بالتأخر؟

تفاجأ "ميشي".
– لا.
– إذن عليك الذهاب إلى رائد الصف لطلب ذلك منه، إنه يجلس في بيكا، يجلس في المقهى، أعطه تذكرة التحقق وسيقوم بالتوقيع عليها.
ضحك الولدان، لكنه حمل الكلام على محمل الجد، استدار ليذهب إلى بيكا للحصول على توقيع رائد الصف، وصل ففقد شجاعته، لم يجرؤ على دخول المقهى المضيء، فجميع مصابيح الجاز مشتعلة، وشعلات مصابيح الجاز لا تهتز ولا ترتعش كما في مدينة الطلاب كأنها فراشات، ولها زجاجات جيدة وتضيء بشدة، رأى السيد الأستاذ "جيراش" جالساً ويدخن السيجار، استدار وغادر جارياً. شعر أن عليه أن الذهاب إلى أسرة "دوروجي"، لم يقف حتى وصل، وقف خائفاً أمام البوابة لبعض الوقت، يده على الأكرة ولم يستطع فتحها. ربما "بيلَّا" بالمنزل وستنظر إليه وسيخجل، وعندها كيف يبرر مجيئه. وكان هناك أشخاص آتين من الشارع المظلم، ليسوا فلاحين، بل سادة، ربما مدرسون، وسيرونه ممسكاً بالأكرة ولا يدخل، وإذا فر راكضاً فسيعرفونه ويبلغون عنه. خاف وفتح البوابة يائساً. الكلب يعوي بالداخل؛ مقيد بالسلسلة، يخاف من الكلاب؛ لأنه عضه ذات مرة في القرية كلب أسرة "تاكاتش" "Takács" الأسود الصغير، وكلب أسرة "دروفت" "Droft" أيضاً، وكان ذلك في اتجاه البريد، مازال يظهر أثر العضة في ركبته. صرخ مذعوراً، خرجت "فيولا" من المنزل، وصاحت في الكلب. عندما عرفت أنه "ميشي" فرحت به وأمسكت بيده وأدخلته.
– إنه لأمر جيد أنك أتيت يا "نيلاش" اللطيف، إنه أمر جميل جداً منك.
حاول الابتسام، لكنه كان شاحباً، وعندما دخل في ضوء المصباح سألوه عما به، كان في المنزل جميع الأسرة، والأب بهيئته الحزينة المعتادة، وكان يستعد للذهاب، أخرج السيجار ليقوم بإشعاله.
– "شانيكا"، ابحثا عن لعبة الآن، لن تقوم بالمذاكرة هذه المرة.
ضحك "شانيكا" ونظر إليها بمكر، لم يصدق المربية، خشي من أن يتحول الأمر إلى درس في اللاتينية، كان "ميشي" واثق من أن "بيلَّا" ستخرج من مكان ما، لكنها لم تكن هناك. كأن "فيولا" شعرت بذلك، وقالت:
– "بيلَّا" ليست بالمنزل.
لوح "ميشي" أنه يعلم ذلك، فنظرت "فيولا" إليه بارتياب، ثم صاحت:
– هل رأيتها في مكان ما؟
تفاجأ "ميشي" وفزع للغاية، و"فيولا" تكرر أين وتسأله إن رآها في المحطة، احمر وجهه، وقال أنه كان يمشي خارج المحطة، ورأى في صالة انتظار الدرجة الأولى الآنسة "بيلَّا" تركب القطار وتسافر. عمّ الجميع غضب واستياء. ينظرون إليه بريبة، قالت "فيولا" بشكل متقطع ومالت إلى الأمام:
– سا– فر– ت، سا– فر– ت... إلى أين؟ مع من؟
تنحى "ميشي" جانباً ناظراً إليهم، تلا ذلك تصاعد مخيف، "فيولا" تسأل بدون توقف:
– مع من رأيتها، مع من رأيتها؟
– لم أرها مع أحد، كانت بمفردها في صالة انتظار الدرجة الأولى، عدت ونظرت ولم أشاهدها، فالقطار انطلق.
أخذت "فيولا" المصباح وبدأت تبحث في الخزانة، وعلى الأسرّة، فتحت كل شيء وفي النهاية عادت من الغرفة بخطاب. فتحته ومزقت المظروف قطعتين وقرأته بصوت عالٍ:
(أبي العزيز، سأسافر اليوم، لا تقلقوا بشأني. من المحتمل أن أستطيع مساعدتكم هكذا أكثر من أن أقوم بالغسل طوال اليوم حتى أنال رضا "فيولا".
"بيلَّا" تقبل يديك).
ألقت "فيولا" الخطاب، وصاحت:

– قذارة!
ثم صاحت بعدها قائلة:
– نحن نتضور جوعاً ونعاني الأمَرّين وهي تسافر في الدرجة الأولى! أليست الدرجة الثالثة جيدة للقذرة الفقيرة! حسناً إذن، إنني على دراية بهذه الفتاة! كم هو مقرف!
جلس "ميشي" صامتاً، كانت الأم صامتة كحالها دائماً، لكنها أكثر شحوباً ويبدو عليها الموت، ضم "شاني" رقبته وتكور تحت المنضدة، أما إلا[48] فلم تكن تضحك، كانت فزعة مثل القطة. والأب يدخن السيجار وابتسم ما حول شاربه، أو كأنه أصبح أفضل مزاجاً. وفي النهاية نهض واقفاً وقال:
– إلى اللقاء يا أولاد.
– أبي يغادر! أبي يستطيع المغادرة!
نظر إليها الأب متعجباً.
– لماذا؟
– ستتركنا هنا لوحدنا في هذه الخيبة الكبيرة!
– لماذا تقلقين عليها كل هذا القلق؟ لا أخاف على ابنتي. ألم تسمعي أنها سافرت في الدرجة الأولى؟
نظرت "فيولا" إلى أبيها بعين ينبعث منها الشرر، كانت هي رسول الغضب الأخلاقي في هذه الأسرة المضطربة المنحرفة.
وعندما غادر الأب سكت الجميع، ولم يكن لأي منهم ما يقوله للآخر، بدا وكأن "بيلّا" جمعت بين هذه الأسرة المتفرقة، مع مرور الدقائق خطر بباله المسرح بشكل قوي، لم يستطع المغادرة، خشي أن يقولوا أنه جاء ليحدث اضطراباً ويغادر، سأل "شانيكا" إن كان قد انتهى من درس الغد، فرد "شانيكا" مهمهماً أنه لم يقم بعمل الواجب. عندها نهضت "فيولا" ووبخته بقسوة:
– عليك أن تذاكر وتتعلم! إذا كانت هذه الحقيرة هربت فإني ما زلت هنا، ومهما حدث فيجب أن يسير أمرك بشكل طبيعي. وإذا كان هذا الولد لا يستطيع تعليمك فسأجلب لك تلميذاً كبيراً يعلمك بعصا ذات طرفين!
انفجرت "إلا" في القهقهة بسبب التهديد، لا يمكن أن يسير الأمر بشكل طبيعي بدون ضحك وتعلم، أخرجا درس الغد وكان هذا جيداً "لميشي"؛ لأنه لم يتعلم اليوم شيئاً. تناول العشاء معهم، وكان جيداً، وتساءل لماذا يشتكون من الجوع باستمرار وعشاؤهم محشي ملفوف فاخر. غادر الساعة السادسة والنصف بصدر ضائق إلى المسرح. كان مساء جيداً بالمسرح، وضايقه شيء وحيد وهو يشاهد خشبة المسرح، يوجد عليها محل قبعات أو شيء من هذا القبيل، لم يستطع فهم شيء إلا قليلاً؛ يدور بذهنه أمران؛ الأول أن رائد الصف ما كان سيعطيه تصريحاً بمشاهدة هذه المسرحية الجريئة، والأمر الثاني هو أنهم يغلقون بوابة المدينة الجامعية الساعة التاسعة، وإذا لم يعد حتى ذلك الحين فسيغلقونها وسينام في الشارع طوال الليل ويتجمد حتى الصباح، أو يسجلون اسمه ويأخذون تذكرة التحقق، وسيتوجب عليه الحضور إلى المكتب وهذا يتساوى مع الموت. بعد المشهد الأول قفز هارعاً إلى مدينة الطلاب رغم أن الساعة كانت الثامنة. لكنه خجل من أنهم يعلمون في الغرفة أنه في المسرح وعاد مبكراً. اختبأ قرب مصلى مدينة الطلاب القديمة، ترصد وقت إغلاق البوابة، وعودة الكثير من الطلاب من المسرح بصخب كبير، تسلل إلى الغرفة متجمداً، مرتعداً أسنانه تصطك ببعضها. كان الجميع قد نام، استيقظ رئيس الغرفة وسأله بغضب عن مكان تسكعه، فرد:
– كنت في المسرح، معذرة السيد رئيس الغرفة.
– أشعل اللمبة.
لكن يده باردة جداً، ولم يستطع القيام بهذا، استأذن أن يرقد في الظلام، اضطجع ولم يشعر بالدفء لوقت طويل، ظل مستيقظاً لحوالي ساعة، هدأ جسمه حتى استطاع التفكير، "هل يا ترى ما زال يسير القطار بالفتاة بيلا؟"

الفصل الحادي عشر

وجد أثناء ارتداء ملابسه صباحاً عشرة فورنتات في جيبه، كاد يصيح من المفاجأة، بعدها لم يجرؤ على الهمس، أخذ النقود وأعادها إلى جيبه، عض على شفته، لم يعرف كيف وصلت جيبه.

– عشرة فورنتات، يا إلهي!

تذكر السيد "يانوش توروك"، رد الحقيبة له وقال أن عشرة كرايتسارات ليست كافية لكن عشرة فورنتات ستكون كذلك. حتى يهدأ ضميره مؤكداً أن السيد الوغد بإمكانه إعطاء هذا القدر من النقود، انفعل ولم يستطع جمع الكتب التي يجب حملها إلى المدرسة، أشعلت العشرة فورنتات جيبه وجسمه، لن يردها، سيشتري زوجاً من الأحذية بستة فورنتات، ويذهب إلى أسرته في عيد الميلاد بأربعة، فذلك الوقت مناسب، فحذاؤه به ثقب ومن حظه أنه ليس هناك ثلج ذائب أو طين، فالماء يتسرب لحذائه ولا يستطيع الخروج.

شعر أن مكان الورقة النقدية في جيب معطفه غير ملائم؛ قد يطويها مع منديل الجيب أثناء الإجابة ويراها أحدهم، كرمشها ووضعها في جيبه، تذكر أن سرواله ليس به جيب؛ ذات مرة لم يكن معه منديل جيب فقطع جيب السروال واستخدمه كمنديل. مد يده فزعاً وراء النقود التي سقطت، وجدها. يفكر أين يضعها، نظر إلى درجه: نعم، لكن ماذا لو مد الكناس يده لسبب ما ووجدها، سيضعها في درجه السري، لكن ماذا لو حدث تفتيش، خاصة أن تذكرة اليانصيب، لا يمكن وضعها في كتبه، سيخيطها في بطانته كما صنع خاله الإسكافي، عندما كان آتياً من رومانيا إلى أرض الوطن سيراً على الأقدام كما حكى، لكن هذا سيتطلب وقتاً طويلاً، وأنه غير متأكد من إمكانيته في فعل ذلك، وأين، وبماذا يحيكها، حصل على خيط وإبرة في منزله وحاك سرواله ذات مرة، لكنه كان مجرد جمع طرفين على بعضهما. رن جرس الساعة الثامنة، نزل الأولاد إلى أسفل، قال له "شاندور":

– ألا تأتي يا "نيلاش"؟

– سآتي لكنني نسيت شيئاً ما.

فتح الخزانة وبدأ يفتشها، لم يجرؤ على وضع النقود فيها، فضّل وضعها في جيب سترته الصغيرة، لم يكن قد وضع شيئاً قبل ذلك في الجيب الصغير جداً، لم يجرؤ على تركها في الخزانة، رغم أنه عندما نزل على الدرج فكر أنه من الأفضل أن يتركها هناك؛ لأنه إذا حدثت مشكلة ما هنا فسيقومون بتفتيشه، أو يتدلى طرفها، كل دقيقة يمد يده ليتأكد أنها ما زالت مخفية فيه. يحمر وجهه، جلس خائفاً في الفصل بسبب النقود المسروقة. لا مشكلة إنها مسروقة من ماله، قال ذلك في نفسه، أتى "أورتسي" وحياه بشكل سري هامساً:

– مرحباً، سيكون هناك شيء ما، ستسترد النقود!

كأنه أصيب بصاعقة. ستسترد النقود؟ إذن هذه في مكان سيء في جيبه هذه العشرة فورنتات، وسأل "أروتسي" إن كان يقول الحقيقة.

– ذهب أبي إلى الشرطة.

فزع "ميشي" وتصبب عرق بارد من جبهته، أخبره "أورتسي" هامساً أن أباه غضب وقال أنه سيجعلهم يمسكون بهذا الشخص الشرير، وتحدث البارحة مع رئيس الشرطة الذي كان طوع أمره ورهن إشارته: لا تخف، هذا يفعل كل شيء.ثم سأل "أورتسي" بمرح "جيماشي"، عن سبب عدم حضوره البارحة، فرد "جيماشي" مستغرباً سائلاً عن المكان.

– عندنا.

– عندكم؟ لماذا؟

– لقد وقعت على ذلك.

– ماذا؟

– الخطاب العام.
– أي خطاب عام؟
نظر إليه "أورتسي" باندهاش وهو يضحك، وقال "لميشي":
– ألم تجعله يوقع عليه؟
لم ينتبه "ميشي" إلا الآن، وأكد أنه قام بذلك، وتذكر "جيماشي".
– آه، تلك الورقة؟ لقد كتبت عليها اسمي لكني لم أكن أعرف لماذا.
ضحك "أورتسي" على هذا وابتسم "ميشي"، وقال "أورتسي" هامساً:
– لقد كان خطاباً عاماً، خطاباً رئاسياً.
قال "جيماشي" بوجه أحمر كالفلفل:
– لماذا لم تقولا ذلك، يا لها من حماقة.
دخل المدرس، ولم يمكن لهم مواصلة الحديث، جلس "ميشي" أثناء الحصة مخدراً، خفض عينه لأسفل، اللعاب يتجمع في فمه، تعرقت العشرة فورنتات فوق قلبه، أصابه الدوار، يفكر لو أنه حصل على كل النقود، ألف فورنت أو ألفين، لكم من النقود تتسع الحقيبة؟ تذكر وزن الحقيبة الصغيرة البارحة، اعتقد أنها كانت خمسة كيلوجرامات من النقود، يمكن أن تكون نقوداً كثيرة، يا ترى كم كيلو يبلغ وزن ألف كورونا؟ رفع نظره فجأة، أمر غريب، المدرس يجلس أعلى المنصة يشرح، وليس عنده هم آخر، والأولاد منهم منتبه ومنهم مشتت، لا يشغلهم أمر سوى أن يكونوا هنا، ولا يهم إن انتبهوا أم لا، سيجتازون السنة بطريقة ما، هو الوحيد الّذي عنده أمور أهم بكثير، لا يستطيع أن يتواجد هنا هكذا، جسمه بالكامل يؤلمه كجرح حقيقي، وقلبه وروحه ممتلئان بأمور غريبة، كيف يكون هذا، عن ماذا يبحث بين هؤلاء الأطفال، استلقى إلى الخلف بتعب وإرهاق وأطبق رموشه ونام، قال المدرس فجأة:
– أليس كذلك يا "ميشي نيلاش"؟
نهض مفزوعاً، لم يكن يعرف عمّ يدور الحديث، وقال المعلم:
– أليس النوم جيد في الحصة؟
ساد الضحك الفصل. خجل "ميشي" وأخفض رأسه، أشار المدرس له بالجلوس، لم ينتبه لذلك، ظل واقفاً حتى ذهب إليه المعلم وأمسك كتفيه وضغطهما بهدوء إلى أسفل. كاد "ميشي" أن يبكي لطيبة المدرس الذي لم يعاقبه، واعتقد أنه يستحق التقدير الرابع جزاء له. يا إلهي! يد المدرس على كتفه الأيسر، تنزل إلى صدره، كاد أن يلمس العشرة فورنتات في جيبه. كاد يغشى عليه، سيتخلص منها، ولو بإعطائها لشحاذ أو تخصيصها لهدف خيري مدرسي. أو إرسالها إلى العم "توروك" لأنها تخص ابنه. يا إلهي، قد ينكشف الأمر. يفضل التبرع بكل ما كسبه من السيد العجوز لسكن الطلبة، أو أن يعمل طوال حياته بالكامل لصالح الشحاذين، لصالح وطنه، أو ألا يأكل سكراً مرة أخرى في حياته، أو أن يسير طوال حياته حافي القدمين، في الثلج أيضاً، أو... في سبيل أن يتلافى ذلك الخطر فحسب. في أثناء الحصة الثانية دخل عامل المدرسة من الباب، ونادى بصوت مرتفع:
– "ميهاي نيلاش"!
وقف "ميشي" متفاجئاً خائفاً، خيم صمت عميق على الفصل الصاخب. قال "إشتفان"، عامل المدرسة الذي هيئته تشبه هيئة السادة:
– تفضل إلى مكتب المدير.
الكثيرون يعتقدونه مدرساً، لكنه يسير بانكسار وصوت منخفض، وجهه أمغر لمرض الرئة، يتحدث الأولاد عن أنه في عداد الموتى منذ وقت طويل، وتزوج بشابة وستموت قبله، لكنه إذا تزوج بعد موتها بشابة أخرى فسوف يكون سبباً في بقائه على قيد الحياة حتى موته. لم يصدق "ميشي" ذلك، فقد اعتاد في قريته أن خرافات الفلاحين ثرثرة حمقاء، ولهذا

الشخص هيئة غامضة ويخافه، ترك الكراسة والقلم والحبر، وأسرع بوجه شاحب وقدمين مرتعشتين وراء العامل، علا الضجيج عشرة أضعافه وشعر أنهم يتحدثون عنه. دخل صالة المدير، قضى فيها ربع ساعة حرجة من قبل، تملكه رعب جديد كأنه دخل من باب الموت. دخل العامل إلى السيد المدير وهو معه، لم يضطر للانتظار، هذا أكثر إفزاعاً. السيد المدير ذو اللحية الرمادية المختلطة ببياض جالس على المكتب، ينظر في شيء ما. أبلغه "إشتفان" بإذعان:

– سيدي المدير، عفواً، ها هو "ميهاي نيلاش" هنا.

نظر "ميشي" إلى السيد المدير الذي لم يترك القراءة، يضع نظارة كبيرة، مستديرة. هدأ في ذلك الصمت حتى أنه بدأ يقلب نظره في المكان، رأى شخصين في الغرفة. أحدهما سيد طويل نحيف، أشقر، والآخر شرطي، لم يكن قد رأى شرطياً من قرب، كان يراهم فقط في المحطة وأمام مجلس المدينة ولا ينظر إليهم لخوفه منهم؛ لكنهم أخذا ينظران إليه بعين جادة، غض طرفه عنهما، كاد أن يموت: يا إلهي، أتيا من أجله! بدأ ينظر إلى المدير كأنه منقذه، الذي كان يخافه قبل ذلك، والآن راقت له رؤية الوجه الأشعث ذي اللحية، ويشعر بنظرات الشرطيين تتفحصه وكأنها إبر حادة، قال المدير فجأة:

– ما هذا! أيّة تذكرة يانصيب اختلست؟!

ارتعد "ميشي"، فتح فمه، لم يستطع التحدث، حرك المدير كرسيه إلى الخلف وصاح بشدة:

– حسناً، نستمع! من معه!

وأشار بقبضة يده التي أطلقها بصلابة إلى الشرطيين.

– أتى هذان الشرطيان إلى هنا للتحقيق! للتحري! اقتحما مدينة الطلاب! لأن مدينة الطلاب غير مقدسة اليوم بالنسبة للقانون! يقتحمون الحوائط أيضاً! ويأتون مدججين بالسلاح، ويطلقون النار إذا اعترضت...

قال السيد المدني بخضوع مسترضياً إياه:

– أرجو العفو.

وأكمل بخضوع واستكانة:

– سيدي المدير المحترم، يعتذر السيد قائد الشرطة بشدة ويرجو من سيادتك ألا تأخذ حضورنا بشكل صارم.

صرخ المدير:

– كيف آخذه إذن؟! هل أعده جائزة؟ هل هذا هو تقدير مدينة الطلاب؟ هل يسكن هنا لصوص؟ قتلة سارقون بالإكراه؟ حتى يتوجب اقتحام المكان بهذا الشكل حتى تزعزع استقرار الأولاد النفسي؟!

– أرجو المعذرة بخضوع واستكانة، آخر أمر وزاري، وزير الداخلية...

– لا أهتم لوزير الداخلية، ولا لوزير الخارجية، وإذا أراد السادة معرفة ذلك فإنني لا أهتم "لفرنتس دياك" "Deák Ferenc" ولاتفاهاتهم! أنا هنا أمثل الحكم الذاتي لمدينة الطلاب، ولا تتدخلوا في ذلك!

– أرجو المعذرة بخضوع سيدي المدير المحترم...

– لا ترجَ مني شيئاً! لا تستفزني ولا تخرجني عن التزامي! هل يجب اقتحام قاعات مدينة الطلاب المقدسة بالسيوف من أجل هذا الحمل الصغير؟ هذا الصغير البريء انظرا إليه، إنه بحجم قفاز، هل تريدان تقرير هذا؟ هل يعلم السيدان من يكون؟ إنه متعلم ممتاز، وأميز طلاب مدينة الطلاب، ويسكن هنا، مثال للاحترام والثقة والتربية، والذي يمكن للسيدين رفع قبعتيهما له! حسناً، لقد قمت بتقديم المتهم للسيدين الآن بالفعل: مرحباً بكما!

وأشار إليهما بالمغادرة، لكن الشرطيين لم يردا التحرك، بدأ الشخص الأشقر مرة ثانية:

– أرجو المعذرة بخضوع وإلحاح...

صاح السيد المدير ناهضاً من على المكتب، خرج من الركن كأنه يخرج من حصن، وقف أمامهما بجرأة وحزم:

– قلت لكما بالفعل ألا تطلبا مني شيئاً! لا بخضوع ولا بدون خضوع! لا تطلبا مني ولو شيئاً واحداً شفهياً، ولا تسألاني! يوجد في الحكم الذاتي لمدينة الطلاب أن الشرطة لا يمكنها أن تسألني شيئاً إلا بطريقة واحدة: كتابياً... أم لا يستطيع

السيدان الكتابة؟
– نظراً لكون الأمر عاجلاً.
– ليس هناك أمر عاجل، فلتعلم أنه في هذه الحياة لا يوجد شيء عاجل، الاحترام فحسب! ما هذا الرد السيء! لم يجرؤ جنود الخيالة أنفسهم على التدخل في الحكم الذاتي لمدينة الطلاب! تدخلوا في حرية الأمة، وحرية الدين، وحرية التعليم، لكنهم لم يتدخلوا في الحكم الذاتي لمدينة الطلاب!
لوح بيديه وأولى ظهره للشرطيين، ظلا لدقائق ثم غادرا بتحية باردة، جلس المدير العجوز على الكرسي وصاح:
– "إشتفان"!
دخل العامل.
– ادعُ السيد المعلم "جيراش" للحضور هنا.
خلال دقيقتين أتى المدرس الشاب.
– أمرك سيدي المدير.
لم ينظر إليه المدير لبعض الوقت، انشغل بالأوراق أمامه، رفع نظره فجأة وقال بصوت عميق:
– أخبرني، أيها السيد البروفسور، هل تعرف هذا التلميذ؟
نظر "جيراش" إلى "ميشي".
– كيف لا أعرفه، إنه تلميذي بالصف الثاني.
– ما قصته مع تذكرة اليانصيب؟
قال "جيراش" متعجباً وهو يهز رأسه متسائلاً عن تذكرة اليانصيب، وقال السيد المدير العجوز:
– لا تعلم ذلك؟! قل يا بني، قل شيئاً؛ فالسيد الأستاذ لا يعلم!
وقف "ميشي" باستقامة، نظر حوله، لقد تسلى بما دار هنا حتى نسي أن كل شيء بسببه، وقال:
– سيدي المدير، اسمح لي، إنني أقرأ الجرائد كل يوم لسيد كفيف مسن، وأحصل على عشرة كرايتسارات مقابل كل ساعة!
قال المدير مشجعاً:
– حقّاً؟ هذا يعني أنك تحصل على ثلاثة فورنتات كل شهر! هذا مبلغ كبير! مساعدة كبيرة لأبيك الفقير.
– والسيد "بوشالاكي" المسن...
صاح المدير:
– "بوشالاكي"؟ المستشار السابق بمجلس المدينة؟
– نعم بالطبع.
– الأمر كذلك! هذا جيد.
– أعطاني السيد "بوشالاكي" العجوز يوم الأحد قبل أسبوعين فورنتا حتى أضعه في اللوتري ما رآه في حلمه.
– رآه في حلمه؟
– نعم.
– هذا حمار عجوز، يضع في اللوتري ما يراه في حلمه؟
– نعم؛ لأن الخالة التي تغسل له فسرت له الأرقام.
– تباً لهذا العجوز! الغسالة تفسر أحلام العجوز! هل فازت بسلة على الأقل؟
قال "ميشي" مرتعداً وهو يتذكر ما فيه جيبه، ويضحك لكيلا يشي بخوفه:
– لا، معذرة، لقد وضعت الأرقام في لوتري بودابست وقد سحبوا الأرقام في برنو.

قال المدير مهمهماً:
– في لوتري برنو، في لوتري برنو... لوتري بودابست، لوتري برنو... فاز أم لم يفز؟
– لم يفز.
– حسناً إذن! بالتأكيد لم يفز! أناس حمقى،...
نهض المدير غاضباً وأعطى درساً عن الخرافة والخزعبلات.
– لقد فقد سيد "يبوشالاكي" فورنتا وبسببه قام هذا الحمار "ماتياش كيش" "Kiss Mátyás" (كان أحمق دائماً)، قائد الشرطة الحالي، بإرسال ضابطي أمن عام إليّ هنا، وسيقلب الحكم الذاتي لمدينة الطلاب. اذهب إلى الحصة، أيّة حصة الآن؟
– حساب.
– أسرع إذن، لا تضيع الوقت.
استدار "ميشي" بسعادة وانطلق جارياً، سمع السيد العجوز وهو يقول "لجيراش":
– بسبب أحمق عجوز مثل هذا...
عندها أغلق "إشتفان" الباب وشعر هو بدفء سعيد حول قلبه حتى أنه انفجر في البكاء على إثره، ولم يستطع دخول الفصل حتى بكى في الممر بما يكفي. لكن في اليوم التالي أتى "إشتفان" مرة أخرى أثناء الحصة. الآن بالفعل لم ينادِ بصوت مرتفع عليه باسمه، ولكنه أشار إليه بأصبعه، فنهض واقفاً بوجه شاحب وخوف أكبر من خوفه أمس، وكان فزعاً بشدة حتى أنه تعثر في ركبة "أورتسي". بالتأكيد، الجميع يتحدث منذ الأمس عن اللوتري، وعلم طلاب الصف الثامن أيضاً بالفعل أن أحداً ما سحب النقود التي ربحها التلميذ الصغير.
يفكر "ميشي" في كل شيء إلى أن وصل إلى مكتب المدير، لم يذهب أمس للقراءة لدى السيد "بوشالاكي"؛ لأن السيد المدير قال أنه تقدم ببلاغ ضده في الشرطة بسبب فورنته، لذا لن يذهب إليه. علم أن المدير لا يعرف أي شيء، وأن السيد "بوشالاكي" لا يعرف شيئاً عن الأمر بمجمله، وبدلاً من أن يستفيد من اللوتري سيدخل في مناقشات غير لطيفة لأنه تقدم ببلاغ. رغم أن هذا ليس حقيقياً فوالد "أورتسي" هو من أبلغ، ولم يقل شيئاً لأحد منذ الأمس، وكان منطوياً علي نفسه واختفى. هذه المرة لم يتم إدخاله إلى المدير بسرعة، يسمع نقاشاً يدور بالداخل، نادوا عليه أخيراً. نظر إليه المدير غاضباً.
– يا أيها الولد، كل يوم يظهر شيء ما بشأنك؟!
رأى "ميشي" مفزوعاً "فيولا" في الغرفة تبكي، وتجفف وجهها بمنديل، وقالت بطلاقة، حتى تثبت نفسها تقريباً:
– فسدت حياتنا كلها، ولابد أنه يعلم شيئاً عن شقيقتي الصغيرة، أرجوك سيدي المدير.
حملق المدير في الولد ولم يتكلم، أما هو فكان يلهث ويتلعثم أمام الأعين الطاعنة، فبادر من دون أن يوجه له سؤال:
– معذرة سيدي المدير، السيد "يانوش توروك" لم يأمرني أن أعطي الرسالة للآنسة بيلا، ولا أعلم شيئاً آخر.
نظر إليه المدير ساخطاً.
– كل يوم معك مشكلة، لماذا تتدخل في شؤون الجميع؟ عمَّ تبحث أنت بين العشاق؟
ارتجف "ميشي".
– أعلّم شقيق الآنسة "فيولا" الأصغر الحساب واللغة اللاتينية بناء على أمر من السيد الأستاذ "جيراش".
– تعلمه؟
– نعم.
– هممممم. نظير نقود؟
– نظير فورنتين كل شهر.

– أنت تقوم بالتعليم أيضاً! أيتها الآنسة، ليس هناك سبب للشكوى. هذا الولد... لم يرتكب شيئاً! هذا ولد بارز ومتميز في الفصل، كما أنه يشارك في الأعمال الخيرية بمدينة الطلاب، كيف يمكن التقدم بشكوى ضد هذا الولد الصغير؟ ما دخله بعلاقات الحب بين الكبار؟

ارتبكت الآنسة "فيولا" وقالت سريعاً بتلعثم:

– كنت أعتقد أيها السيد المدير....

– لا تعتقدي شيئاً. ما حدث أمر محترم بالتأكيد، اذهبي إلى المنزل بسلام، من يثق في الإله لا يُخدع أبداً، سيكون كل شيء على ما يرام.

بذلك لوح لها بلمغادرة، وقال متذمراً كأنه يحدث نفسه:

– اتركوا طلابي في سلام!

انفجرت "فيولا" باكية، استدارت وغادرت مسرعة بتحية تكاد لا تسمع، بقي "ميشي" واقفاً، دق الجرس، نظر إليه المدير، وقف، واقترب منه مهدداً:

– أيها الولد السيء عديم النفع، في كل شيء موجود أنت! لدي مشكلة كل يوم بسببك! العالم يتعلق برقبتي بسببك. هل عليك أن تقوم بتوصيل رسالات غرامية؟ أعتقد أنك مسؤول عن ذلك أمس أيضاً! أحذرك، لو استدعيتك مرة أخرى ووجب أن أرى وجهك القبيح فلن أتحدث إليك، ستتلقى صفعة قوية تطير منها من الشباك! اغرب عن وجهي!

استدار "ميشي" وغادر مسرعاً، الممر خالٍ، انفجر في بكاء مصحوب بتشنجات، خر جالساً على درج السلم الموجود أمام تمثال "بتوفي"، لمن يمكنه أن يقول كلمة في هذا العالم بأكمله، كلمة واحدة؟ ليس هناك من يفهمه. سمع خطوات، صعد السلم إلى الطابق الأول رغم أن فصله بالطابق الأرضي، أراد الاختباء، لم يجد مكانا مناسباً، الممرات غير مريحة ومفتوحة، صعد على السلم الجانبي طابقاً آخر وبدأ يسير أمام غرف السكن. أخذ المفتاح المعلق ودخل الغرفة، استلقى على السرير، بكى حتى نام من التعب، لم يحضر حصص ما قبل الظهر، في الساعة الثانية عشرة نزل إلى الفصل لإحضار كتبه وكان الأولاد يتدافعون إلى الخارج، ورأى "شاندور" يحمل كتبه، سأله مستفسراً أين كان، لكنه لم يقل إلا:

– إنني مريض.

ضحك صديقه كمن عرف مرضه، بعد الظهر ذهب إلى الحصة، وقرر أن لا يحضر حصص الغد. عزم على البقاء في السكن مهما حدث، لم يذهب بعدها إلى السيد المسن ولا إلى أسرة "دوروجي"، وكأن المدير قد شعر بذلك، أتى العم "إشتفان" قبل دق الجرس صباحاً ودخل الغرفة، يمشي مترنحاً يتبع العامل، لم يكن حياً أو ميتاً، المدير يكون أكثر غضباً في الصباح، دخلا، ورأسه المسكين الصغير المتعرق يحمله بانقياد، كان الأمر سواء عنده، المدير يمشي في الغرفة بعصا طويلة، ما أن رآه بدأ يصيح:

– أيها الولد السيء! بم وعدتك أمس؟ لا يمكن أن تمر علي ساعة هادئة بسببك؟ مدينة الطلاب منقلبة. ألا يمكن أن يحدث هنا شيء آخر غير غسل وتنظيف قذاراتك!

وضرب بالعصا في الهواء فوق رأسه، لكنه أسف على الولد الصغير المسكين، الشاحب، الذي فسد تماماً.

– توجد هنا كومة من الأوراق، ها هي التحريات والتحقيق بأكمله!

وضرب ضربة قوية بالعصا على المكتب، وحدق بالتلميذ الصغير بعين حمراء.

– أبهذا تشكر صنيعي؟! إنك تستحق الشنق! سوف أعرف كل شيء حتى لو لم تتكلم.

مشى في الغرفة ذهاباً وإياباً بخطوات عالية الصوت، ثم وقف وصاح فيه:

– ما موضوع تذكرة اليانصيب هذه؟!

لم ينطق "ميشي" ببنت شفاة، واصل المدير المشي في الغرفة. ثم توقف مرة أخرى.

– لماذا لم تذهب لقراءة الجرائد "لبوشالاكي" منذ يوم الأحد؟!

لم ينطق "ميشي" مرة أخرى. قرع المدير الأرضية بخطواته.
– إنك ولد غير مبالٍ بشيء، تقلب كل شيء رأساً على عقب في أي مكان تضع فيه قدمك فيه! ها هي الأوراق: حياة عائلة "توروك"، العائلة في التربية، سيدة "اللوتري"، والد "أورتسي". رأسي يطن بسبب ذلك، منذ ثلاثة أيام لا يمكنني التفكير إلا في ولد منحرف عديم الانضباط يفسد وقار مدينة الطلاب في المدينة كلها.
بدأ في السير بغضب مرة أخرى. حينها صرخ بشدة ينادي "إشتفان"! دخل العامل.
– أين ذلك البروفسور؟
– لم يأت بعد، سيدي المدير المحترم.
– إنهم يسرقون اليوم منا! إذا استطعت التواجد لا يأتي، سأفرض النظام في مدينة الطلاب السيئة هذه! سأترك كل شيء هنا! لن أكون دمية للأساتذة الذين يسرقون اليوم وللطلاب الشيطانيين أكثر من ذلك! خذ هذا الوغد إلى السجن، أحكم إغلاق القفل عليه، سوف أعلمهم أنا...
أمسك العم "إشتفان" يده، يتبعه "ميشي" صامتاً بخضوع وإذعان، رأى السجن المظلم والقضبان الحديدية، خاف من الثعابين والضفادع فيه، لكن العم "إشتفان" أخذه إلى غرفة مجاورة، قاعة قراءة للمدرسين، ولم يكن فيها أحد، وقال بهدوء، وصوت طيب للغاية حتى ذرفت عين "ميشي" دمعة:
– فلنجلس.
سأله منتحباً:
– ليس كذلك يا عم "إشتفان"، ألن يغضب السيد المدير؟
شد العم "إشتفان" شاربه الرقيق، البني، المتدلي على الجانبين؛ وقال بهدوء:
– نغضب بالتأكيد، لكن لا تخف منه؛ لأن غضبنا ليس خطيراً، وفي سبيل الخير.
انتابت "ميشي" نوبة بكاء، يتوسل لـ "إشتفان" أن يأخذه إلى السجن خوفاً من غضب المدير، فقال العم "إشتفان":
– إلى السجن، أيّ سجن؟ لقد ألغينا السجن منذ عشر سنوات! لا يوجد سجن في مدينة الطلاب بدبرتسن! نقول ذلك فقط، إذا لم نرتكب شيئاً فعلينا ألا نخاف. فلنفكر في أمهاتنا ولن تحدث أيّة مشكلة.
استند "ميشي" إلى الطاولة، إنه الشخص الوحيد الذي تحدث معه برقة وطيبة منذ وقت طويل. واصل "إشتفان" حديثه بهدوء:
– السيد المدير المحترم يصيح بشدة، لكننا سنرى.. حسناً.. سوف نفحص الأمر ونحقق فيه.
سمع صياح المدير، ينادي "إشتفان"، فخرج العامل العجوز مسرعاً، بقي "ميشي" بمفرده. انكمش، يشعر بالخجل، لقد حبسوه، لا يجلس في الفصل مع الآخرين الذين يتعلمون بمرح ويجيبون على الأسئلة حاصلين على تقدير امتياز أو جيد أو مقبول، وحتى من يرسب ويعيد الاختبار فهو حر ونظيف، وليس مثله، محبوس في قفص، أمر مضحك ومفزع، حر محبوس، لا يمكنه الخروج، نظر إلى الجدران بعين جديدة، لا يمكنه اختراقها، وكذلك النافذة، لا يستطيع القفز خارجها، ولا يمكنه الخروج من الباب، أعصابه مشلولة كفراشة فقدت أجنحتها، كاد يغشي عليه، يلهث، يشعر بالتعب، استلقى بحذر على الأريكة، تكور في جانبها، وراقت، غشيه النعاس، أفاق فجأة، شعر أنه في سفينة كقارب كبير مسطح، تسير في البحر، تحيطه مياه ليست زرقاء، كانت رمادية مثل نهر تيسا. تملكه خوف شديد؛ كان في غرفة مظلمة، والباب مقفول، ساحرات شريرات يصرخن بالخارج، يرتجف متكوراً، عندها دخلت أرواح لا يمكن رؤيتها، التقطوا أريكته، قهقهة، رموه في الهواء، داخ، سقط في عمق رهيب، فقد وعيه وسقط على الأرض.
استجمع قوته بوجه باكٍ متعب، فكر: لماذا لا يحبه أحد؟ الأولاد لا يحبونه، يتمنى ابتسامة، أن يضحك أحدهم ويمد يده له، الكل لا يحبه، الأولاد والمدرسون غرباء عنه، ومن في الغرفة، والسيد المسن، لم يتحدث إليه بسرور وطيب خاطر. "فيولا" تكرهه، "شانيكا" يبغضه، أسرة "توروك" لا تحبه، يسخرون منه، والخالة، و"إلونكا"، و"بيلّا"؛ فلو أحبته لبقيت ولم

تسافر مع الشخص الشرير، و"أورتسي" لم يقل له الأسرار، مع من يتحدث وعن ماذا، و"جيماشي" لم يأتِ يوم الأحد إلى منزل "أورتسي"، والسيد الأستاذ "جيراش"، آخر مرة وجه إليه نظرة قاسية غاضبة، والسيد المدير، يصيح بدون داعٍ كصفة تمنحه الرجولة، يريد الانتقام منه، لا أحد يحبه، ولأي شيء يحبه أحد. العم "إشتفان" أيضاً، ربما ألصق به الموت بلمسه؛ لأن مرضى السل يلصقون الموت بالشباب، لا أحد يحبه، لا أحد غير أمه وأبيه، فانفجر بكاء ونحيباً.

لديه وقت كافٍ للبكاء وللإفاقة، سيكون جيداً لو صعد إلى قمة البرج، إلى القبة الحمراء، وألقى بنفسه من أعلى، أو ليبقَ طفلاً صغيراً للأبد، يمشي في الغرفة حافياً على الأرض الباردة متشبثاً بتنورة أمه ولا يعرف شيئاً عن أي أمر. عقد حاجبيه، خجلاً من أفكاره الحمقاء، قرر ألا يعد نفسه طالباً في مدينة الطلاب، هنا جرحه الجميع وآذاه بظلم، لن يحمي نفسه، ولن يشرح أي شيء، الكبار يعتبرونه ولداً صغيراً فحسب، عليهم أن يخجلوا هم من أنفسهم إن افترضوا سوء الظن، الشرطة تبحث عنه مثل اللصوص والقتلة، و"فيولا" تذهب إلى المدير لاتهامه، المدير يصدق الجميع رغم أنه رجل عجوز بإمكانه أن يقرأ وجوه الناس، قرر ألا يجرحوه مرة أخرى، عندما ينتهي الأمر سيركب القطار ويسافر إلى أسرته، لن يعاني بعد ذلك في مدينة الطلاب بدبرتسن!

وقف، اتجه إلى النافذة، الفناء خالٍ، ينظر إلى النافورة، أصبح كل شيء أمامه بغيضاً، بجوار النافورة تخفى "أورتسي" وتهامس مع "بوسورميني" عن أمره، لم يرَ أنه يجب عليه إخباره بما دار بينهما، بغض النافورة ولم يرد رؤيتها أكثر من ذلك، قرر ألا يعود إلى دبرتسن بعد ذلك، ولا يريد أن يسمع عنها، هناك مدارس في أماكن أخرى، وإذا لم يرسله أبوه لمدرسة فلن يتعلم، يمكنه أن يصير شاعراً، "تشوكوناي" أيضاً طُرد من المدرسة في دبرتسن، وقاموا بدق الجرس عند طرده، شعر بالخوف، ربما يدقون جرس مدينة الطلاب بعده، وتعلم المدرسة أنه طُرد. اغرورقت عيناه بالدموع، لم يبالِ، يؤذونه ظلماً وهو بريء، لم يعد يعنيه رأي الناس والكبار وماذا يقولون أو يعتقدون عنه، الأهم ما الحقيقة؟ هو في أمر جلل غريب وعجيب وقاموا بحبسه، وحراسته، يتبعونه ببندقية خوفاً من هروبه، بالغون، كبار، رجال، يفكرون في شيء وهو يعلم عنه أكثر. ببطء، كما لو كان الضباب يتفرق، يزول من روحه الضعف، الإحباط، الضباب، ويشتم؛ فقد بدا له أنه اخترق حد سنوات الطفولة ودخل عالم الكبار فجأة.

كم كان يتوق إلى السروال الطويل وساعة الجيب وتقدير الكبار، والآن ينشغل بمن يرتدون سراويل طويلة ولديهم ساعات جيب وملتحون، يعجبه هذا، وكأنه في قبضة يده قوة تضغط على الكبار. يدق الجرس، يرى "أندراش" "András" العامل الصغير ذا الحذاء الطويل يشد سلسلة الجرس. خلال دقائق يتزاحم الأولاد في الفناء، يرجع خائفاً من عند النافذة؛ لا يريد أن يراه أحد وهو في السجن، ولو لم يكن سجناً، ففي النهاية هو محبوس، توهج وجهه، ارتفعت حرارة جسمه، يجري دمه بسرعة في أوردته، رغم الخزي يريد تحفيز نفسه بأن كل هذا لا يهمه، لأنه على حق، وعلى كل من يؤذيه الآن أن يعتذر له، بمن فيهم السيد المدير. لا يمكنه أن يشرح لكل واحد أن الحق معه.

يا إلهي، ربما يصطحبه ضباط الأمن العام في الشارع بيد موثوقة إلى الوراء، رآهم في الصيف يقتادون خمسة أشخاص في القرية، لأنهم رفضوا الحصاد لأصحاب الأراضي، يتذكر، أربعة من ضباط الأمن العام ببنادق مرفوعة مزودة بحراب وريش ديك، كان ذلك منتصف اليوم تحديداً عندما كانوا خارجين من المدرسة عائدين إلى منازلهم، وأخذوا يحملقون فيهم. لم يفهم حينها سبب اصطحاب ضباط الأمن للفلاحين إذا امتنعوا عن الحصاد، ومنها أصبح يشعر أن هناك من يترصده وينتظره عندما يرى ضابط أمن، ويقبض عليه لأنه لا يريد أن يحصد لصاحب الأرض، يريد أن يعمل لمن يحلو له العمل معه، شعر بقلبه الطفولي أنه متمرد، قبل أن يعرف ما هذا المتمرد، لم يرد أن يكون عبداً أسيراً، قبل أن يعرف ماذا يعني ذلك.

وقف ذات مساء صيفي حار شرطيان بجواديهما أمام فنائهما، صاحا بصوت مرتفع: "هل "نيلاش" موجود بالمنزل؟" أسقطت أمه الغربال الذي كانت تغربل به القمح في الفناء من يدها لشدة فزعها، انحرف ذراعها لأسفل وانسكب الغربال على الغطاء وليس الأرض لحسن الحظ، رأى وجه أمه الشاحب، لملمت شتات نفسها، سألتهما بقوة عن سبب بحثهما

عنه، كان الشرطيان الكبيران صلبان على حصانين كبيرين، لهما شاربان بنيان، بإمكانهما توجيه صفعات قوية لمن يمسكوا به، يمسكان بزمام الحصانين بقبضتيهما السوداوين الكبيرتين. ابتسم الشرطي السائل وقال وقد خرج الجيران إلى السياجات متسائلين إن كانوا سيأخذون "نيلاش"، قال الشرطي:

– كنا نلهو سوياً في حانة تارتسال مؤخراً، وأردنا أن نراه طالما أننا هنا!

تنفس الجميع الصعداء، وكانوا فخورين أن الجيران علموا بأن أباهم يلهو مع ضباط الأمن في حانة تارتسال. "أخبريه أيها السيدة أن الرقيب "فازاكاش" "Fazekas" يرسل إليه التحية". وانطلقا بحصانيهما الأصفرين الكبيرين، مازالت تتحرك فيه السعادة والخوف بشكل مختلط، ربما يأتي هؤلاء الكبار ذووا ريش الديك ذات مرة كعدو وليس كصديق.

دق الجرس مرة أخرى، اختفى الأولاد من الفناء، فتجرأ وأطل من النافذة تناوشه أفكاره. ساعة حرجة، دق الجرس مرة أخرى، بمفرده في الغرفة المخيفة. قضى الوقت في السير ذهاباً وإياباً على أطراف أصابعه حتى لا يحدث أي صوت، لم يبغِ لأحد أن يلاحظه، أو يفكر في أمره. مشاعر مقلقة ومخيفة، صور تتشكل أمامه، مستقبله مقابل الظلم الكبير الذي يتعرض معه، تخيّل نفسه في لحظة عابرة شخصاً مشهوراً وكبيراً، رجلاً طويلاً وقويّاً، له لحية كبيرة طويلة كما في صورة لسيتشيني في دوبلينج "Döbling"، الظالمون صغار يعتذرون له ويطلبون منه العفو، يخبرونه أنه تلميذهم المحبب، يطلبون منه التوسط لهم ومحاباتهم، سيساعدهم ولن يذكر ما فعلوه به. شعر بخدر، وأحس بقوة "ميكلوش تولدي" "Toldi Miklós" وسيطر على تفكيره، بعين مغمضة انتزع أكرة الباب، ركله ودخل مكتب المدير، هشم المكتب حتى صار خشب السنديان السميك مثل الزبد بين يديه، أصيب المدرسون بالذعر، وبخضوع وذل يطلبون أن يعفو ويسامحهم. وقف أمامهم، في عمق وظلام شديد، انفتحت حوله في القمح نباتات الخشخاش الشائع، كان في منزلهم أمام أمه، ولداً صغيراً فقيراً مرة أخرى، جلس في حِجرها، همست له: "كن طيباً يا بني، كن طيباً يا بني الصغير، حتى الموت يا ولدي الصغير، كن طيباً حتى الممات...".

استراحة بين حصتين ولم يُفتح الباب، تذكر قصة عملاق يحمل جبلاً حتى تآكلت قدماه وخصره ورقبته، سيتآكل هو أيضاً هنا في معاناته، ولكنه سيصبح مشهوراً في النهاية، يتعجب الناس من أمره، وإذا عاد مرة إلى دبرتسن سيخرج أهل المدينة إلى المحطة لاستقباله، ويأتي العمدة والأسقف لاستقباله ويقومون بتحيته، وقد خجل بسبب الاحتفال الكبير. ولن يعرف الفصل الحالي، هم غرباء في الفصل، ماذا يتعلمون؟ بدا له ذلك التعليم حماقة، هو إعطاء للدروس من حصة لأخرى، ولا يتعلم الجمل متروكة، يريد أن يتعلم ويعرف كل شيء مرة واحدة، تخيل أن هذا ينبع من الداخل، من يريد يستطيع، من تنشرح روحه يخرج العلم منه، وحينها سيصغي الجهلاء إلى كلامه ويقرؤون كتاباته؛ لأنه لا يجب إلا الكتابة فحسب، وعندها كل حقيقة ستظهر. العقيد "شيموني" في سنوات طفولته الصغيرة، صعد البرج الأحمر المرتفع، قمته مرتفعة، وسطحه مليء بالعصافير.

العقيد "شيموني"
كبطل وقف بالخارج
رأى تحته من هناك
العالم بأسره.
ملأ صدره
بصغار العصافير.
لا يستبدل الآن بالسعادة
مع العالم بأسره.
ألقوني لأسفل ليست مشكلة
لديّ ألف جناح...

زواحف على الأرض قباح حسّاد
أتبعوه نظرهم...
لا يسقط هذا على الأرض
بل يطير في السماء
له مائة ألف جناح
تخفق في قلبه.

تهللت أساريره وضحك، عينه منتفخة، يطير، لو أن النافذة مفتوحة لطار على شجر السرو بين الطيور وغرد، ليس بدندنة بشرية، ولكن بلغة الطيور وزقزقتها العالية، فليبارك من غرس هذه الأشجار، وليلعن من يقوم بقطعها كما قطعوا صف أشجار سد شيموني " "Simonyi-gát... ثم سيطير ويحلق مالئاً رئتيه بهواء كثير، يحلق في السماء الزرقاء اللامعة، يطلق بصوت مرتفع كصوت الطيور: تولولولو! فُتح الباب، دخل العامل، رآه يحرك ذراعيه مثل الطيور، سمعه وهو يقول: تولولو! خجل وطأطأ رأسه، غطاه بيده. يا إلهي! لم يعلق العم "إشتفان"، نظر إليه بريبة وكأنه جن، أشار له أن يتبعه. لحقه بصمت، وقبل أن يضيق صدره ضحك، اعتقد أنه شاعر كبير، كان عليه أن يكتب الشعر فحسب؛ لأنه ينساه. لم يدخل مكتب المدير، عبرا فصلاً خالياً كبيراً في الجانب الآخر، بعده غرفة مدرسين صغيرة يشغلها خمسة أو ستة مدرسين. يجلسون على كراسيّ ملتصقين ببعضهم، كأنه ليس معتاداً أن يتواجد هذا العدد في وقت واحد. وجوههم مكفهرة، يعرف أشكالهم، فلم يدرس له أحدهم، ينظر إليهم خائفاً متفاجئاً: هل هي محكمة من المدرسين؟ هكذا فكّر في نفسه.

وقف أمامهم شاحباً مرتجفاً، قال أحد المدرسين وكان يرتدي نظارة ذات زنبرك، وشعره يشوبه بياض:

– "ميهاس نيلاش" الطالب بالصف الثاني، عليك أن تجيب على مجموعة كبيرة من الأسئلة، أحذرك وأنبهك، تجب الإجابة باحترام وصدق؛ فالأمر متعلق بحياتك وموتك، المجموعة الأولى: كيف تم تكليفك بوضع فورنت للسيد "بوشالاكي" في اللوتري؟ ومتى وضعته؟ وأين؟ ولمن أعطيته؟ والأرقام وماذا حدث مع تذكرة اليانصيب؟

حملق "ميشي" ولم يستطع الإجابة:

– معذرة، سيدي المعلم، كنت أخبئ تذكرة اليانصيب في هذه المحفظة الصغيرة، وضاعت منها.

– نعم! ضاعت! هذا ينتمي إلى مجموعة الأسئلة الثانية، ونظراً لأنه تمت الإجابة على الأسئلة السابقة بوضوح ننتقل للأسئلة الأخرى: من أين تعرف "يانوش توروك"؟ بماذا وعدك مقابل تذكرة اليانصيب؟ متى دفع لك ما وعدك به؟

– وعدني أنا؟

– أنت! سأنعش ذاكرتك لاحقاً. هذا خطاب "يانوش توروك"، ووعدك بعشرة فورنتات مقابل تذكرة اليانصيب وأعطاها لك عندما حملت حقيبته حتى مدينة الطلاب.

أعطى العالم ظهره "لميشي"، أصبح شاحباً كالموتى وأصابه دوار، نظر إلى الأشخاص الذين ينظرون إليه بحزم وصرامة وعداوة.

– أين العشرة فورنتات؟

قال الولد بصوت منخفض متقطع:

– لقد وضعها في جيبي عنوة، ولم أجدها إلا في اليوم التالي.

– أين العشرة فورنتات؟

كذب "ميشي":

– أرسلتها للعم "توروك"؛ لأن السيد "يانوش" ابنه.

– حقاً؟ هذا يحسن موقفك، لكنه لا يغير الواقع، لأنك قمت بلامبالاة ببيع شيء يملكه غيرك واستودعك إياه مقابل وعد مادي.

لم يستطع "ميشي" أن يرد على هذا الكذب، كذبه هو كان مقدساً ومطمئناً لضميره. لكن هذا الكذب أوقعه في يأس وارتياب، حتى أنه اعتقد أن الشمس لا تشرق والحجر ليس صلباً.

– مجموعة الأسئلة الثالثة: ماذا حدث في فصل الصف الخامس؟ كم مرة كنت هناك؟ ماذا لاحظت؟ ماذا تقول تلك النوتات التي تسب المدرسين؟ وفي أيّة تجمعات فاجرة شاركت هناك؟

حملق "ميشي". في فصل الصف الخامس؟ لم يكن هناك أبداً. تذكر شيئاً بشأن الأولاد الذين اعتادوا الذهاب إلى هناك بعد الظهر في يومي الأربعاء والسبت. الصف الخامس مختلف عن الصفوف الأخرى في مدينة الطلاب القديمة، له صالة، وهذا يثير خيال الطلاب كقلعة رومانسية، من الممكن أنه كان هناك شيء ما؛ لأنه سمع ذات مرة أنهم يشربون خمراً مقطراً لكنهم لن يدخلوه إلى هناك، أردف المعلم متصدّراً المجلس، صاحب النظارة ذات الزنبرك[49] بشكل جاف، لأنه رأى احتمالية بيع الولد لتذكرة اليانصيب بمقابل مبلغ نقدي، أي أنه ترك الفوز غير المضمون نظير فائدة مضمونة حتى يستطيع المشاركة في هذه التجمعات غير الأخلاقية.

– لم أكن هناك أبداً، ولا أعلم إن كان يحدث شيء هناك.

كان صوته حاسماً وقاطعاً، فقال المدرس:

– مجموعة الأسئلة الرابعة: نما إلى علمنا أنك قمت بإرسال أموال، لمن وكم ومن أين؟

انهمرت الدموع من عين الولد الصغير، ألم في حلقه، يناظر الأشخاص الصلع، بيض الشعر، العدائيين، لا يفهمونه، أم أنه من المستحيل أن يفهم إنسان آخر.

– عفواً، لم أؤذِ أحداً، لم أرتكب شيئاً في حق أحد.

قال مدرس بدين يجلس على يمينه:

– إنه ولد سيء، حتى دهان الأحذية أكله.

جفت دموع "ميشي" دهان الأحذية! "بوسورميني" من أكل دهانه وليس هو، نظر إلى الشخص الذي كان وجهه صحياً، مليئاً باللحم، وعينه رمادية وشارب كستنائي، وتكلم المدرس الآخر:

– لا يسمح للأولاد بالتجول خارج مدينة الطلاب، ماذا فعلت في مساء ما بعد إشعال المصباح؟ حملقت في الفتيات بالشارع؟

نظر "ميشي" إليه، سمين كبير الكرش يستند إلى الخلف، يعلق قدماً على رِجل الكرسي، وتتدلى إحدى ذراعيه على ذراع الكرسي، مشبكاً أصابعه على صدره، وكان صغير البنية، شفتاه غليظتان منتفختان، ذا بشرة بنية وشارب غير كثيف، مقززاً مثل الضفادع، نظر إليه "ميشي" بخوف، ولم يتخيل ما يقصده، أين رآه، لم يستطع البكاء ولا الضحك، ينظر إليه بخوف، لم يتذكر. لم يستطع صرف نظره عنه. تجادل المدرسون بعدها حول شيء ما، ولم يكن قادراً على الانتباه، وقف يتيماً ليس لأنهم عاملوه بشكل سيء، وإنما لأنه لم يفهمهم إلا قليلاً بقدر ما فهموه هم، فكر في نفسه: من الأفضل الإخبار بكل شيء، لكن هذا لم يكن ممكناً، لأنه عليه حينها أن يمتدح نفسه ويثني عليها، ويقول أنه مختلف عن الأولاد الآخرين وعن الجميع؛ لأنه لم يفعل شيئاً سيئاً لأحد، ولم يظن ظناً سيئاً في أحد أو شيء ما. كيف يمكن قول هذا، وقد يكون الأمر غير حقيقي، ربما يكون المدرسون محقين، وهو سيء وشرير، بحث في ماضيه عن الحقيقة، وقرر أن يخبرهم بأمر سكين الجيب الذي سرقه: ها هو هناك خلف صندوق القمامة. قال الرئيس في هذه اللحظة:

– هذا ولد تائه، غير مكترث بشيء، لا يجيب على أي سؤال، إنه روح شريرة، بدلاً من أن يفتح قلبه حتى نقرأه مثل كتاب مفتوح، يضاعف الجرم الذي ارتكبه بالسكوت. تكلم!

دار في ذهن "ميشي" في هذه اللحظة: "ستأتون لاستقبالي وتقبلون يدي عندما أصبح مشهوراً"، وقال بصوت مرتفع:

– سيدي الأستاذ، معذرة، لم أرتكب شيئاً!

عندما قال هذا وسمع صوته خجل من نفسه، لأنه ولد يسيل مخاطه، ويقول أشياء بدلاً أن يفعل شيئاً جميلاً.

– منذ متى تقوم بالتعليم عند أسرة "دوروجي"؟
فكر "ميشي"، لم يتذكر.
– حصلت على أجر منهم ذات مرة.
– هكذا. أتتذكر من خلال الأجر؟ جيد جداً. كم أجرك؟
– فورنتان.
– للشهر؟
– نعم.
– تقوم بتعليم زميلك بالصف؟
– نعم.
– ماذا؟
– حساب ولغة لاتينية.
– لا تعلمه شيئاً آخر؟
– لا.
– جغرافيا، لغة مجرية، شيء آخر؟
– لا.
– أي أنه يمكن أن يرسب في كل المواد الأخرى بسببك؟
سكت "ميشي"، وقال مدرس آخر:
– لكن هذا لا ينتمي إلى موضوعنا.
قال الرئيس:
– بل ينتمي إليه؛ لأن هذا يحدد فهمه الأخلاقي: روح أنانية، مُطالبة، مليئة بالمصالح المادية. كيف تعرفت على شقيقة زميلك وكيف كانت علاقتك بها، كيف يدعونها، "بيلّا"؟
يرفع "ميشي" حاجبيه لأعلى، قال بهدوء:
– علاقة طيبة.
– كيف؟
اعتذر "ميشي" ذاكراً أنها فتاة طيبة، فصاح البروفيسور:
– فتاة طيبة! فتاة في هذه الدرجة من الفساد الأخلاقي وتهرب مع مختلس، تعتبرها طيبة! حسناً، تحدث، لا يجب أن أقوم بإخراج كل شيء منك بكماشة!
أنزل "ميشي" رأسه ولم يتكلم، رآهم حائرين مترددين، كبار وأذكياء بلا جدوى، ولن يعلموا شيئاً، كيف يمكن معرفة روح إنسان وإخراج أسراره إذا كانوا يريدون فتح ثغرة عدائية قتالية، يا إلهي. تمنى أن يكون أمامه شخص يمكنه أن يخرج ما في قلبه ببراءة وصدق وإخلاص، صرف نظره نحو النافذة، وتجمد على إطار النافذة الباهت ذي الشبكة العنكوبتية، كئيب وأجرد كحياته.
– اسمح لي أيها الزميل أن أقوم بتوجيه الأسئلة إليه.
– تفضل.
قال الرجل ذو اللحية السوداء، الذي التفت إليه:
– قل لي يا بني، يا ولدي، كيف انحرفت إلى ذلك، إنه ليس أمراً صغيراً بيع تذكرة اليانصيب نظير نقود، عليك أن تفهم ذلك، هذا ليس مسموحاً به! بماذا كنت تفكر؟ أنهم لن يسحبوها؟

– لم أبعها!
– قف، أنت تقول بأنك لم تبعها، فلماذا كذبت على السيد المسن وأخبرته أنك وضعتها في لوتري بودابست وليس في لوتري برنو، ولم تقرأ له أرقام برنو؟
– لم تكن في الجريدة سيدي الأستاذ.
– لا تكذب!
– لم تكن بها.
– لا ترد بشكل سيء! سيكون أفضل لو أنك لم تبعها لكنك فعلت أيها الشرير الصغير! لا تكذب، سأصفعك حتى تنخلع رقبتك! كيف تجرؤ على الكذب أمامنا؟ أي ولد أنت؟ ماذا يعمل أبوك؟
– حطاباً.
– يبدو ذلك! تربيت على الكذب، إنه مدرب على الكذب باستمرار. أيّة أم وأب له؟
تجمد "ميشي" عند سماع هذه الكلمة وكز على أسنانه، نظر إلى المدرس بعين متقدة كادت تطعنه، فثار المدرس الطيب الذي حاول استدراجه ليعترف بكلمات معسولة، قفز من مكانه غاضباً من نظرة الولد:
– أيها الحقير! ألا ترتجف مني، أيها الروح الشريرة! سأنتزع أذنك،...
وقف "ميشي" بصلابة ورسوخ كوتد ولم يتحرك، ضم فكيه، واتسعت فتحتا أنفه مثل حصان يلهث، وأضحى وجهه الشاحب أكثر شحوباً، ونظر إلى المدرس كأنه يتأهب للهجوم عليه، وقال الرئيس بجزع:
– إنه فاسد أخلاقياً، عرفت ذلك من أول نظرة، في ظل هذه الظروف والمعطيات يمكن تفسير السلوكيات الإجرامية للذي يمثل أمامنا، وتلك ليست سمة لولد في الحادية عشرة أو الثانية عشرة، وإنما من سمات الأشرار الماكرين.
– من المؤسف أن يكون طالباً ممتازاً سيء الخلق هكذا!
قال الرئيس:
– طالب ممتاز، من الممكن أن يكون العقل جيداً أو سيئاً بالتناصف. السؤال" ماذا يسكن القلب، وليس ماذا في العقل؟ بقلب فاسد لن يقوم أذكى شخص بأفعال مباركة للإنسانية، ولكن بروح طيبة ونبيلة يكون صاحب أقل القدرات عضواً نافعاً للمجتمع. لا يليق أن نقوم بتربية أشرار مشهورين في كافة أنحاء العالم على تقاليد مدينة طلاب دبرتسن، وإنما يجب أن نحتضن ونرعى مواطنين مخلصين وذوي خلق ونافعين لهذا الوطن.
صاح "ميشي":
– لا أريد أن أكون طالباً دبرتسنياً!
عمّت المفاجأة الجالسين.
– لا تريد أن تكون طالباً دبرتسنياً؟ هذا لا يليق بك يا صديقي، وثانياً يمكنك أن تفخر على المشنقة بأنك كنت طالباً دبرتسنياً في وقت قصير! ياله من شعب سيء!
في صوته إخلاص وولاء وحماس وهو ينطق كلمة "دبرتسني"، نهض ووقف الآخرون معه لا إرادياً، ليوثقوا ما تعنيه الكلمة: دبرتسن! بقت هذه اللحظة في روح الطفل بشكل لا ينسى؛ لأنه لم يرَ بعد ذلك في أي مكان هذه الدرجة العالية والمتوهجة من حب الوطن، وككل المشاعر الحقيقية والكبيرة، انتقلت إليه، خجل لعماه وسوء حظه، ليته استطاع للحظة واحدة فقدان سحر حب دبرتسن الذي يملأ الروح. وقفوا ففقدوا الهدوء الشكلي للتحقيق، يتحركون جيئة وذهاباً، يتحدثون في ثنائيات وبانفعال عن أخلاق الشباب الفاسدة ومستقبل الوطن، قال الرئيس بعدها للولد:
– اخرج، انتظر وسنستدعيك، إذا كانت هناك حاجة إليك.
التفت الولد الصغير إلى المدير الذي كان صامتاً طوال الاجتماع، وقال له:
– معذرة سيدي المدير، مع كل ذلك أنت تراني ولداً جيداً، أليس كذلك؟

رفع المدير حاجبيه للحظة، ثم قال:
– همم.. هذا ما نريد أن نعرفه حالياً، هذا ما يحاول السادة الأساتذة تقصيه الآن!
طأطأ الولد رأسه وخرج، لكن قلبه بقي سراً مغلقاً لدى المدير العجوز. لايزال يسمع المحادثة الحامية المندلعة بالداخل، دخل من باب الفصل رجل فاجأه، فرح لرؤياه ولم يعرف سبب حضوره، خاله "جيزا إشاك"، بمعطف بني كبير فخم، وعلى رأسه الصغير قبعة سوداء، ينظر حوله بعينه السوداء، عرف ابن أخته الصغير وأسرع إليه بذراعين مفتوحين، ضمه إلى صدره:
– "ميشيكي".
انهمرت دموع الصغير الذي قضى وقتاً بين غرباء لم يقل أحدهم له كلمة "ميشيكي"[50]...، ارتمى بين ذراعي خاله ووضع وجهه في معطفه البارد كالثلج، بكمنتحباً، لا يمكن وصف تلك السعادة، سعادة أنه يمكنه البكاء على صدر أحد، على صدر صورته المثالية، نور عين العائلة كلها، خاله "جيزا" الطيب اللطيف، الذي لم يسمع عنه خبراً ولم يتلقَّ خطابات منه منذ وقت طويل، أتى إليه وسيخلصه، خرجت منه هذه الكلمة باختناق:
– إنهم يجرحونني، يجرحونني يا خالي "جيزا".
أخذ خاله يمسد رأسه بيديه العاريتين من القفاز، وقبل جبهته، ونظر بعين رطبة في عينه، كانت عيناه كبيرتين بنيتين كالجوز ممتلئتين بالدموع غاليتين جادتين.
– ابني الصغير اللطيف.
صاح الولد:
– لن أكون طالباً دبرتسنياً أكثر من ذلك! لا أريد! إنهم يجرحونني ويعاملونني بشكل سيء!
جعل ينتحب وأصابه فواق وتنفس بصعوبة، لم يتحمل خروج التوتر الكبير كزبد وحمم بركانية منه، اشتعل منذ وقت طويل. ضمه خاله إليه بشدة، طفل مرتعد مرتجف شاحب كالموتى، أسمر حزين، كز على ملابسه وعض قبضة يده حتى الاحمرار؛ حتى يدفع نحيبه المحرج.

الفصل الثاني عشر

قال خاله بحب:

– ابقَ هنا يا بني، سأدخل إليهم، انتظر هنا، انتظر بشكل جميل فحسب.

تكور "ميشي" في صف المقاعد الأوسط، على حرف المقعد الأول منه، مرتجفاً مرتعداً. وضع جبهته على يده، أصابه البرد بقشعريرة، اصطكت أسنانه ببعضها، وعندها بدأ يقول على إيقاع اصطكاك أسنانه: العقيد.. "شيموني".. في سنوات.. طفولته الصغيرة صعد.. ذات مرة.. على البرج الأحمر... كان البرج.. عالياً.. قمته.. عالية.. سطحه.. بالكامل.. مليء بالعصافير.. العقيد.. "شيموني".. كبطل.. وقف بالخارج.. رأى.. هناك.. تحته.. العالم.. بأسره.. حشا.. جيبه.. بصغار العصافير.. لا يستبدل.. الآن.. مع العالم بأسره.

توقف فجأة، رأى أن هذه الأبيات كانت أفضل في السجن عندما ألفها أول مرة، سيطر عليه الفزع كأنه فقد شيئاً ما، ثمة شيء مفقود، بدأ يقولها من جديد:

لقد قلت.. أنجلباندي "Angyalbandi" لا يذهبن هذا.. إلى الأرض.. وسط الأوغاد.. المحتالين. أعجبه هذا أكثر، وحاول: ترالالالا – ترالالالا – ترالالالا – ترالالالا.

ملأ صدره بصغار العصافير.

لن يستبدل الآن بالسعادة

مع العالم المستدير بأسره.

ألصق جبهته إلى حافة المقعد بقوة وأعمل ذهنه بقوة ليتذكر، أغمض عينه حتى أوجعته وأبرز أسنانه وكز عليها:

ملأ صدره بعصافير صغيرة.

لن يستبدل الآن بالسعادة

مع مدينة الطلاب.

ضحك، للشعر رنين، غير مشاعر الولد المطارد، المعامل بشكل سيء، المعذب، مع أهل مدينة الطلاب القافزين بالخارج في ابتهاج ومرح، "ليس شعراً، ولكنه حقيقة".

(العام الماضي حكت له الفتاة "إلونكا" حكاية عند أسرة العم "توروك"، أن سيداً أراد أن يسخر من صبيه، فقال له: هل تستطيع نظم شعر يا "ميشكا"؟ لا؟ سأقول أنا لك شعراً.

هل تسمع أيها الطائش "ميشكا"

تحبني شقيقتك الصغرى "يوليشكا"!

ثم قال: أرأيت أيها الحمار، هذا شعر، لكنه ليس حقيقياً، فرد الصبي:

هل تسمع أيها السيد المعظم،

تحبني السيدة المعظمة!

ثم قال هو أيضاً: أرأيت سيدي المعظم، هذا ليس شعراً، ولكنه حقيقي).

يضحك على الحكاية كلما تذكرها مع أنه لم يفهمها، فقال بأنه لن يستبدل مع مدينة الطلاب. ليس شعراً لكنه حقيقي، برأس مطأطأ وجبهة على حافة المقعد ضحك حتى دمعت عيناه، جائع شعر أن بطنه سيسقط. تذكر العقيد "شيموني"، يعاقبه الشيطان، يطردونه، لا يطردونه، لكن يا إلهي كيف يمكن نسيان هذا البيت الجميل:

مائة ألف جناح تخفق في قلبه...

أم كيف كان؟ لم يستطع استرجاعه بأيّة طريقة، كأنه ليس هو الذي ألفه، وكأنه قرأه أو حلم به ونسيه على الفور، ضحك، يا لها من حماقة، ينظم المرء شعراً وينساه، لقد أذهبه من رأسه هؤلاء الزواحف بالداخل.

زواحف قباح حساد
لديّ ألف جناح...
أتبعوني نظرهم...

كانت مثل هذه الكلمات بداخله بشكل ما، أخرج من جيب سترته قلماً رصاصاً، ولم يكن لديه أوراق، بحث، وجد قطعة ورقية صغيرة، كوبون حوالة أبيه، خفق قلبه. خر على المقعد كأنه تحول إلى تراب، انهار، شعر فجأة بالتعب، مصير أبيه، سوء حظه، خمن الآن ما مشكلة كينيجي، تكور بشدة حتى صار صغيراً، فجأة وجد نفسه يسير في الغبار الصعب، عندما كان يحمل إلى أبيه الطعام إلى كينيجي الصيف الماضي، يمشي في الرمال العميقة حتى ركبتيه، قدماه لا تتحملان الحرارة، الآن، في البرد القارس شعر أنه يغرقه، العرق نفسه الذي شعر به في الحر الشديد، سمع سباباً، سرى الخوف في جسده، فتح البوابة الصغيرة، رأى الفلاح الأسمر الكبير الذي رفع قبضة يده يزأر، ثمّ فلاحتين أو ثلاثاً يرتدين ثياباً سوداء، يحرضنه ويزمجرن بأعلى صوتهن، يقف أبوه هناك، يبدو صغيراً بينهم وسيء المزاج، قال الفلاح:

– قبلت القيام بهذا العمل مقابل مائة واثنين وستين فورنتاً، أعطيت بالفعل مائتي وعشرة، وأين نحن! لا يوجد له حتى الآن جانب ولا باب ولا أي شيء.

عندما رآه أبوه وقد حضر بحامل الطعام، ضحك عليه، كأن شيئاً لم يكن، ولم يُلقِ لهم بالاً، وقال مازحاً حيث اعتاد أن يسمي كل واحد من أبنائه اسماً مضحكاً:

– جاجي، ماذا أحضرت، حساء بطاطس؟

– حساء دجاج.

رد أبوه بطريقة غريبة:

– واوو، حساء دجاج! انتظر قليلاً، سأذهب معك قريباً.

وأراد الذهاب إلى خلف الفناء، لكن الفلاحين الذين أوقف عراكهم حضور الولد استأنفوا العراك مرة أخرى:

– ولا كرايتساراً وحد! لن أدفع أكثر، لقد خدعتني، وسرقتني، أنت شخص شرير!

لكن أباه غضب:

– اخرس يا هذا؛ حتى لا أرشق هذه الفأس في مكان ما، سأترك العمل، قم به لنفسك! فليسقط كل شيء..

– لقد قبلت القيام بهذا العمل مقابل مائة واثنين وستين فورنتاً!

– تباً لنقودك! وأين هي المائة والاثنان وستون فورنتاً؟ ها هي العارضة، الرافدة، ها هو لوح السطح، ها هو العمل! تباً للمائتي والاثنين وستين فورنتاً الخاصة بهؤلاء، مقملون!

صرخت النساء:

– لقد قبلت القيام بهذا العمل، فلتقم به، عليك إتمامه! لماذا قبلته إذا كنت لا تستطيع القيام به بهذا القدر من النقود؟!

– ما الذي قبلت القيام به؟ وأين ذلك، كانت هناك حاجة لديكم لحائط أعلى بعشرين سنتيمتراً، وشباك أكبر بعشرة سنتيمترات، وباب مزدوج، ورافدة خشبية أسمك، إنكم تريدون قصراً؛ حيث لا تستطيع سيدة عجوز بلا أسنان رفع رقبتها العوجاء بشكل مستقيم حتى تنظر إلى سطح المنزل! لا تتحدثوا كثيراً، اذهبوا إلى الجحيم! مثل هذه المرأة العجوز ليس مكانها القصر، وإنما النعش!

كان هناك الكثير من المستمعين، ضحكوا جميعاً، أمسك أبوه بيده، وصاح فيه:

– تعالَ من هنا!

وانطلقا إلى الشارع، ومن هناك إلى الحانة، وصلا، هدأ أبوه، لكنه يرتجف، ترتعش قدمه، يخفق قلبه، يعتقد أن الفلاحين محقون، وأباه خدعهم، مع أنه يعمل بحرارة ونشاط مثل النار، لا يستطيع ثلاثة أشخاص أن ينجزوا في يوم ما ينجزه في ساعة، يقطع ويرفع ويضع وينظم، حركته مشتعلة، تخفّق وتندلع فيه نار متوهجة، ماذا يفهم هؤلاء الثقال بطيئو الحركة،

كيف يقف هذا الأجير بالمياومة، يتدلى غليون من فمه، ولا يحرك حذاءه إلا قليلاً، هذا إنسان؟ يجري أبوه في القرية عشر مرات إلى أن يصعد أحدهم بحمق وتثاقل إلى السطح حاملاً سلة من التراب، وأيّة أخشاب يحملها إلى السطح، في الصباح لا شيء في أي مكان، وإلى المساء تكون الروافد الخشبية مرصوصة ومزودة بالعروق، ومع أيّة حمقى عليه أن يعمل، الأوغاد، أمن أجل النقود؟!

لا يرى هؤلاء ما فعله لهم المعلم "نيلاش"[51]، حسبوا وفكروا بعقولهم الخفيفة: الفورنتات: الكرايتسارات، حتى يحصلوا على كل ما تقع عليه أعينهم وأفواههم، لكنهم لن يعطوا جراشا[52] واحداً أكثر مما تم التفاوض والاتفاق عليه، بأسلوب بخيل، كان يعمل المسكين لنفسه، يعمل كأفضل إنسان لنفسه، راق لهم هذا، ضحكوا، حصلوا على مجنون يرهق نفسه لأجلهم، دفعوا ثمن الخشب والمواد والأجر اليومي، رأوا أنه لا يسرق شيئاً، وعندما جاوز المبلغ المذكور لأنه لم يكف، ودوا أن يغادر المعلم القائم بالعمل إلى قريته ويبيع منزله وملابسه وقميصه ويدفع مصاريف منزلهم، اشتعل في الطفل غضب شديد وكره عارم. لم يعجبه صنيع أبيه، اعتقد أنه كان يجب عليه القيام بذلك، وأن يفسد أفضل من أن يقع في مثل هذا الأمر القبيح. تناول أبوه بعض الملاعق من الطعام اللذيذ، ثم أمره أن يأكل، فاعتذر بخجل؛ لأنه أراد أن يضعه لنفسه للمساء أو لليوم التالي. لكنه قال له مرة أخرى:

– كل أيها السنجاب أو سأعطيه لهذا الغجري!

فبدأ يأكل بسرعة؛ لأنه يعلم أنه سيفعل ذلك، هو الآن في نفس المشكلة، مثل أبيه في ذلك الحين، جيش من العجائز والمدرسين والرجال، اجتمعوا سوياً لسبه ومعاقبته وطرده، جعل يمسد جبهته، وقال:

– يا إلهي، يا إلهي.

وكان في هذه التنهيدة أكبر تعباً، تعب التصارع مع حماقة الناس. ما هذا الذي يمنع الناس من أن يفهموا بعضهم؟ هل أمِنَ المستحيل أن يستطيع الإنسان الحقيقي أن يعيش بين الظالمين والأغبياء؟ كان أبوه فيضاناً نارياً محرقاً، يشتعل في العمل، وبسرعة لا تنطفئ، يصنع ما يحتاجه الآخرون، وينتهي كل عمل من أعماله بمشاجرة وعدم رضا وثوران، أما هو فيختبئجباناً عن أعين الناس، وينطوي على نفسه، يعيش في مخبئه، في ركنه، في هدوء أفكاره، وكطفل صغير يريد أن يعطي للجميع ويفعل ويفكر في فكرة جيدة للآخرين، وها هو، في أولى خطواته يُحدث كل هذا الثوران. لا، لا يمكن القيام بذلك، لا يستطيع الشرح والتوضيح أبداً، غير قادر على تنوير عقول الناس، هذه الحالة تبقى ملتصقة به طوال حياته، سوف يذكرونها طالما استطاع الناس التذكر.

ينظر إلى قلمه الرصاص، سداسي الشكل، متآكل وقصير، متموج وجميل، كلا جانبيه منحوت، هذه علامته التي قام بعملها على القلم الرصاص، ليس لمعرفته إذا فقده، لأنه إذا فقده أو سُرق فلن يطالب برده ولن يخبر أحداً أنه قلمه، مثل قبعته، عرفها على رأس الجنايني وبقي الشك يلازمه، بل أراد أن يكون قلمه مختلفاً عن قلم أي أحد آخر طوال امتلاكه له، ولا يمتلك أحد قلماً مثله.

يدق بإيقاع: العقيد "شيموني"...وقف بالخارج كبطل... رأى هناك حوله... العالم بأسره!

آه، لم يكن كذلك، كان أجمل. كيف يمكن فقده؟ كز على أسنانه، اعتقد أنه من المجد ضياع تذكرة اليانصيب، فليأخذ الشرير النقود الكثيرة، حقيبة الأوراق النقدية بالكامل، لكن أن يفقد شِعره الخاص! ارتعد من شعور جيد نبع من أنه كان له شعر، وفقده... لو لم يفقده فمن الممكن أن يصبح مشهوراً، ربما سيدرّسه المعلمون بعد ذلك، ويرسب ويعيد الامتحان من لا يستطيع قوله، سيشرحون أن "مائة ألف جناح" لا يجب فهمها على أنها أجنحة طيور حقيقية، وإنما هي ذاك الشيء. سمع أصواتاً، ضاق صدره، لم يعرف السبب، كان قد شعر بارتياح. يا إلهي. علام يحزن، فليست هناك مشكلة.

– ها هو خالي "جيزا" هنا! هنا الخلاص، هنا المنقذ.

ما يحدث بعد ذلك لا يثقل كاهله، لقد تحمل المسؤلية بدلاً منه شخص آخر، جيد أن يُنزل أحد حمل المسؤولية من على عاتق المرء، وتستقيم الروح الإنسانية في مجده، الذي رُمي بالطين، هو الآن أبيض بشكل نقي ومجيد، خرج المدرسون،

ونهض مرتعد الروح، قال المدير بصوته العسكري القوي:
– أيها التلميذ الصغير المسكين، قلت دائماً لماذا يحمّلون هذا المسكين كل هذا، انظروا إليه! الاحترام يشع منه.
غمرت الدموع وجه "ميشي".
– تلميذ وعامل جيد، يكسب نقوداً، من شأن أبيك الفقير أن يفتخر بك، حسناً، ليست هناك مشكلة، يا بني، لكن بعد ذلك عليك تقدير نفسك واحترامها.
وقف "ميشي" شاحباً متفاجئاً، المدرسين ظلوا مظلمين أشرار غرباء، كأن النهاية الجيدة لم ترق لهم، نظر إليه المدرس السمين ذو الكرش الكبير والرأس الذي يشبه البطاطس، ضارباً على كتفه، لم يستطع تحويل عينه من عليه من شدة الكره، حتى عندما غادر أتبعه نظره حتيزداد كراهيةً له. لماذا نظر إليه هذا المدرس باستقذار، لم يكن يعلم المسكين أن هذا المدرس أستاذ تاريخ سيء، لم يعلم إلا مؤخراً أيّة كتابات حمقاء كتبها البدين بخصوص "جابور باتلان"، بغرور عفن ينظر إلى كل شيء في العالم. أما الرئيس فقد تغير موقفه ونظر إليه بطيبة، كان إنساناً جيداً كما يجب أن يكون، وإذا سب تبرم وإذا مدح ثرثر:
– يا بني، أنصحك بشيء واحد، بالنصيحة التي في شعار مدينة الطلاب: "Ora et labora!"... تعرف ماذا يعني هذا؟ صلِّ واعمل! ضعها نصب عينيك: الصلاة والعمل، وحينها لن تفتقد عون الإله، هل تريد بالفعل أن تكون طالباً دبرتسنياً؟
ونظر حوله يضحك على الزملاء، كمن يعلم سبب موت الذبابة، وضبط نظارته بيديه، اشتعل العناد في "ميشي"، تصلب، وأجاب، بلا. تفاجأ الجميع، ونظروا إليه باندهاش، وخاصة الرئيس، لم يستطع فتح عينيه الدقيقتين.
– لاا؟
رفع الرئيس حاجبه عالياً قدر ما استطاع، صاح بشدة:
– ولماذا لا؟!
صمت "ميشي". كاد يصيح بشدة:
– لا، فحسب!
تقابلت نظراته مع خاله الذي نظر إليه بجدية وتعجب، محذراً وراجياً له، بتفهم.... وبقيت عينه في العين البنية الغالية، في العينين العميقتين العزيزتين، كأنه نظر إليه من بعيد، من عالم آخر، عبر حيوات ماضية في الضباب، في السحب، متعب فقد قوته، شعر أن الإرادة والشر يضعفان داخله، تخور القوة والقسوة وتتحولان إلى خير وصبر، تأرجح واهتز على حافة فجوة عميقة، ولم يقل أكثر من ذلك، لم يقلها، فكّر فحسب، همس في نفسه: بعدد لا نهائي من المرات: لا... لا... لا... لا فحسب! لا فحسب! قال المدير:
– لا يجب تعذيب الطفل! إذا لم يرد ذلك فهو لا يريد... سيصير طالباً من باطاك إنسان، وليس فقط طلاب دبرتسن.
عندها فقد قواه أكثر، خاله يمسك يده، تأخذ يديه الباردتين كالثلج يده، ثم تأخذه من بين المحادثات الكثيرة والأشخاص الذين لا يمكن تحملهم، سار بشكل أعمى، كأنه بيد مروحية، صعد السلم، إلى ما بعد الممرات.
– أي سرير سريرك؟
سأله خاله عندما دخلا الغرفة، ذهب إلى سريره وتلمس فراشه بحب، وقال وهو يتلمسه:
– هذا هو سريري، وهذه هي خزانتي.
وضع أصابعه عليها كأنما يضعها على عمود قبر، وأشار:
– هذا هو درجي.
سحب الدرج ليخرج شيئاً منه، لم يكن يعرف ما هو، يده حائرة، رفع الكتاب ذو الغلاف الجلدي الخالي، ارتعشت يده منه لأنه علم أن شعره سوف.. آه.. لن يستطيع كتابته فيه، لا، لأنهم سيقرؤونه، ويعرفونه، ويكون هناك أحاديث بشأنه

ويفقد السر، وأخذ هذا الكتاب فقط، وليفقد الباقي، هذا هو القيمة، الأغلى، رمز الحياة المستقبلية البيضاء النقية، الكتاب الذي لم يمتلئ قط؛ لأن الحياة لا يمكن أن تجلب شيئاً كافياً كبيراً جديراً بالكتابة فيه. لكنه لم يأخذ شيئاً آخر، أمسك بهذا فحسب وغادر برفقة خاله، نزلا من مدينة الطلاب على السلم الخلفي، السلم القديم، من ناحية الكنيسة الكبيرة، المقنطر بشكل مرتفع يصيب بالدوار، خارجين إلى العالم.

ينبعث من فصل الموسيقى غناء إيقاعيّ عبر بابه ذي المصراعين الضخمين، اضطرب قلبه، لن يدخل إليه مرة أخرى أبداً، ولن يكون طالباً دبرتسنياً مرة أخرى. خنقه الألم والضيق عندما نزل من السلم، لم يلتفت إلى الخلف، سقطت دمعة على كل درجة من درجاته، نزل، نزل إلى أسفل، إلى أسفل في العمق، بالفعل هو ليس طالباً دبرتسنيّاً.

في الطابق الأول يعزف الكمان طلاب الإعدادي، والكمانات المسكينة تصرخ بشكل مفاجئ في أيدي الطلاب المبتدئين، ولن يكون طالباً دبرتسنياً مرة أخرى. ظهر أمامه صندوق القمامة الكبير، الضخم الرمادي المصنوع من خشب البلوط، يسكن وراءه للأبد سكين "بوسورميني"، تشنج ذراعه، ود أن يجثو كما في الكنيسة، ويضع جبهته على الأرض ندماً على ذنوبه، و... يخرج السكين... ويأخذه معه... كذكرى لأنه كان طالباً دبرتسنياً. عرف أسفل السلم ذلك المكان الذي أكل فيه البطيخ في الخريف، حتى لا يعطي الآخرين منه، لأي أحد.

مكتبة الطلاب الكبار في الطابق الأرضي، التي حمل منها كتباً للسيد "ناج"، كتاب المجنون الدبرتسني. يا إلهي. السيد "ناج"، الأحدب الصغير، شخص طيب، أصل المجريين العتيق المجيد، كل شيء قبض على قلبه حتى اعتقد أنه سيموت إلى أن يخرجا من البوابة، وفي هذه اللحظة دق الجرس، وارتجف خائفاً: جرس "تشوكوناي" الذي يدقونه إعلاماً بخروجه من مدينة الطلاب.

كانوا يدقون للساعة الثانية عشرة، وكان هو بالخارج بقفزة، أسفل الرصيف الطوبي، تنفس بعمق، انفتحت رئتاه وملأ نفسه بالهواء، كان للتو طالباً دبرتسنياً معانياً، الآن تحرر، شخص سعيد بين الناس. سار في المدينة طائراً يده في يد خاله الباردة، قوة في اليد الروحية، وصلا محل بونجراتس، أعاد النظر متفاجئاً، شعر أن الكنيسة الكبيرة ترفع طاقيتها الحمراء عالياً، تغطيه بنداء عالٍ، مثلما يغطي الطفل بطاقيته الفراشة، في هذا المكان حدثت معه أشياء كثيرة، أمام بوابة السيد المسن، ومتجر الموضة حيث رأى "بيلّا"، وحيث تعارك مع الولد، وبشاعة الميدان الكثيب، ظل الكنيسة الساقط عليه، دق الجرس، داخ وسقط على الرصيف مغشياً عليه. سقط مستلقياً على الحجر، على الأسفلت المغطى بالجليد، لم يكن قد فقد وعيه بعد، ومض في ذاكرته أنه كم كان ساخناً هذا الأسفلت عندما دخل حافي القدمين، مازال أثر قدمه هناك في اتجاه شارع ناجفاراد، في اتجاه السكة الحديدية، سافرت "بيلا"، كم هي مسكينة "بيلا". تَرى هل يبقى أثر انكشافها هنا في الأسفلت البارد وشوارع دبرتسن؟ وابتسم.

لم يعد إلى وعيه إلا في الفراش، بين ذكريات سيئة وأليمة، شعر بحرارة شفتيه وسخونة نفسه والمعاناة الطويلة، دمه يعمل مثل البخار في المرجل، مثل الآلة البخارية الخاصة بخاله الميكانيكي، سمع ذات مرة في السر أن ممتلكات أبيه ضاعت لأنهم عرضوها للمزاد، والآلة البخارية انفجرت في الأرض السهلية، لأنهم قاموا بتفجيرها، ولذلك تم عرض كل شيء للمزاد. في القرية الصغيرة على شاطئ نهر تيسا، أشجار الجوز الكبيرة والبرقوق، يطهون المربى لأسابيع في الخريف، وصاروا شحاذين ومرتحلين، خائفين من ريش الديك الموجود بزي الشرطيين ومن رائحة الخمر المقطر، خاف أن ينفجر مثل ذلك المرجل، ويهلك. حياة أبيه أيضاً هنا، في مرضه، وقد فجر حياته ذلك الانفجار بالأرض السهلية، والحظ السيء الذي كان فيه أجداد أبيه المزارعون، يتحكم فيهم أصحاب الأراضي والأطنان، إلى أن تفجر العالم... يا إلهي.

عندما تحسنت حاله أحضر خاله له برتقالاً أحمر رائعاً، حبتين من "البرتقال دم الزغلول[53]"، أخذهما، لم يجرؤ على شرائهما من قبل، كان معروضاً في فاترينة لايدِنفروست "برتقال دم الزغلول"، لكنه يستخسر دفع ثلاثة كرايتسارات مقابل واحدة منه! وأحضر له زهرة، تذكر ذات مرة مريضاً مثل الآن، أثناء الهروب، جرى والداه على عربة، من ضفة نهر تيسا بعيداً إلى مقاطعة أخرى من الأراضي السمراء إلى الرمال، وهو وشقيقه الصغير، كانا يرقدان مريضين بالحصبة عند خاله الميكانيكي،

الذي كتب إلى أبيه: "أيها الصهر، ولداك مريضان، تعالَ من أجلهما؛ لأنني لا أتحمل مسؤوليتهما!"، هكذا بهذه القسوة جاء أبوه، كان هناك شتاء شديد حينها، صنع له لعبة رنانة من قشر الجوز يطبل عليها، ولم يأخذهما معه؛ من المؤكد أنه لم يكن معه كرايتسار واحد، وهل لديه الآن؟

بكى كثيراً، توجه بجسده ناحية الحائط، جاء إليه "أورتسي" و"جيماشي" عندما كان بمفرده، ولم يكن بالمنزل خاله، فرح كثيراً، صافح كلا منهما وكان فخوراً، فهو يرقد في سرير جميل مثل هذا الذي في السكن، في غرفة دافئة مثل حمام البخار، وعلى المنضدة الصغيرة الموجودة بجانب السرير زجاجات دواء وفناجين وملعقة فضية، وهو مريض!

– مرحباً "ميشي".

– مرحباً "أورتسي".

– مرحباً.

– كيف حالك؟

– على ما يرام.

– قرأتُ رسالة السيد "يانوش توروك" التي كتبها إلى الشرطة، هل قرأتَها؟

– لم أقرأها.

– بخصوص أنه يعترف بأنه سرق تذكرة اليانصيب من جيبك.

– متى؟

– عندما أريتها له عندهم، عند منزل أبيه.

رجع "ميشي" بذاكرته، هذا ممكن. لأنه لم يردها له.

– كما كتب أنه وضح العشرة فورنتات في جيبك عندما وضعت الحقيبة على الأرض.

– نعم كنت أعتقد ذلك.

– وحصل على مائة وعشرين فورنتا من دكان السجائر وأعطاك منها عشرة، وأنفق أربعين على ملابس "لبيلا"، هذه خمسون، وعشرة فورنتات أنفقها على أشياء أخرى، هذه ستون، تكلف السفر عشرين فورنتاً، هذه ثمانون، أعطى عشرة فورنتات "لبيلّا" عندما ذهبت إلى أسرة الأمير، هذه تسعون، ودفع أيضاً للسيارة، فورنتين، واشترى باقة بثلاثة فورنتات، هذه خمسة وتسعون، وبدد الباقي، واشترى بآخر خمسة عشر كرايتسارا ثلاثة طوابع بريدية، وكتب ذنبه إلى أبيه وخالك والشرطة مرة واحدة، وأراد حينها القفز في الدانوب، لكنه لم يفعل؛ لأن المياه باردة.

ضحك "أورتسي" و"جيماشي" بشدة، لكن "ميشي" قال مذهولاً:

– مائة وعشرون فورنت، هذا كل شيء.

كان مزاجه سيئاً جداً:

– مائة وعشرون فورنت كل شيء، إذن بأي شيء كانت ممتلئة حقيبته؟

قال "أورتسي":

– ليست هذه المشكلة لأنهم دفعوها بالكامل! حصل السيد "بوشالاكي" على الستين فورنتا وخالك على الخمسين؛ لأنك حصلت على عشرة فورنتات وتم حسابها من المبلغ. لكن خالك "جيزا" لم يقبلها؛ لأن أسرة العم "توروك" فقيرة وهو مدين لهم بجمائل كثيرة على حد قوله. لأن المعلم "توروك" دفعها حتى ينقذ شرف ابنه.

كان فم "ميشي" حامضاً، سكت. يتحدث الولدان كثيراً، المدرسة تعلم أنه لا يريد أن يكون طالباً دبرتسنياً أكثر من ذلك، وهذا يعجب الجميع. وصل خاله "جيزا"، وطلب من الولدين أن يتركا "ميشي" بمفرده حتى لا تعاوده الحمى. في اليوم التالي جاءت "فيولا" مع "شاني"، بكت بشدة، واعتذرت "لميشي" وقبلته، قالت له أن "بيلّا" تقبل شاعرها الصغير" احمر وجه "ميشي" من هذا، وأن "بيلّا" حالفها حظ عظيم، وأرسلت ألف فورنت، ذهبت من القطار مباشرة في سيارة إلى

أسرة الأمير، استقبلتها العمة بشكل جميل، تحبها كثيراً، وستترك لها ملكية أرض أجارفار[54]؛ لأنها تشبه بشدة ابنتها المتوفاة، وتبلغ مساحتها تسعة آلاف هولد، والآن أصبح لحظهم أساس، وسيذهب "شاني" إلى بست للدراسة إذا كان يرسب هنا، وسيحضرون له أستاذاً جامعياً كمعلم له! استمع "ميشي" إلى كل هذا كأنه حلم، وأصابته حمى شديدة مجدداً.

خلال أسبوع تحسنت حاله ونهض، لكنه ضحك على نفسه، نسي المشي، يترنح مثل ذبابة الخريف، سأله خاله ذات مساء على حين غرة:

– متى نذهب إلى مدينة الطلاب.

وأضاف بشكل لطيف:

– إلى الحصة؟

خفض بصره، وقال بصوت منخفض:

– لن أذهب أبداً.

صمتا، النار مضيئة، ويصوّت المرجل الصغير بالخارج، سأله خاله بصوت منخفض:

– إذن ماذا ستكون؟

سكت "ميشي" لوقت طويل، لم يجرؤ على الإفصاح عما كان في قلبه، خفض رأسه، سأله خاله مرة أخرى:

– ماذا تريد أن تكون يا بني العزيز؟

– معلم الإنسانية.

صمتا ملياً مرة أخرى، قال خاله:

– معلم! بدون تعلم لم يصبح أحد كذلك!

خجل "ميشي"؛ يريد أن يتعلم، لا ليس أن يتعلم، وإنما أن يَعْلَم! يعلم كل شيء يعلمه إنسان، خشي أن يكشف نفسه، وسره الذي لا يعلمه أحد، لا يريد أن يفصح عنه حتى أمام نفسه، لا يستطيع أن يخبر به أحداً، ربما أمه فقط، أنه: "شاعر..". قال خاله الحكيم بمزاحه اللطيف:

– ماذا تقصد بهذا يا "ميشيكي"، ستنطلق هكذا وتذهب في الطريق، ومن يقابلك على طريق الحياة السريع سوف تبدأ في تعليمه على الفور؟

أغمض "ميشي" عينه بابتسامة سرية:

– نعم.

نظر إليه خاله بعين واحدة، مبتسماً، أخرج من فمه سيجاره الطيب الرائحة وقال بصوت أقوى:

– أفضل شيء أن تأتي معي إلى المدرسة التي أدَرّس فيه وتتعلم هناك، إلى أن تعرف تماماً كافة تصريفات الأسماء والأفعال وكل ما يعلمه الآخرون؛ حتى تستطيع تعليمه بدورك للآخرين.

جلسا صامتين، بكي "ميشي"، كان سعيداً، فرح أن الأمر سيكون هكذا، قال خاله بلطف شديد، كصوت محفز روحي يحرر قلبه من الأغلال والقيود:

– أم تريد تعليم الإنسانية شيئاً آخر؟

أخذ "ميشي" ينظر إلى خاله، ترقرقت عيناه بالدمع، وتقوقع كدودة صغيرة، وقال متأثراً بصوت منخفض وهدوء شديد:

– أن تكون طيباً فحسب... كن طيباً، كن طيباً حتى الممات.

وترك رأسه يتهاوى، أصبحت الغرفة رخامية اللون، تملكته رغبة لا توصف: الذهاب، المغادرة من هنا إلى تلك المدرسة التي يعلم هو فيها بالفعل... هو... خاله العزيز، الطيب... إلى السماء...

إلى السماء...

لأنها هي نفسها السماء.

كلمة المترجم

إن أمتنا العربية بحاجة ماسَّة إلى أن تلامس هذا النور الذي تشعه الترجمة، فهي بحق كفيلةٌ بقيادة الأمة نحو نهضةٍ حضارية حقيقية؛ لأن بها تنقل المؤلَّفات الأجنبية إلى لغتنا –فننهل منها ونبني عليها مثلما فعلت أوروبا مع المؤلفات الإسلامية، فكانت سبباً في نموها وتقدمها على النحو الذي نراها عليه الآن– وبها يبلُغ التعريب أهدافَه القصوى، ولذلك فإن أخذها بعين الاعتبار يمكن أن يكونَ له أثرٌ عميق في مجتمعاتنا بجوانبها المختلفة. والخلاصة أن للترجمة أهمية بالغة، وهذا غيض من فيض فقط، ولو بحثنا في تاريخنا، لوجدنا شواهد عدة على هذا الكلام، فالترجمة بمثابة اللسان الناطق وجسر للتواصل مع الآخر. وهذا هو الجزء الأول من مقدمة كتابنا – وهو كما جرت العادة – عن أهمية الترجمة.

والآن عزيزي القارئ ننتقل إلى عنصر أساسيّ آخر في المقدمة، ألا وهو تناول السيرة الذاتية للمؤلف بإيجاز دون تقصير.

ولد "جيجموند موريتس" "Móricz Zsigmond" في 29 يونيو 1879، لكنه تم قيده في سجلات المواليد الرسمية بتاريخ 2 يوليو. أبوه "بالنت موريتس" "Móricz Bálint" مزارع ومقاول بنّاء، أما أمه فتنحدر من أصول عائلة مسيحية محافظة. بدأ دراسته في مدينة دبرتسن "Debrecen"، ثم في عام 1899—1900 درس علم اللاهوت المسيحيّ ذات النهج الإصلاحيّ، ثم درس القانون في نفس المدينة، وقد صار محرراً مساعداً في جريدة أخبار دبرتسن "Debreceni Hírlap". في عام 1900 انتقل للعيش في بودابست، وهناك استكمل دراسة القانون ثم العلوم الإنسانية، بيد أنه لم يدخل امتحان المعلمين التخصصيّ. في عام 1902 أضحى مدرساً بالحصة في إحدى مدارس الثانوية العامة، ثم مسؤولاً بوزارة الثقافة، ثم بمكتب الإحصائيات المركزيّ. عمل بجريدة الأخبار "Az Újság" اليومية في الفترة ما بين عامي 1903 و1909.

قام بين عامي 1903 و1906 بعدة رحلات لجمع التراث الشعبيّ من أشعار وحكايات وأغنيات في محافظة صاتمار "Szatmár"، وأثناء تلك الفترة جمع خبرات اجتماعية عظيمة أثرت إيجاباً على تطوره ككاتب. تزوج من "أيوجينيا هوليتش" "Holics Eugénia" الشهيرة باسم "يانكا" "Janka" في عام 1905، وأنجب منها طفلاً سرعان ما وافته المنية وهم لم يتجاوز سن السبعة أشهر. له خمسة أبناء آخرين.

في عام 1915 عمل مراسلاً حربياً على الجبهة، حيث كتب العديد من التقارير. رحب بالثورة الديمقراطية المدنية، وبدءاً من الأول من ديسمبر 1918 تم تعيينه نائباً لرئيس أكاديمية فوروشمارتي "Vörösmárty Akadémia"، وفي يناير من العام التالي أصبح عضواً في جمعية كشفالودي "Kisfaludy Társaság". تم استبعاده سريعاً من هذه الجمعية لأسباب سياسية، وحُجبت كتاباته من الظهور باستثناء ما كان يكتبه لمجلة الغرب "Nyugat" والمساء "Est". كما تم منع مسرحياته من على خشبات المسرح، مما أدى به إلى الانزواء في بيته الريفيّ.

انتحرت زوجته في عام 1925، وفي العام التالي مباشرة تزوج من الممثلة "ماريا شيموني" "Simonyi Mária".

عمل ما بين ديسمبر 1929 وفبراير 1931 مع "بابيتش ميهاي" "Babits Mihály" بشكل مشترك في تحرير مجلة الغرب "Nyugat"، وكان من نصيب "موريتس" الجناح النثريّ للمجلة. ثم تولى تحرير مجلة شعب الشرق "Kelet Népe" في ديسمبر 1939 بعد أن تسلمها من بال صابو "Szabó Pál".

توفي في 4 سبتمبر 1942 فجراً بمشفى كوراني بالعاصمة بودابست.

أشهر أعماله:

1 – الكتابان المقدسان.1906 A Két Biblia

2 – عالم الغابات والحقول.1908 .Erdő–mező világa

3 – يوديت وأستر. 1908 .Judith és Eszter

4 – الكرايتسارات السبعة. 1909 .Hét krajcár

5 – تراجيديا 1910 .Tragédia

6 – القرية. 1911 .Falú

7 – عالم سعيد. 1912 .Boldog világ

8 – المجريون. 1912 .Magyarok

9 – رياح الربيع. 1912 .Tavaszi szél

10 – الحب. 1913 .Szerelem

11 – عاصفة الكاربات. 1915 .A kárpáti vihar

12 – حكاية في المروج الخضراء. 1915 .Mese a zöld füvön.

13 – خطاب حب. 1918 .A szerelmes level

14 – حادثة. 1927 .Baleset

15 – جونلات من ذهب. 1928 .Arany szoknyák

16 – خمر وحب وألم. 1929 .Bor, szerelem, bánat

17 – الأقارب. 1932 .Rokonok

18 – ترانسلفانيا. 1935 .Erdély

19 – الرجل السعيد. 1935 .A boldog ember

20 – أسد سجين. 1936 .Rab oroszlán

بعض من الأفلام التي أُخذت عن أعماله:

1 – لا أعيش بلا موسيقى. 1935 .Nem élhetek muzsikaszó nélkül

2 – كن طيباً حتى الممات. 1936 .Légy jó mindhalálig

3 – هورتوباج. 1936 .Hortobágy

4 – الوردة الصفراء. 1940 .Sárga rózsa

5 – النجمة الجميلة. 1942 .Szép csillag

6 – حقول تغلي. 1949 .Forró mezők

7 – الأقارب. 1954 .Rokonok

8 – أسطورة هورتوباج. 2006 .A Hortobágy legendája

9 – طائر سماوي. 2011 .Égi madár

10 – الراعي الأسود. 2015 .A fekete bojtár

"كن طيباً حتى الممات" إحدى روائع كاتبنا المجري الذي تناولنا سيرته الذاتية في ثنايا الأسطر السّابقة، والصادرة في عام 1920، وقد تم تحويلها إلى فيلمين شهيرين حققا نجاحاً باهراً عامي 1936 و1960. تعد من روايات الأطفال المتميزة، رغم أن "موريتس" لم يخصصها لذلك، وإنما تندرج تحت فئة الروايات الاجتماعية، كما تمت ترجمتها إلى ما يقرب من 20 لغة أجنبية.

كتب "موريتس" هذه الرواية تحت تأثير ما تعرض له من إزعاجات ومضايقات، فأظهر إنسانيته ونقاءه وصفاءه فيها مقابل الاتهامات والتجاوزات التي صدرت ضده، وصور بشكل مباشر الأشرار المعادين للثورة والخير. شخصيته وسماته، ماضيه ومعتقده، كل هذا يرسمه لنا بطل الرواية خلال فترة حياته بمدينة الطلاب، الولد "ميهاي نيلاش" أو "ميشي"، الذي يرمز إلى الكاتب نفسه في حقيقة الأمر. عبَّر "موريتس" عن أزمته العميقة بعد المصائب والملمات القومية، وأشار قلبه الطفوليّ الحساس باهتزازات وارتجافات إلى مشاعره الحياتية الشخصية. أراد "موريتس" أن يسلط الضوء بقصة ميشي على رمز الخير الْمُسَاء فهمه، المظلوم، المعذَّب، المقهور داخلياً.

تحكي الرواية آلام ومآسي حياة ميشي، التلميذ الدبرتسني[55] الفقير، الذي تعرضت أسرته لمصيبة.
تُحكى الرواية بلغة شعبية تعكس الألوان اللغوية الخاصة بكل طبقة من طبقات المجتمع وتصف الروايةُ شخصياتِها عبر الحوارات والمحادثات المتكررة بأسلوب جذاب ومشوق.
يكتسب هذا العمل قيمته من رسالته التي تتجلى كاملة في عنوانه والذي بحسبه ينبغي التصرف بشكل طيب بالرغم من كل صعوبة ومعاناة، كما يجب الالتزام دائماً بالحقائق الإنسانية الخالدة كالصدق والنقاء الأخلاقيّ والاحترام والتقدير المتبادل بين الناس وتجنب الرذائل والتماس الأعذار للآخرين. كما يدعو هذا العمل الأدبيّ إلى معاتبة ومحاسبة الضمير، ويحث الصغار والكبار اليوم على الوقوف بمثابرة واصطبار ومرابطة بجانب الحقيقة مهما كانت الصعوبات والأزمات، ولننتصر عليها ونجتازها بنجاح، لكن في كل الأحوال: فلنكن طيبين، ولنبقَ كذلك حتى الممات.
وختاماً أخي القارئ الجليل، نحمد الباري –سبحانه وتعالى– الذى وفقنا لما قدمناه، فنضع قطراتنا الأخيرة بعد المشوار الذى خضناه لصياغة هذه المقدمة بالشكل الأمثل، ولم يكن هذا بالجهد القليل ولا نستطيع أن ندَّعي فيه الكمال، ولكن لنا عذرنا أننا بذلنا فيه عصارة جهدنا، فإن وفقنا فهذا هو هدفنا، وإن أخطأنا فلقد نلنا شرف المحاولة، آملين من الله أن تنال هذه المقدمة البسيطة، وترجمة الرواية من بعدها، قبولكم واستحسانكم. والآن أترككم لمطالعة هذا العمل الرائع والولوج وسط سطوره والإبحار في طياته.

د. عبد الله عبد العاطي النجار

القاهرة في 15 إبريل 2018

[1]) شجرة لها القدرة على التأقلم مع الظروف المحلية يتراوح ارتفاعها من 20 إلى 30 متراً، لها ساق مستقيم وقشرة ذات لون رمادي يميل إلى البنيّ، وتأخذ أوراقها شكل حراشيف قصيرة، وثمارها كروية الشكل. (المترجم).

[2]) بالعربية: الغابة الكبيرة، وهي غابة توجد في مدينة دبرتسن بالمجر، ويعيش فيها أنواع فريدة محمية من النباتات والحيوانات. استمدت الغابة اسمها من أشجارها الضخمة التي يبلغ عمرها 100- 120 عاماً. (المترجم).

3)) لونجاميتا "Longaméta": لعبة كرة شعبية مجرية كان يلعبها الأطفال والتلاميذ في المقام الأول، وهي تلعب بالمضارب بواسطة فريقين. (المترجم).

4)) نسبة إلى ميهاي مونكاتشي "Munkácsy Mihály" الرسام المجري الشهير الذي عاش في الفترة ما بين 1844 و 1900. وهو أشهر رسام مجري في القرن التاسع عشر على الصعيد الدولي. (المترجم).

5)) مجلة الكنيسة الإنجيلية المجرية الوحيدة التي كانت تصدر "تحت الأرض" وصدر منها أربعة أعداد فقط ما بين يناير ويونيو من عام 1952. كان من المفترض أن تصدر شهريّاً. (المترجم)

6)) اسم الكتاب في لغته المجرية الأصلية "Történelmi Arcképcsarnok". (المترجم).

7)) اسم الكتاب في لغته المجرية الأصلية "Ezeregyéj jutalomkönyv". (المترجم).

8)) السُكّ: كل سكة ضيقة يتباعد حداها بقياس يقل عن معيار السكك القياسية البالغ 1٫435 مترا، ويبلغ البعد بين حدي السكاك 1٫067 مترا غالباً، وأحياناً يكون دون ذلك. (المترجم).

9)) يعد هذا الطبق أحد الأطباق الوطنية لدولة المجر ورمز من رموزها، وهو عبارة عن حساء من لحم وخضار وبأنواع مختلفة من البهارات. يعود أصل هذا الطبق إلى مملكة المجر في العصور الوسطى، وهو وجبة شعبية معروفة في أوروبا الوسطى وإسكندنافيّاً وأوروبا الجنوبية. (المترجم).

10)) من أبرز مميزات الحصان الهجومية في لعبة الشطرنج أنه يستطيع القفز فوق القطع الأخرى. ويستطيع أن يقتنص البيادق. الحصان (♘ ♞) هو قطعة من قطع الشطرنج الصغيرة، يتم تمثيلها برأس حصان ورقبته وقيمته النظرية ثلاث بيادق، يتحرك الحصان ثلاث مربعات في كل مرة: مربعان في أحد الاتجاهات ثم مربع جانبي وتشبه حركته حرف L ويمتاز دون غيره من القطع بقدرته على التجاوز والقفز فوق القطع الأخرى التي تعترض حركته. (المترجم).

11)) صحيفة مجرية. (المترجم)

12)) أي بدون صيغة التعظيم في المخاطبة باستخدام كلمة "حضرتك". (المترجم).

13)) وردت في النص بلغة طفولية ونطق غير صحيح لكون المتكلم طفلا. (المترجم).

14)) نسبة إلى كالّوشمايين، وهي منطقة في مقاطعة بشمال السهل العظيم شرقي المجر. (المترجم).

15)) من أسماء الإناث بالمجر، وأصله: "Zsuzsanna"، وهنا صيغة الدلع منه. (المترجم).

16)) جيماشي وجدته. (المترجم).

17)) أنثى الحصان البالغة. (المترجم).

18)) وردت هكذا بالنص الأصلي ويقصد "أرجوكم". (المترجم).

19)) تشكل هذه الحروف مقطوعة موسيقية مجرية. النوتات الموسيقية تكون غير مفهومة بالنسبة لغير المتخصصين، ويكفي أن نعلم أن نوتة نشيد "بلادي" الذي يعرفه الجميع في مصر والعالم العربي هي على النحو الآتي: بلادي بلادي بلادي لك حبي وفؤادي (دو فا فا دو فا فا مي فا صول لا فا لا سي دو لا صول فا لا صول لا صول فا لا صول) مصر يا أم البلاد (لالالا صول فا سي لا لصول2) أنت غايتي والمراد (سي سي سي صول فا دو سي لالا صول فا) وعلى كل العباد حتى آخر النشيد (لالالا صول فا سي لا فافا لا سي دو لالالا صول فا لا صول لا صول فا لا صول). (المترجم).

20)) نسبة إلى دبرتسن، ثاني أهم مدن المجر. (المترجم).

21)) مدينة مجرية شهيرة توفى فيها السلطان العثماني الأشهر سليمان القانوني (المعظم)، وكانت فيها آخر المعارك الحربية التي شهدها وشارك فيها. (المترجم).

22)) حلوى تتخذ شكل الكعك أو البسكويت، تطغى عليها نكهة الزنجبيل ودبس السكر. تخبز في الكثير من الأحيان على هيئة إنسان أو حيوان. وهي أكلة أوروبية المنشأ تعود للقرون الوسطى، حينما كانت تعد للفرسان قبيل مباريات المبارزة أو المعارك. وانتشرت اليوم في معظم أنحاء العالم، وتقدم في العديد من المناسبات مثل عيد الميلاد. (المترجم).

23)) نبتة شجيرة شوكية معمرة يصل ارتفاعها إلى حوالي مترين. لها ساق خشبية متفرعة والفروع متعرجة ومتداخلة. الأوراق صغيرة وبسيطة ذات لون أخضر يميل إلى الصفرة، ويوجد على جانب الأوراق شوكتان حادتان وهذه الأشواك سامة. الأزهار أحادية تخرج في الجانب المقابل لمجموعة الأوراق وهي جرسية الشكل لونها بيضاء يميل إلى الزرقة، الثمرة عوزة (لبية عنبية) لونها أخضر، وعند النضج يتغير إلى اللون الأحمر، حلوة المذاق وتؤكل، تحتوي على بذور كثيرة والبذرة شكلها كروي منضغطة وذات لون بني. يعرف العوسج بعدة أسماء منها: قصر، عوسجة، عنب الذيب، الزعرور، المصع. (المترجم).

24)) تشبه كلمة "fura" باللغة المجرية، وهي تعني: غريب. (المترجم).

25)) أذن الفأر أو آذان الفأر: جنس نباتي ينتمي إلى الفصيلة الحمحمية من طائفة ثنائيات الفلقة. يضم أكثر من ثلاثين نوعاً مقبولاً وعشرات أخرى لم يحسم أمرها بعد. ينمو النبات في مناطق الغابات البرية ومناطق السهول المعتدلة. هذا النبات له ساق مكسوّة بالشعر، وأوراق طرية مكسوّة بالشعر أيضاً. ولها أزهار صغيرة، ذات لون أزرق فاتح ولون أصفر في وسطها، وتنمو بشكل عنقودي. كما أن لبعض أنواعها أزهاراً بيضاء أو وردية، وعلى العموم فإن كل الأنواع تقريباً، لها براعم وردية. يعتبر البعض أذن الفأر رمزاً للصداقة والحب الصادق. ويرد ذكر هذه الزهرة في عدد من الأساطير. ففي أحد الأساطير الألمانية كانت عبارة لا تنسيني هي آخر ما قاله حبيب لحبيبته قبل أن يغرق وهو يحاول أن يأتيها بزهرة. (المترجم).

26)) جبال البرانس، أو البيريني أو البرينيو هي سلسلة جبلية تقع جنوب غرب أوروبا، بين فرنسا وإسبانيا وتمثل الحدود الطبيعية بينهما. تمتد لمسافة قدرها 430 كلم من خليج بسكاي بالمحيط الأطلسي في الغرب إلى البحر المتوسط في الشرق. تسمى أعلى نقطة بها "بيكو دي أنيتو". (المترجم).

27)) سلسلة جبال تقع بين فرنسا وسويسرا وألمانيا. (المترجم).

28)) منطقة غابات تقع بين بلجيكا ولوكسمبورغ وفرنسا. شهدت المنطقة إحدى أواخر معارك الحرب العالمية الثانية في نهاية عام 1944 وبدايات عام 1945 والمعروفة بمعركة الثغرة. يخترقها نهر الميز أحد روافد نهر الراين. (المترجم).

(29) مجموعة جبلية تقع في جنوب وسط فرنسا. (المترجم).

(30) بلدية محلية فرنسية تقع جنوب غرب فرنسا. (المترجم).

(31) (Düsseldorf) هي عاصمة ولاية شمال الراين - وستفاليا في غرب ألمانيا وعاصمة محافظة دوسلدورف وإحدى أكبر مدن البلاد. وهي ثاني أهم مركز اقتصادي وعالمي في ألمانيا، بعد فرانكفورت. يشق المدينة نهر الراين، وتشتهر بالأزياء وبكثرة المناسبات والمعارض التجارية التي تقام فيها. ففي شهر تموز من كل عام، يزور مدينة دوسلدورف أكثر من 4.5 مليون شخص لحضور معرض المتعة (بالألمانية: Größte Kirmes am Rhein) الذي يعد من أشهر المعارض الترفيهية التي تنظّم فيها. إضافة لذلك، احتلت دوسلدورف المرتبة الأولى على مستوى ألمانيا والسادسة على مستوى العالم في قائمة أفضل المدن من حيث جودة المعيشة، وذلك وفقاً للمسح الذي أجرته مؤسسة ميرسر في عام 2009م. (المترجم).

(32) يقصد نياندرتا. (المترجم).

(33) في الحقيقة هذه الكلمة غير موجودة في اللغة المجرية، وهي من اختراع جيماشي، والكلمة المراد استخدامها هنا هي "Koppantás" وتعني الطرق أو الدق أو الخبط. (المترجم).

(34) تعني هذه الكلمة بالمجرية: سمك الكراكي. (المترجم).

(35) الإمبراطور الرابع من السلالة المقدونية من الإمبراطورية البيزنطية وحكم بين 913-959. كان نجل الإمبراطور ليو السادس من زوجته الرابعة زوي كربوسينا وابن شقيق سلفه الإمبراطور ألكسندر، وقد ورث عن أبيه ذوقه الأدبي، ولكنه لم يرث عنه كفايته الإدارية فقد عهد بتصريف شؤون الحكم إلى زوجته هيلينا ووزرائه، ويرجع السبب إلى تفوق النزعة الأدبية على النزعة السياسية؛ فقد اشتهر بميوله للعلم والمعرفة والدراسات التاريخية وأسهم في التقدم الفكري البيزنطي بما اصدره من مؤلفات عديدة، وما أقدم عليه من تشجيع للأخرين على التأليف. (المترجم).

(36) يتحدثون لغة خانتي (هانتي) التي كانت تُعرف سابقاً أيضاً باسم آستياك. (المترجم).

(37) قوم رحل سيطروا في القرنين الرابع والخامس الميلاديين على وسط آسيا وعندما أجلتهم قبائل أقوى منهم اندفعوا غرباً فتضخم جيشهم من أثر انضمام الشعوب المغلوبة إليهم. ومع بلغوهم أوج قوتهم في أواخر القرن السادس الميلادي، نهبوا جميع جنوبي روسيا والبلقان الحاليين، وفشل حصارهم للقسطنطينية سنة 626 م. لكنهم ظلوا يسيطرون على السهل المجرى إلى أن هزمهم شارلمان. لم يرد لهم ذكر بعد القرن التاسع الميلادي. هناك شعب آخر يدعون بالآفار وهم مسلمو داغستان الرعاة في الاتحاد السوفييتي، اعتقد البعض أنهم ينحدرون من بقايا الآفار الآسيويين القدماء، إلا أن الدراسات الحديثة أثبتت بأنه لا علاقة لآفار داغستان بآفار أوراسيا. (المترجم).

(38) قبيلة سيبيرية قديمة يتكلم سكانها اللغة السامودية التي هي جزء من اللغات الأورالية. أكثر هذه القبيلة هم شعب نينيتس الذين يعيشون في أوكروغ يامالو-نينيتس الذاتية وأوكروغ نينيتس الذاتية. اليوم، هذه القبيلة هي جزء من كيان روسي يدعى كراسنويارسك كراي وفي تومسك أوبلاست. (المترجم).

(39) أعضاء شعب يتحدث اللغة الموردوفية من عائلة اللغات الأورالية ويعيشون بشكل رئيسي في جمهورية موردوفيا وأجزاء أخرى من المنطقة نهر الفولجا الوسطى من روسيا. (المترجم).

(40) مجموعة عرقية فنلندية أوجرية، الذين عاشوا تقليدياً على طول أنهار فولجا ونهر كاما في روسيا. ما يقرب من نصف الماريين اليوم يعيشون في جمهورية ماري إل، مع عدد سكان كبير في

جمهورية باشكورستان وتتارستان. (المترجم).

41)) شعب يتحدث اللغة الأدمورتية. (المترجم).

42)) البوشناق أو البشناق أي البوسنيون هم مسلمو إقليمي البوسنة والهرسك وجوارها ومناطقهم الرئيسية هي البوسنة والهرسك 43% وإقليم السنجق الواقع بين منطقتي كوسوفو ذاتية الحكم حالياً والجبل الأسود ولا يزال السنجق تابعاً لصربيا حتى اليوم مع أن 95% من سكانه من المسلمين. ويتمتع البشانقة وخاصة في إقليم السنجق بالصلابة والشجاعة والشراسة في مواجهة العنصرية الصربية. ولذلك لم يستطع الصرب القيام بمجازر عرقية فيه خلال الحرب الأهلية. ينتمى البوشناق في الأصل إلى السلافيين الجنوبيين لكنهم حين اعتنقوا الإسلام قبل وصول الفاتحين العثمانيين بحوالي قرن كامل وانتشر الإسلام بشكل واسع في منطقة البلقان خلال وجود العثمانيين، وبعد المجازر التي حصلت في البوسنة وألبانيا بعد وقوعها تحت حكم الامبراطورية النمساوية بعد فترة من موقعة زنتا 1699 بين العثمانيين والنمسا وروسيا وبولندا هاجر الكثير منهم إلى تركيا الحالية والبلاد العربية جنوب المتوسط واطلق الناس عليهم (البشانقة) أو (البوشناق) نسبة لبلادهم. (المترجم).

43)) كانوا من البدو الرحل الترك الذين يمثلون الفرع الغربي للاتحاد الكوماني الكيبتشاكي. بعد الغزو المغولي (1237م)، قرروا المطالبة باللجوء في المجر، ثم إلى بلغاريا. وتشير أبحاث أخرى إلى أن الكومانيين قوبلوا بترحاب في المجر قبل الغزو المغولي. (المترجم).

44)) مجموعة عرقية وطنهم هو في الشمال الشرقي من روسيا الأوروبية حول أحواض أنهار Vychegda بيتشورا ونهر كاما. ويعيشون في اتحاد روسيا. وينتمون إلى فرع العصر البرمي من الشعوب الفنلندية الأوجرية. (المترجم).

45)) الملك ميداس (King Midas) في الميثولوجيا الإغريقية هو ملك كان له قدرة على تحويل أي شيء يلمسه إلى ذهب، والاسم موجود لدى العديد من الملوك الفريجيين، وكان قد ظهر لأول مرة في التاريخ بإهدائه عرشاً لدلفي حوالي 700 ق م، والكتابات اللاحقة تقول أنه تزوج ابنة أجاممنون، ملك كيمي الأيولية، وتاجر مع الأقوام البعيدة ويظهر اسمه على وجهة إحدى أعظم النصب التذكارية المنحوتة في الصخر في إقليم شاكاريا. (المترجم).

46)) أي قبل كلمة تبتئس. (المترجم).

47)) بدلا من الـ"ly"، فالصحيح أن تكتب هكذا: "Mihály". (المترجم).

48)) يقصد إليكا. (المترجم).

49)) شريط من الفولاذ طويل مقوَّس يُلَفُّ على محور الساعة ونحوها، فاذا انبسط حرَّكَ دَوَاليبَها. (المترجم)

50)) هكذا نسبه إلى نفسه. (المترجم).

51)) يقصد بها هنا: الحاذق لعمله، الماهر في صنعته. (المترجم).

52)) جراش "Gras" هو وحدة نقدية صغيرة من العملة النقدية الفورنت قديماً. (المترجم).

53)) يسمى أيضا في العامية "أبو دمه". يسمى بهذين الاسمين نسبةً للونه الشديد الحمرة وذلك يعود لاحتوائه على الأنثوسيانين، ويتميز هذا البرتقال بصغر حجمه مقارنةً بالبرتقال العادي وفوائده الكبيرة والمميزة والمتنوعة لجسم الإنسان. (المترجم).

54)) منطقة في مقاطعة زالا بالمجر. (المترجم).

[55]) نسبة إلى مدينة دبرتسن "Debrecen" المجرية، وهي ثاني أكبر المدن في الدولة، وبها جامعة عريقة مصنفة دوليّاً.